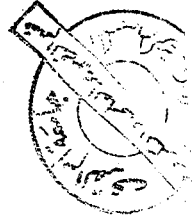


عبد الحميد بن محمد بن عبد الوهاب
دار النشر
١٤٠٩ / ٩ / ٢٠

عبد الحميد بن محمد بن عبد الوهاب

دار النشر
١٤٠٩ / ٩ / ٢٠



المجلة العربية للعلوم
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم المكتبات والنشر

الإسلام في القرآن الكريم

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الكتاب والسنة

١٤٠٩ / ٩ / ٢٠

اعداد والطابع
محمد عبد العزيز الخويطر
الرحماني



اشرف الدكتور

سيد عبد العزيز سليلي



١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م



وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ
فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعَكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

سورة المائدة آية - ٤٨

وَنَبِّئُكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ

سورة الأنبياء آية - ٣٥



وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَيْكَ وَأَبْتَيْ بِي

قديسي
مدينة

أخوه مسالم، كتابت اللجنة وصفا
تعميرها وأصلها
بشرع النووي ج ١٧ / ١٩٧

الحمد لله
بسم الله

كلمة شكر

لله الحمد والشكر وحده ،فهو الذى سددني وهداني
الى هذا السبيل ، سبيل طلاب العلم الذى لا زكاة لنفس الانسان
الا باجتناؤه ، والتلذذ بالمحافظة على ثمراته بفضله - وهو
الكريم - وصلت الى ما وصلت اليه وبفضله وحده وفق المسئولون
في جامعة أم القرى لقبولي في الدراسات الاسلامية العليا . فكانت
النتيجة اعداد هذه الرسالة المباركة التي لم أسبق الى تأليف
مثلها من حيث موضوعها .

فجزى الله خيرا كل من وقف في جانبي أثناء اعدادها
وحفظه من كيد الكائدين وحسد الحقودين انه عليم خبير .

المقدم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أحمد الله بجميع محامده وأثنى عليه بما هو أهله . حمدا يبلغ
رضاه ، وثناء يكافئ مزيده ، ويجيرني من سخطه معتقدا أنه سبحانه
خلق الانسان ، لا لعب ولغو ولكنه للعمل بطاعته وهدية ولقصد
حمده وشكره ، فمن الله عليه بالسمع والبصر وفضله بالعقل والفكر ، فهدى
من التزم سبيل الرشاد ، وأضل من اختار سبيل الخسران والعناد ،
فأكرم من عمل الصالحات فيما ابتلاه ربه به ، وأهان من أظهر الجحود
والنكران فيما اختبره به .

وأصلى وأسلم صلاة وسلاما دائمين متلازمين الى يوم الدين
على سيدنا محمد بن عبدالله الذي أخبر أن الجنة محفوفة بالمكاه ، فدعا
الى تحملها بالصبر على مضارها ، كما أصر أن النار محفوفة بالشهوات فحذر من
الانغماس في ملاذها .

وعلى آله وصحابه الذين صبروا على تحمل مشاق الدعوة الى الله .
فبلغوا ما أمروا به لعباد الله من نور وهدى ورشاد فخاضوا بذلك غمار
البرارى والبحار فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، وأحسن جيل حمل لواء
السعادة للبشرية ، فكانوا بذلك أعد لها حيث أيدهم الله بقوة الصبر على
السراء والضراء وهداهم الى نعمة الشكر على ما هم فيه من الآلاء .

وبعد : فان ما من الله به علي أن جعلني في حظيرة طلاب
العلم الشرعي ، وذلك شرف أيضا شرف ، ومنزلة ما فوقها منزلة في الحياة ،

منزلة حق لصاحبها رفع رأسه أمام الأقران والقول في كل محفل ومكان
وان أخلص في طلبه كان في جملة الوارثين للأُنبياء وان عمل به
كان في عداد الصديقين ، وهذه المنزلة ينالها العبد في كل علم
وهي في المنقول عن خير البشر أخص وأولى ، وفيما يتعلق بقول رب البرية
هو أعظمها مقدارا وأرفعها شرفا ومنارا ، بالدرس فيه والتعلم بهنجلي
صدأ القلوب ، وبالتدبر فيه والعمل بأحكامه تستصبح الأنفهام ، وبالنبور
المقتبس منه تستضاء الأحلام ، ان العلم به والعمل بهديه مطية للخلود
في الجنان .

ولما وفقت للرشف من قليل معينه الذي لا ينضب واستهديت
بمعرفة مراميه التي هي في كل حين تتجدد ، رأيت أن أدخل الباب
فيما يشفي غليل ما كان العقل فيه حائرا والفكر فيه تائها والكثرة
الكثرة من الناس تتساءل عما تفرع في الحياة من مجرياته .

فاذا القرآن الكريم فيه هداية ذلك الحائر وملاذ ذلك التائه
وبيان منبع تلك الحقائق وتوضيح غايتها ، فانقشع ثوب الظلام لمن
تحير في ذلك . و سطع نور الهداية لمن اهتدى وطلب النجاة من
المهالك .

وذلك أن الانسان قد يرى أن الحياة تقسوعلى أناس وهم في الظاهر
محسنون . وتزدهر أمام آخرين وهم كما يرون سيئون . والانسان العاقل
أمام هذا الواقع المشاهد في كل لحظات حياته يجعله يتساءل طالبا

تفسير معنى أن إنسانا يسلك سبيل الضلال والفواية يتمتع بما تشتهي نفسه وتلذذ له رغائبه ، وآخر التزم طريق الهدى في ظاهره والله أعلم بباطنه سدت في وجهه الأبواب ، وتكالبت عليه هموم الشر والنكاد . وامتدت بساحته أطناب الفتن . فيرى طلب الحق والدعوة إليه تهمة يهان صاحبها ، واعتماد المنكر في الحياة منقبة يكرم مرتكبها وإعطاء المنازل لغير أهلها ظاهرة سادت في حياة الناس . فإن قلنا لماذا وقع كل ذلك ؟ قالوا : ذلك هو من قبيل الحظ والبخت حتى قال القائل قديما :

فإذا سمعت بأن مجدودا حوى عودا فأشرف في يديه فصدق
وإذا سمعت بأن محروما أتى ماء ليشربه ففاض فصدق
إلى أن قال :

لكن من رزق الحجا حرم الفنى ضدان مفترقان أى تفرقا (١)
وقال الآخر :

ومالبي لا تمسي وتصيح في يدي كرائم أموال الرجال الفغائل (٢)
وقال الآخر :

لا تطلبن بآلة لك رتبة قلم البليغ من غير حظ مفضل
سكن السما كان السماء كلاهمل هذا له رمح وهذا أعزل

(١) من أبيات تنسب للشافعي من بحر الكامل انظر : ديوانه ص ٦٤ ،

نشر دار الجيل بيروت .

(٢) من قصيدة لابي فراس الحمداني من بحر الطويل .

(٣) البيتان من بحر الكامل .

فيكادون يجعلون حركة الانسان في حياته مقصورة على ما يسمونه
بختا أو حظا مما لا يشفي غليل السائل ، بل يزيد حيرة وتيبها .
لذلك ، ولما لا أعلم حينما سجلت موضوع هذه الرسالة وجود
مصنف قد تناول الجواب عن ذلك وأفصح في بيان ما يتعلق به من معان
ساقفة من مصدر معصوم من الخطأ والزلل ، عزمت متوكلا على الله جل
قدرته في اختيار موضوع يجيب إن شاء الله عن ذلك التساؤل الذي
طالما راودتني فكره بعد أن تسهت فيما للحظ قد نسبوه فاتضح أن الأمر
ليس له تعلق بحظ أو سعد ، ولكن الأمر كما أخبر به خالق الانسان
سبحانه والعالم بكنهه وطبيعته والذي قد كتب في لوح محفوظ
عنده ما يعلم أن العبد سيفعله قبل أن توجد العوالم والاكوان
ومن ضمنها الانسان وما قد يختاره العبد لمعاده وحاضره وهو أيضا الذي
أخرج الانسان الى دار الدنيا ليظهر ذلك المعلوم كما علمه سبحانه ،
وليثم ابتلاء عباده من طريق العمل المنطلق من الأمر والنهي والخير
والشر فيستحقون الثواب والعقاب بما صدر منهم من الأقوال والأفعال
المطابقة لعلم الله في سابق قضاة وقدره .

ولولا العمل ما استحق أحد ثوابا ولا عقابا ولكن من عدل الله
ورحمته جعل الثواب والعقاب مترتبين على العمل . ومن هنا أرسل الرسل
وأنزل الكتب وشرع الشرائع لاقامة الحجة على المخالفين ، حتى لا يدعون

عدم العلم فيما سيتخذونه عذرا لوعقوبوا على ما ارتكبه من مخالفات
إذ من الممكن أن يقولوا كيف تعذب على شيء لم يكن تحت كسبنا وقد رتنا .
ولكن لما ظهر علم الله في أفعال عباده وأقوالهم حصل الثواب
أو العقاب على معلومه الذى ظهر من طريق الابتلاء فثبتت الحجة وسقطت
الأعذار . وكما ابتلى الله الخلق بالأمر والنهى ابتلاهم أيضا بما زين
لهم من الدنيا وبما ركب فيهم من شهوات كما قال عز وجل ﴿ انما
جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ (١) وكما
قال سبحانه ﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه
على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ (٢) وقوله تعالى ﴿ تبارك الذى
بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم
أيكم أحسن عملا ﴾ (٣) .

ففي هذه الآيات الكريمات يتضح للناظر المتأمل المجال الذى
يدور فيه ابتلاء الانسان . فقد أخبر سبحانه في آية هود أنه خلق
السموات والأرض ليبتلى عباده بأمره ونهيه وهذا من الحق الذى خلق به
خلقه حيث أوجد السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه .
كما أخبر سبحانه في آية الملك أنه خلق الموت والحياة ليبتلى أيضا عباده

(١) سورة الكهف آية ٧ .

(٢) سورة هود آية ٧ .

(٣) سورة الملك آية ٢ .

فكانت الحياة ليختبرهم بالأمر والنهي . وكان الموت الذى ينالون بعده عاقبة الابتلاء من الثواب والعقاب كما أخبر في آية الكهف أنه زين للناس ما على الأرض ليختبرهم ، فيظهر من يوم شرما عند الله من جزاء مؤجل . ومن يوم ثريزة الحياة الدنيا وزخرفها المعجل وهذا يظهر أيضا من طريق الأمر والنهي إذ منهما انطلق ابتلاء الناس بعضهم ببعض كما قال عز وجل ﴿ وجعلنا بعضهم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا ﴾ (١) ولأن الأمر والنهي سراج يجعل الانسان يتصف بالخلق الجميل ما يقوم به من فعل حميد ، وقول سديد كما يجعله يجتنب كل خلق سيء فيترك كل فعل قبيح وكل قول زور . وهذا يعطينا أن التكليف متضمن لمكارم الاخلاق ومحاسن الافعال والصدق بالقول والاحسان الى الخليقة ولتكميل الانسان نفسه بأنواع الكمالات .

وبعد ذلك كله تظهر فائدة التكليف الكبرى فيما يتلقاه الانسان من ثواب جزيل مستمر . ولاظهار ذلك كله جاء أمر الله ونهيه كما يتجلى ذلك صريحا في ختام آية جمعت كل ما يتصل بالتكليف سواء كان فرضا أو نفلا أو أربا أو أخلاقا ، وهي قوله تعالى ﴿ إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا

كالتى نقضت غزلهما من بعد قوة أنكاشا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون
أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم
فيه تختلفون * (١)

في مناسبة هذه الآية لما قبلها يقول أبو حيان (٢) : (لما ذكر
الله تعالى * ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة
وبشرى للمسلمين * (٣) وصل ما يقتضى التكليف فرضا ونفلا وأخلاقا
وأدبا) وقال ابن عطية : (والعدل فعل كل مفروض من عقائد وشرائع
وسير مع الناس في أداء الامانات وترك الظلم ، والانصاف وإعطاء الحق
والاحسان فعل كل مندوب إليه) . (٤)

وقد جاء الأمر بالعدل في عدة آيات في القرآن الكريم كقوله
تعالى * إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ولذا حكمت بين
الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعماء يعظكم به إن الله كان سميعا
بصيرا * (٥)

كما جاء الأمر بالاحسان في آيات كثيرة كقوله تعالى * وأحسن
كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين * (٦)

-
- (١) سورة النحل آية ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ .
(٢) البحر المحيط ج ٥ / ٥٢٩ نشر دار الفكر .
(٣) سورة النحل آية ٨٩ .
(٤) المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز ج ٨ / ٩٤ ط / الأولى قطر .
(٥) سورة النساء آية ٥٨ .
(٦) سورة القصص آية ٧٧ .

وقوله تعالى * وقولوا للناس حسنا * (١)

وإيتاء ذى القربى من الاحسان إلا أن الشيء قد يخص بالذكر اهتماما به وتنبيها على أنه ينبغي الاعتناء به أكثر من غيره . ولذلك جاء الأمر به كما في آية الروم * فئات ذى القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون * (٢)

وكما جاء النهي في الآية الكريمة عن الفواحش وإن كانت منكرا لأنها ما أنكره الشرع لقبحه . وكذا البغى أيضا بعد المنكر . والبغى التناول والاستعلاء على الناس والتجبر عليهم ، فالمنكر يعم الاثنين إلا أنهما خصا بالذكر لخطورتهما وشناعة ارتكابهما ففي الآية عطف العام على الخاص وعطف الخاص على العام .

ومن الآيات التي ذكر فيها النهي عن الفحشاء والمنكر والبغى

قوله تعالى * قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاشم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون * (٣)

والوفاء بالعهد أيضا لفظ عام متضمن لقوله تعالى * إن الله

يأمر بالعدل والاحسان * إن كل ما يلتزم به الانسان من قول أو فعل

(١) سورة البقرة آية ٨٣ .

(٢) سورة الروم آية ٣٨ .

(٣) سورة الاعراف آية ٣٣ .

لا يخالف الشرع هو عهد يجب الوفاء به (١) . ومن الايات التي جاء فيها
الامر بالوفاء بالعهود قوله تعالى * وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به
لعلكم تذكرون * . (٢)

كما بينت الاية أن الاعراض عن الاوامر والنواهي التي أهمها الحلف
بالله غدروخيانة لأن الأيمان من أخطر المسائل التكليفية . ولا غرابة
في ذلك حينما نجد اليمين في الحكم مناصفة مع البينة وذلك أنه إن لم
تثبت بينة يكون الحكم تبعاً لليمين . وقد جاء التغليظ في الوعيد
على الذين يتعمدون الأيمان وهم كاذبون في قوله تعالى * إن الذين
يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة
ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم * . (٣)

فعدم الوفاء بالعهود كلها يجعل الانسان خاسراً في الابتلاء
كحال من تنقض غزلها فكلما غزلت منه شيئاً كلما رجعت تنقضه فكذلك
الذي يتخذ الأوامر والنواهي نفاقاً ورياءً وظهوراً لا قيمة له ولا ينظر
لتحركه في الحياة بمنظار الجد ؛ لأن فعله وقوله مبني على الغش والدخل .

(١) أحكام القرآن للقرطبي ج ١٠ / ١٦٩ نشر دار الكتاب
القاهرة .

(٢) سورة الانعام آية ١٥٢ .

(٣) سورة آل عمران آية ٧٧ .

يقول الرازي في تفسيره لقوله تعالى * إنما يبلوكم الله به * (١)

أى بما يأمركم وينهاكم وقد تقدم ذكر الأمر والنهي . (٢)

ويقول القرطبي : واختبرهم بذلك ليرى من يجاهد نفسه فيخالفها

من يتبعها ويعمل بمقتضى هواها وهو معنى قوله تعالى * إنما

يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون * . (٣)

هذا فيما يتعلق بالنوع الأول ما يبتلى به العبد وهو التكليف .

وهناك نوع آخر وهو الابتلاء بالنعم والمصائب كما قال عز وجل * ولولناهم

بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون * . (٤)

فالابتلاء اذن نوعان ولا ثالث لهما : ابتلاء بالأمر والنهي

وابتلاء بالنعم والمصائب . ويجمع ذلك كله قوله تعالى * ونبلوكم بالشر

والخير فتنة وإلينا ترجعون * . (٥)

والمأمل في الابتلاء بهما يدرك أن كلا منهما ينقسم قسمين :

مقيد ومطلق ، فالمطلق كالخسران في الآخرة باستحقاق غضب

الله وعذابه . وفي الدنيا بالكفر والمعاصي وسيء الأخلق . وهذا مفض

(١) سورة النحل آية ٩٢ .

(٢) التفسير الكبير للرازي م ١٠ / ج ٢٠ / ١١١ نشر دار الفكر .

(٣) ج ١٠ / ص ١٧١ نشر دار الكتاب العربي القاهرة .

(٤) سورة الاعراف آية ١٦٨ .

(٥) سورة الانبياء آية ٣٥ .



الى الاول إن لم يتب صاحبه منه . وشر مقيد كالمصائب التي تصيب
الانسان من مرض وخوف وحميع أنواع البلايا الدنيوية ؛ لأنه بالصبر
عليها يوءجر الانسان ويترقى في الدرجات العليا . فهو من هـذا
الوجه ينقلب نعمة . والخير كذلك قسما : خير مطلق كسعادة
الانسان بدخوله دار النعيم في الآخرة واتباع طريق النهى بالايمان
بالله وما يتبع ذلك من أوامر ونواه وكل ما يشمل حسن الخلق .

وخير مقيد يتصف بالخير به من وجه دون وجه كامتثال أمر الله
في لوازم المال كمن يستعمل ما رزقه الله من مال فيما يعود عليه بالمصلحة
الخاصة كتلبية حاجة الانسان فيما أحله الله له أو العامة كامتثال أوامر الله
فيما أوجب فيه من حقوق وكصرف الانسان ما من الله به عليه من صحة وقوة
فيما ينفع الناس ويرضى الله .

ويكون ذلك شرا من وجه كإففاق المال فيما يغضب الله مما
يترتب عليه فساد وضياع .

كل ذلك وما هو من قبيله سبق علم الله به قبل وقوعه . فالابتلاء
وإن أظهر علم الله السابق في خلقه وجودا وعيانا بعد أن كان غيبا في
علمه ، ومن ذلك ابتلاء أبوى الانس والجن كلا منهما بالآخر فأظهر
ابتلاء آدم ما علمه منه وأظهر ابتلاء ابليس ما علمه منه ولذلك قال سبحانه

للملائكة * اني اعلم ما لا تعلمون * (١)

وتتابع هذا الابتلاء في الذرية الى يوم القيامة فابتلى الانبياء

بأممهم وابتلى أممهم بهم فقال لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم :
" انما بعثتك لا ابتليك وابتلى بك " . (١)

ذلك أن الله سبحانه ربط الاسباب بمسبباتها فجعلها محل

حكمته في امره الديني الشرعي وأمره الكوني القدرى . ومحل ملكه وتصرفه .

فقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم وفي الثواب

والعقاب والحدود والكفارات والإامر والنواهي والحل والحرمه ، كل ذلك

جعله مرتبطا بالاسباب قائما بها بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب

لما يصدر عنه بدليل أنه من الطبائع المعروفة والسنن المحسوسة أن الأجسام

حينما يحل بها مكروه أو تسعد بمحبوب مرغوب لاشك أن النفس تميز

بين الصنفين فتعرف أعلى ما هو خير وأسفل ما هو شر بحيث يتتبع

الانسان مواقع كل منهما ليحذر من القهما . فإما أن يختار أم ما هو خير ،

وإما أن يختار أخط ما هو شر وذلك ما به قد تميز الانسان من غيره .

فامتزاج الخير بالشر يظهر الصابر على المكاره ، والشاكر على النعم

والرغائب .

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه أنظره بشرح النووي على مسلم
كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها . باب الصفات التي
يعرف بها أهل الجنة وأهل النار حـ ١٧ / ١٩٧

والا لانهارت مطالب الجد والظفر . ولاستوى أصحاب الباطل
بأصحاب الحق وبالتالي لتعطلت الامال وكسلت النفوس . ولما ظهر
أولوا الصلاح والنهي . وعدم حصول ذلك كله ينافي التخيير فلو
وجد الشروحه لكان الانسان مظلوما مقضيا عليه . ولو وجد الخير
منفردا لما ظهر الصابرون في قسمهم ، ولما فاز المتوكلون في دروسهم
ولسقد النظرقيته والفكر حكمته . فسبحان من جعل الجمع بينهما
ضروريا به تتم المصلحة .

ولتوضيح وتجلية أمر ما أوجزته في هذه العجالة أقول :

سلكت في تأليف هذه الرسالة منهاجا مبنيا على قواعد علمية
استفدتها من مناهج العلماء الذين لهم قدم راسخ في العلم والتأليف
والذين لا ينبغي لطالب العلم إغفال منهجهم في ذلك أو الاعراض عما اختاروه
من مسالك ؛ لأن لهم الدراية في البيان ، وعرفوا بالاخلاص في التحييص
والتقرير فيما يتعلق بمعاني القرآن الكريم من تفسير فكان المنهج
كالتالي :

من الواضح للقارىء أن عنوان الرسالة هو ((الابتلاء في القرآن
الكريم)) وهذا العنوان سيرسل فكر القارىء للبحث عن علاقة الابتلاء
بالانسان الذى هو محل ظهور نتيجته . فاقضى الأمر ببيان علاقة الانسان
به فكانت العلاقة هي الخلق والايجاد .

فعدت الباب الأول بعنوان : " الغاية من خلق الانسان " .
متضمنا بيان وتوضيح علاقته بخلق الانسان وبيان حكمة ابتلائه وبيان ما
منّ الله به على الانسان من وسائل إن هو استعملها في الحق حالفه
الفوز فيما كلف به من أوامرونواه. ولما كان الانسان كذلك أى مبتلى
اقتضى الأمر بيان ما يبتهلى به . فعدت بابّ الابتلاء بالخير والشر "
الذى تضمن توضيح معناهما والحكمة من الابتلاء بهما فظهر أن التمييز
بينهما ومعرفة مجال كل منهما يتوقف على فصل " الابتلاء " بالتكليف " لأن
التكليف وحده هو الذى يحدد للانسان صفتها ومجرى فلكيهما .
وهذا المعنى يدعو الانسان الى التطلع لمعرفة مصادر التكليف
ولا شك أنه من عند الله العليم الخبير الذى اختار صفة من عباده حملهم
أمانة التبليغ ، وهم الانبياء عليهم الصلاة والسلام وهذا أمر يقتضى بيان
معنى النبوة والرسالة والوقوف على صفة أهلها وخصوصياتهم فاقتضى عقد
باب يبين فيه علاقة الانبياء بالابتلاء وعلاقتهم بأممهم وعلاقة أممهم
بهم ، فظهر أن الأمم المدعوة من قبل أنبيائهم كانوا قسمين من حيث
تعرضهما للابتلاء .

قسم ابتلوا فأمنوا فآزادوا إيماننا كلما تعرضوا للاختبار ، وقسم

ابتلوا فلم يؤمنوا فكان الهلاك والخسران محيطان بهما .

هذا فيما يتعلق بخصوص القاعدة التى انطلق منها مبنى الرسالة

العام ، أما بخصوص توضيح هذه المباني وتبسيطها بالمعاني فكان مسلكي

في ذلك كالاتي :

١ - لما كان القرآن عربيا فنزل بلغة عربية كان لزاماً أن ينطلق الباحث فيما يتعلق بتفسير كتاب الله العزيز وعرض معانيه من الحقيقة اللغوية ليتضح الفرق بينهما وبين الشرعية والعرفية . ومن هنا كنت كلما رأيت فصلا في الرسالة يعتمد في تععيد مباحثه وفكره على معنى لغوي تعرضت للحديث عن الحقيقة اللغوية التي هي لفظ مستعمل ابتداءً بحيث وضعه أهل اللغة . وهو بهذا أمر توقيفي كوضع لفظ الأسد للحيوان المفترس . ومن المعنى اللغوي يمكن الوقوف على المعنى الشرعي الذي استفيد وضعه من الشارع كالصلاة للأفعال المخصوصة ، والزكاة للقدر المخرج .

وكذلك بالتعرض للمعنى اللغوي بتمييز المعنى العرفي الذي وضعه أهل العرف وهو إما عام كالمنقول من الحقيقة اللغوية الى غيرها للاستعمال العام وهجر الأول كاسم الدابة هو في اللغة لكل ما يدب على الأرض فيشمل السمك والطيور فخصصه العرف العام لكل ذات حافر أو عرف خاص كاطلاق لفظ " الفاعل " على الاسم المعروف عند النحاة او كالأركان التي يبنى عليها القياس عند الأصوليين . (١)

(١) كتاب جمع الجوامع بحاشية البناني ج١/١٥٤ المطبعة

الشرقية سنة ١٢٩٨ هـ .

ونظرا لأن الحقيقة العرفية والشرعية هما في الأصل منطلقتان من الحقيقة اللغوية رأيت أن التعرض للمعنى اللغوي الذي يقتضيه المقام هو من صلب الرسالة فالتزمت بذلك كلما اقتضى الحال .

٢ - نظرا لأن الموضوع يتصف بالشمولية لجميع تحركات الانسان في حياته سواء بما يتعلق بحاضره في الدنيا أو مستقبله في الآخرة فأضطر أحيانا للحديث عما قد يتعلق بعلم الاجتماع أو ما هو له تعلق بالاقتصاد أو له تعلق بالقياسات الفكرية والتي لها دليل من القرآن على جواز سلوكها . ولذلك في بعض الأحيان سيجد القارىء مسائل تعتمد على هذا النوع من الاستدلال .

٣ - فيما يتعلق باثبات الحقائق بالدلائل القرآنية أو الحديثية سلكت طريق عرض الفكرة أولا ثم الاستدلال عليها بالاية القرآنية وان اقتضى الأمر توضيحها بالحديث الشريف سقته لذلك معرضا عند ذكر القواعد النحوية أو المسائل البلاغية الا في النادر لا سيما حينما يتعلق الأمر بالقصص الذي هو لصيق بموضوع الابتلاء ومن صلبه .

وعلى الله وحده اتكالي واليه أفوض أمري ان هو نعم المولى ونعم النصير ،،،،

الباب الأول

الغاية من خلق الانسان

ويشتمل على الفصول التالية :

الفصل الأول : خلق الانسان للابتلاء أو للعبادة

الفصل الثاني : هكلمة الابتلاء

الفصل الثالث : أتاح الله للانسان ما صحح به ابتلاءه .

توطئة :

خلق الله الانسان لمدأراد وجوده وهو الفعال لما يريد ولا يسئل
عما يفعل سواء فيما قد خلقه فيه ، وهداه فيما قد قدره عليه جعله سميعا
بصيرا فأمره ونهاه ثم أظهر استجابته لذلك ، فأثابه بالحسن ، وكشف
عن إعراضه فجراه على ما أبداه .

وحيثما كان الانسان ذا اختيار ، كرمه الله فجعله خليفة في الأرض
حاملا أمانة التكليف وسخر له ما في السموات وما في الأرض وأحاطه بمعالم
التكريم بدءا من خلقه حينما نفخ فيه من روحه واختتامه بجعله مميذا بعقله
مدركا بتفكيره .

وبناء على ما قد فعله الانسان بعقله قد عاقب الله من عصاه ،
وأثاب من أطاعه إذ المشاهد في الناس : إما محسن بنعمة الله عليه ،
وأما مسيء بخذلان الله وإيائه ، ولله النعمة على المحسن والحجة على
المسيء ، وذلك حينما افترض طاعته على عباده ، وجعل رضاه عند أهل
التقوى فمن امتثل أمره واجتنب نهيه لا حجة عليه ، ومن أظهر خلاف الطاعة
لا حجة له ، والانسان بحاله التي عليها من موت لا ناس كانوا يعايشونه ،
وايجاد لا ناس لم يكونوا في الحياة يشاركونه ، كل يوم يرى وارثين
للها لكين قد شيعوا غادين ورائحين الى الله قضى نحبتهم وبلغ أجلهم ،
يرون وقد غيبوا في صدع الأرض لا موسدون ولا صمهدون تركوا الأسباب

وراء ظهورهم وفارقوا الأُحباب ومن كانوا يأنسون بهم في حياتهم وياشروا
التراب حينما وضعوا في قبورهم فكانوا كما قيل:

جرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد
فأرى النعيم وكل ما يلهى به يوما يصير الى بلى ونفاد (١)

والانسان كذلك في فترة حياته الى موته يرى الجد والقصد يشملان الحركة
في كل جانب من جوانب المسخرات له كما أخبر سبحانه بذلك ملفتا نظر
الانسان الذى لم يبهتد لمعرفة الغاية من خلقه * أولم ير الذين كفروا
أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي
أفلا يؤمنون وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا
سبلا لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها
(٢)

معرضون ، وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون *
فالعقل إذن من الناس في هذه الحياة لا شك أنه يدرك القصد

في خلق كل شيء سواء في القدر أو في الشكل الذى خلق عليه ولا شك
في أنه أيضا يدرك فقدان المصادفة وانتفاء العيب في تنظيم هذه الموجودات
الهائلة وهو بهذا الادراك والتدبر يقع في نفسه أن لخلقه غاية وحكمة
عظيمة . فاذن له أن يتساءل عن مصيره وعن وجوده بعد أن لم يكن
ويبحث عن الجواب . وماذا عساه أن يجد من الجواب عند ذلك إنه

(١) الابيات من بحر الكامل .

(٢) سورة الانبياء آية ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .

مهما بحث وكد نفسه في الطلب وعنى عقله وفكره في محاولة الظفر بهذه الضالة المنشودة فانه لن يجد في ذلك ما هو أمثل ولا أهدى سبيلا مما أجاب به القرآن العظيم من هذا السوء ال .

وبالنظر في الجواب ، عند ذلك يتبين أنه جاء ت نصوص في القرآن العظيم مرة تدل على أن الانسان خلق للابتلاء وأخرى تدل على أنه خلق للعبادة فقوله تعالى * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن ^(١) علا * يدل على أن الله خلق العباد للابتلاء . واللام في قوله تعالى " ليبلوكم " متعلق بخلق أى خلق موتكم وحياتكم ليظهر أعمالكم فيثيب من أحسن ويجازى من أساء . فالغاية إذن من خلق الانسان اختباره .

وقوله تعالى * وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ^(٢) * يدل بمنطوقه على أن الغاية من خلق الانسان هي عبادة الله وقد يظهر للقارىء غير المتأمل عند النظر المجرد أن هناك تعارضا بين القضيتين . والحق أن القرآن المعجز منزّه عن التعارض أو التناقض ان هو كلام العليم بالأشياء وماهيتها ، والخبير بعواقب الأمور ومبتدآتها ، فهو من لدن عليم علما مطلقا في الأزل قبل خلق الأشياء كلها . والقرآن نزل لهداية الانسان ليبقى مستقرا في طريق الفطرة التي خلق عليها

(١) سورة الملك آية ٢ .

(٢) سورة الذاريات آية ٥٦ .

فهو يحدد المعالم التي يجب على الانسان أن يعتقد بها ويعمل بمقتضاها
والا ضل وخسر ، ومعنى هذا أن التعارض أو الاختلاف الذي لا يمكن
التوفيق بينه محال فيه وإلا فكيف يكون هاديا للانسان ، ولذلك يلزم
علينا في هذه الرسالة تجلية الأمر في قضيتنا بالتعرض للمعنى اللغوي
لكل من الابتلاء والعبادة .

الفصل الأول

خلق الانسان للابتلاء وللعبادة

لم يخرج الابتلاء في اللغة عن معنى الاختبار والامتحان ومعنى
الإخلاق ، ففي مقاييس اللغة ^(١) قال : (الباء واللام والواو وحرف العلة
أصلان أحدهما إخلاق الشيء . والثاني نوع من الاختبار ، ويحمل عليه
الاخبار أيضا . فأما الأول فقال الخليل بلى يبلى فهو بَالٌ ، والبلى
مصدره ، وإذا فتح فهو البلاء .

وفي المصباح ^(٢) : (وبلاء الله بخيرا أو شر يبلاؤه . وأبلاه

بالالف وابتلاه ابتلاء بمعنى امتحنه) .

وفي اللسان ^(٣) : (بلوت الرجل بلاء ، وابتليتته اختبرته ، وبلاه

يبلاؤه إذا جربه واختبره ، وابتلاه الله امتحنه والاسم البلوى والبلية
بفتح الموحدة وكسر اللام والبلاء) .

وفي مفردات ^(٤) الاصفهاني قال : (بلى الثوب بلى وبلاء

أى خلقه ومنه لمن قيل : سافر بلاء سافر أى أبلاه السفر ^(٥) وبلوته

اختبرته كأنى أخلقته من كثرة اختبارى له وقرى * هنالك نبلوكل نفس

ما أسلفت * ^(٦) بنون المضارعة ونصب كل ، أى تعرف حقيقة ما عملت ،

ولذلك قيل : أبليت فلانا إذا اختبرته .

وفي القاموس بشرحه تاج العروس ^(٧) : (بلى الثوب كرمى

(١) لابن فارس مادة بلوى ج ٢٩٢ / ط / الحلبية الثانية .

(٢) مادة بلى ج ٧٨ / ط / الثالثة .

(٣) مادة بلا ج ٣٥٥ / ط / دار المعارف القاهرة .

(٤) كتاب الباء ص ٦١ ط / الحلبية .

(٥) معناه حنكه السفر وجربه من كثرة معاشته له . (٦) سورة يونس آية ٣٠ .

(٧) فصل الباء من باب الواو والياء ج ٤٢ / ١ نشر مكتبة الحياة بيروت .

يبلى بلى بالكسر والقصر . وبلاء بالفتح والمد . وأبلاء هو وبلاء وبلى
كرضى - الى أن قال - وابتليته اختبرته وجربته وابتليت الرجل فأبلى
أى استخبرته فأخبرني ومنه حديث : (لا أبلى أحدا بعدك أبدا)^(١) أى
لا أخبره وأصله من قولهم : أبليت فلانا وأبليتته امتحنته واختبرته .
فأصل الابتلاء ان الاختبار ، وينص الراغب^(٢) على ما يفيد
أن الابتلاء يتضمن أمرين : أحدهما تعرف حاله والوقوف على ما يجهل
من أمره . والثاني ظهور جودته وردائه . وربما قصد به الأمران وربما
يقصد به أحدهما ، فاذا قيل : الله ابتلى فلانا فليس المراد منه الا ظهور
جودته وردائه دون التعرف لحاله والوقوف على ما يجهل من أمره وإن الله
علام الغيوب ، وعلى هذا قوله عز وجل * وان ابتلى ابراهيم ربه بكلمات
فأتتهن *

(١) أخرجه أحمد في مسنده قال ثنا أبو معاوية قال ثنا الاعمش عن
شقيق عن ام سلمة قالت : دخل عليها عبد الرحمان بن عوف
قال : فقال : يا أمه قد خفت أن يهلكني كثرة مالى أنا اكثر
قريشا مالا . قالت : يا بني فأنفق فاني سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول : إن من أصحابي من لا يرانى
بعد أن أفارقه فلقي عمر فأخبره فجاؤ عمر فدخل عليها فقال
لها : أنا منهم . فقالت : لا ولن أبلى أحدا بعدك . رواه
ذكرهم صاحب التقريب في الثقات . والاعمش من الطبقة الثانية
في المدلسين . المسند ج ٦ / ٢٩٠ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ص : ٦١ ط / الحلبية .

أقول : ويرادف البلاء في معنى الاختبار الفتنة ، فقد وردت

الفتنة في القرآن الكريم بمعنى الاختبار وهو الأصل لها في اللغة . ففي

الفائق (١) : الفتنة أصل الابتلاء والامتحان ومنه فتن الفضة اذا ادخلها

النار ليعرف جيدها من رديتها . وكما قيل في شدة المنازلة بلاء ومحنة

قيل فتنة وفتن فلان بفلانة ، اذا بلى بها .

وفي المفردات للاصفهاني : وجعلت الفتنة كالبراء في أنهما

يستعملان فيما يدفع إليه الانسان من شدة ورخاء وهما في الشدة

أظهر معنى وأكثر استعمالاً ، وقد قال فيهما * ونيلوكم بالشر والخير فتنة * (٢)

وقال : في الشدة * انما نحن فتنة فلا تكفر * (٣) وقال تعالى

* أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * (٤) أي :

لا يختبرون فيميز خبيثهم من طيبهم * (٥) وبهذا علم . أن الفتنة

مرادفة للابتلاء في المعنى ، والناس يشملهم معنى الاختبار بحيث يتعرض

الانسان المختبر لأمر شاق عليه في الغالب ليظهر من يخالف هواه

ويكبح جماح نفسه ومن يطلق العنان لشهواته فيجازى كلا حسب عمله .

(١) كتاب الفائق في غريب الحديث للزمخشري ج ٣ / ٨٧ الطبعة الحلبية الثانية .

(٢) سورة الانبياء آية ٣٥ .

(٣) سورة البقرة آية ١٠٢ .

(٤) سورة العنكبوت آية ١ - ٢ .

(٥) ص : ٣٧٢ ط / الحلبية .

والتكاليف سميت ابتلاءً نظراً لأن فيها مشقة معتادة على
الابدان سواء فيما يأمر الله به وينهى عنه من ذلك. فالابتلاء ^{إذ} إن إظهار
لفعل المكلف بعد أمره ونهيه بأوامر ونواه معددة. وإلى هذا المرمى
يشير الرازي في تفسيره (١) بقوله : والتحقيق أن الابتلاء والامتحان
والاختبار فعل يظهر بسببه أمر غير متعين عند العقلاء بالنظر إليه
قصداً إلى ظهوره . ويوضح الرازي تعريفه هذا فيقول : وقولنا : فعل
يظهر بسببه أمر . ظاهر الدخول في مفهوم الابتلاء . لأن ما لا يظهر
بسببه شيء أصلاً لا يسمى ابتلاءً .

أما قولنا : أمر غير متعين عند العقلاء وذلك لأن من يضرب
بسيفه شيئاً لنا لا يقال : إنه يمتحن ، لأن الأمر الذي يظهر منه
متعين وهو القطع والقدر بقسمين فإذا ضرب بسيفه سبعا يقال يمتحن
بسيفه ليدفع عن نفسه وقد يقده وقد لا يقده . وأما قولنا : ليظهر منه
ذلك : فلا ن من يضرب سبعا ليدفعه عن نفسه لا يقال إنه متحن ،
لأن ضربه ليس لظهور أمر غير متعين ، إذا علم هذا فنقول : الله تعالى
إذا أمرنا بفعل يظهر بسببه أمر غير متعين وهو إما الطاعة أو المعصية
في العقول ليظهر ذلك يكون متحناً ، وإن كان عالماً به لكون عدم العلم
مقارناً فينا لابتلائنا (٢) فإذا ابتلينا وعدم العلم فينا مستمرٌ أمرنا وليس

(١) ج٧/ص ٣٦٤ ط/ الأولى بتصرف.

(٢) معنى كلامه أن الابتلاء أجرى على الإنسان وهو لا يعلم عاقبته من حيث النجاح أو الاخفاق .

من ضرورات الابتلاء (١) . فان قيل : الابتلاء فائدته حصول العلم عند المبتلى فاذا كان الله تعالى عالما فآية فائدة فيه ؟ نقول : ليس هذا سوء الا يختص بالابتلاء فان قول القائل : لم ابتلى ؟ كقول القائل : لم عاقب الكافر وهو مستغن ؟ - الى أن قال - وجوابه " لا يسئل عما يفعل " - واطاف - المبتلى لا حاجة له الى الأمر الذى يظهر من الابتلاء ، فان الممتحن للسيف فيما ذكرنا من الصورة لا حاجة له الى قطع ما يجرب السيف فيه حتى إنه لو كان محتاجا كما ضربنا من مثال دفع السبع بالسيف لا يقال : إنه يمتحن . وبعد هذا نقول : وبهذا التحقيق الذى لا محيد عن نقله عن كل من الراغب الاصفهاني والزبيدي ومن بعدهما الامام الرازى يظهر أنه ليس بنا حاجة الى جعل ابتلاء الله لعباده على معنى مجازى وصرفه عن معناه الحقيقي على سبيل الاستعارة التمثيلية أو غيرها على ما هو صنيع كل من الشهاب الخفاجي والالوسي رحمهما الله تعالى اللذين بالغوا في الانتصار لهذا المسلك ، والتحرير لهذا الزعم ، وذلك حيث يقول الشهاب عند قوله تعالى * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا * (٢) .

معلقا على قول البيضاوى : (٣) ليعاملكم معاملة المختبر بالتكليف أيها

(١) معناه : ليس وجود العلم - عند الانسان - ضروريا - بنتيجة الابتلاء .

(٢) سورة الملك آية ٢ .

(٣) حاشية الشهاب ج ٨ / ٢١٦ .

المكلفون ، يعني أن البلاء بمعنى الاختبار يقتضي عدم العلم بما اختبره فيه وهو غير صحيح في حق الله . ولذا جعلوه هنا استعارة تمثيلية أو تبعية بناء على تشبيهه حالهم في تكليفه تعالى لهم ، وخلق الموت والحياة فيهم واثابته وعقوبته لهم بحال المختبر مع من اختبره وجربه لينظر طاعته وخصيائه فيكرمه أو يهينه . ويقول الالوسي (١) عند قوله تعالى * ليلوكم أيكم أحسن عملا * (٢).

الابتلاء في الأصل الاختبار ، والكلام خرج مخرج التمثيل ولا يصح إرادة المعنى الحقيقي لأنه إنما يكون لمن لا يعرف عواقب الأمور . نقول : بعدما قدمنا لك من ذلك التحقيق يظهر أنه ليس بنا حاجة البتة إلى هذا الصنيع من أصحابه ، وذلك أن من المقرر لدى كافة أهل العلم أن اللفظ لا يعدل به عن الحقيقة إلى المجاز إلا حيث تتعذر تلك الحقيقة ، ففي كلام الراغب ما يفيد أن الابتلاء يطلق ويراد به العلم بحقيقة الشيء وذلك في حق من يجهل عواقب الأمور فلا يستطيع أن يدرك نتائج الحقائق إلا بعد إجراء التجربة والخبرة على ما يريد أن يعرف حقيقته . ويطلق ويراد به اظهار الشيء لمن لا يدرك ذلك الشيء إلا باظهاره ، وهذا هو المقصود بابتلاء الله عباده إذ هو سبحانه يعلم علمًا محيطًا

(١) روح المعاني م ٤ / ج ١٢ ص ١٠-١١ .

(٢) سورة هود آية ٧ .

وهو غني بعلمه الأزلي عن إدراك الحقائق بالابتلاء. وما دام أنه يقصد بالابتلاء إظهار الشيء من كونه حسنا أو قبيحا كالطاعة والمعصية فلا حاجة لاجراء المجاز. والى هذا المعنى ذهب الرازي في تعريفه السابق الذي أفادنا أن الابتلاء هو الظهور فأمر الله أو نهيه لعباده يقتضي أن الانسان المأمورا والمنهى لا بد أن يسلك إما طريق الطاعة أو طريق المعصية فظهور سلوك الانسان الممتحن يكون هو معنى الابتلاء الذي نص عليه قوله سبحانه * الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا * ويبقى علينا معرفة معنى العبادة في قوله عز وجل * وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون * (١)

أولا : أقول : العبادة لغة : هي أقصى غاية التذلل والخضوع والطاعة . يقول الراغب : (٢) العبودية إظهار التذلل والعبادة أبلغ منها ، لأنها غاية التذلل ولا يستحقها الا من له غاية الافضال وهو الله تعالى ولهذا قال : * ألا تعبدوا الاياه * (٣) وفي المصباح قال : (عبدت الله عبده عبادة وهي الانقياد والخضوع والفاعل عابد والجمع عباد وعبدة ثم استعمل فيمن اتخذ الها غير الله وتقرب اليه فقيل : عابد الوثن والشمس وغير ذلك * (٤)

(١) سورة الذاريات آية ٥٦ .

(٢) كتاب المفردات للأصفهاني ص ٣١٩ مادة / عبد / ط / الحلبية .

(٣) سورة الاسراء آية ٢٣ .

(٤) ج ٢ / ص ٤٦١ نشر دار الفكر .

وفي القاموس : العبادة الطاعة . وفي شرحه تاج العروس قال :

وقال بعض أئمة الاشتقاق أصل العبودية الذل والخضوع وقال : قِـوَم
العبودة الرضا بما يفعل الرب ، والعبادة فعل ما يرضى به الرب . والأول
أقوى وأشق . (١)

وفي اللسان : قال أصل العبودية الخضوع والتذلل ، وفي

حديث (٢) أبي هريرة لا يقول أحدكم ربي عبدي . وفي شرحه تاج العروس
هذا على نفي الاستكبار عليهم وأن ينسب عبوديتهم إليه فإن
المستحق لذلك هو الله تعالى وهو رب العباد كلهم والعبيد . (٣)

وفي المقاييس (٤) العين والباء والداد أصلان صحيحان كأنهما

متضادان والأول من ذينك الأصلين يدل على لين وذل ، والآخر على
شدة وغلظ . فالأول العبد ، وهو المملوك والجماعة العبيد وثلاثة
أعبد وهم العباد .

قال الخليل : إلا أن العامة اجتمعوا على تفرقة ما بين عباد الله

والعبيد المملوكين ، يقال : هذا عبد بين العبودة ولم نسمعهم يشقون
منه فعلا ولو اشتق ل قيل : عبد أي صار عبدا وأقر بالعبودية ولكنه
أميت الفعل فلم يستعمل قال : وأما عبد يعبد عبادة فلا يقال :

-
- (١) فصل العين باب الدال ٢/٤١٠ .
(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الألفاظ بشرح النووي ج ١٥ ص ٥٥ . والمراد
أن العبودية لا يستحقها إلا الله فلا تنسب إلا إليه .
(٣) ج ٤ / ٢٦٠ مادة عبد .
(٤) ج ٤ / ٢٠٥ ط / الثانية ١٤٠٢ هـ .

الا لمن يعبد الله تعالى (١) يقال : منه عبد يعبد عبادة ، وتعبد
يتعبد تعبدا ، فالمتعبد المتفرد بالعبادة ، واستعبدت فلانا اتخذته
عبدا ، وأما عبد في معنى خدم موله فلا يقال : عبد ولا يقال :
يعبد موله وقد ورد تعبد فلان فلانا اذا صيره كالعبد له وان كان
حرا ، ويقال : أعبد فلان فلانا أى جعله عبدا ويقال للمشركين عبد
الطاغوت والاوثان (٢) وللمسلمين عباد يعبدون الله تعالى . الى أن
قال : ومن الباب البعير المعبد ، أى المهنوء بالقطران . وهذا أيضا
يدل على ما قلناه ؛ لأن ذلك يذله ويخفض منه - قال طرفة :

الى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد
والمعبد : الذلول يوصف به البعير أيضا . ومن الباب الطريق
المعبد وهو السلوك المذل . قال الأصل الاخر العبدة وهي القوة
والصلابة . يقال : هذا ثوب له عبدة اذا كان ضعيفا قويا . ومنه
علقة بن عبدة بفتح الباء . ومن هذا القياس العبد مثل الأنف والحمية
يقال : هو يعبد لهذا الأمر وفسر قوله تعالى :

(١) يعني لا ينبغي أن يقال : ولا يكون قوله على وجه الحق الا
كذلك والا فان الاستعمال صحيح لغة بلا تردد بدليل
ما سيأتي له هو نفسه من قوله . ويقال للمشركين بأنهم
عبدا والاوثان .

(٢) أى جاز ذلك حقيقة عرفية بعد مجيء الاسلام تفرقة بين صنيع
المؤمنين وصنيع المشركين والا فاللغة لا تفرق بين عبادة مسلم
وغيره .

* قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين * (١) أي أول من غضب
عن هذا وأنف من قوله (٢) : ثم بعد هذا التطواف الطويل فسي
كتب اللفظة حول هذه المادة ، والتي كان محصله رجوع هذه المادة إلى
أصلين صحيحين كما قال ابن فارس : بينهما ما يشبه التضاد حسبما
يبدو لأول وهلة يدل الأول منها على لين وذل والآخر على
قوة وصلابة أو رجوعهما إلى أصل واحد هو الأول من هذين حيث
لا يعوز التأمل المعنى المتردد الآخر إليه من قبل أن العبد بمعنى
الأنف أو الغضب والحمية أو الصفاقة أو أحكام النسج يخضع موصوفه
ويذله بمقتضى هذه الأوصاف الخلقية أو الخلقية حسبما قال الزمخشري
رحمه الله إذ يقول في كشافه (٣) تفسيراً للعبادة من قوله تعالى * وإياك
نعبد وإياك نستعين * " والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ومنه
ثوب ذو عبدة إذا كان في غاية الصفاقة وقوة النسج ، ولذلك لم تستعمل
إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولى النعم فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع "

(١) سورة الزخرف آية ٨١ .

(٢) وهذا التفسير هو أحد الأوجه التي قيلت في تفسير هذه الآية
رأى اللوسي ج ٩ / ٢٥ ص ١٠٥ نشر دار الفكر ، والبحر المحيط
ج ٨ / ص ٢٨ نشر دار الفكر ، وانظر الكشاف ج ٣ / ص ٤٢٢ ،
نشر دار المعرفة .

(٣) ج ١ / ص ٦٢ نشر دار المعرفة بيروت .

نقول بعد هذا التطواف الذي حصله ما ذكرنا فإنه يجدر بنا أن نتعرف على المعنى الشرعي المقصود من عبادة الله عز وجل في القرآن الكريم وما إذا كان هذا المعنى هو عين ما أسلفنا من المعنى اللغوي فحسب أو أن له إلى ذلك مزيداً من تقييد لما أطلق أو تخصيص لما عم من ذلك المعنى اللغوي .

إن الباحث في كتب التفسير لا يجدها قد عرضت لمعنى العبادة بأكثر مما ذكرناه في المعنى اللغوي قيد انملة بحيث يخرج القارىء من هذه الكتب بنتيجة تقول : إن المعنى الشرعي المراد من إطلاق العبادة في نصوص القرآن هو بعينه ما ذكره من معنى العبادة في اللغة . وحيث يكون كل من الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية - ان جاز هذا التعبير - قد تطابقتا في هذا المجال على شيء واحد ، وإنما الذي أضافت عبارته فيما نعلم جديداً ومقيداً إلى ذلك المعنى اللغوي حين يقصد من العبارة معناها الشرعي كل من العالمين الجليلين شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ان يقول ابن تيمية في رسالة العبودية - مجموعة التوحيد - (١) : " والعبادة معناها الذل يقال : طريق معبد إذا كان مذلاً قد وطئته الأقدام لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة . ويقول

(١) رسالة : ١٤ ص / ٢ ، ٦ ، ٧ .

في تفسيره لقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١) " وهذا الخضوع والذل هو أيضا لازم لكل عبد لا بد له من ذلك . وإن كان يعرض له أحيانا الاعراض عن ربه والاستكبار ، فلا بد له عند التحقيق من الخضوع والذل له . لكن المؤمن يسلم له طوعا فيحبه ويطيع أمره والكافر إنما يخضع له عن رغبة ورهبة فإذا زال عنه ذلك أعرض عن ربه كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحُجْرِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرَمِهِ كَمَا كَانَ لِلْمُكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

ويقول ابن قيم الجوزية في مدارج السالكين (٣) : " والعبادة تجمع أصليين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع ، والعرب تقول : طريق معبد أي مدلل ، والتعبد : التذلل والخضوع ، فمن أحببته ولم تكن خاضعا له لم تكن عابدا له ، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدا له حتى تكون محبا خاضعا " .

أقول : فالشيخ ابن تيمية ومعه تلميذه ابن القيم قد أضافا للمعنى اللغوي الذي هو أقصى غاية الذل والخضوع غاية المحبة .

(١) الفتاوى ج ١٣ / ٣٠ .

(٢) سورة يونس آية ١٢ .

(٣) ج ١ / ص ٧٤ ط / السنة المحمدية .

وهي أمر لا بد منه في العبادة الشرعية المقبولة ويغلب على الظن أن المفسرين يتفقون مع شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في أن المحبة شرط لكمال عبادة الله عز وجل . نعم كان من إتمام الخير والهدى لو بينوا ذلك للعامة ولم يغفلوا ذكره . وأيا ما يكون الأمر فهذه هي حقيقة العبادة الشرعية سواء قلنا إن المحبة شرط لهذه الحقيقة أم قلنا شرط لها . وما قد تبين لك من هذه الحقيقة وما قد تقدم لك بيانه من حقيقة الابتلاء نستطيع أن نرى بوضوح أنه لا تعارض البتة بين هاتين الحقيقتين بل في كل منهما حكمة بالغة . بل باجتماعهما تبلغ الحكمة أقصى غايتها وأوج كمالها . بيان ذلك أن الابتلاء عام لكل ، فما من أحد الا ويتعرض لذلك الابتلاء . وقد مر معنا أن المراد بالابتلاء من قبل الله عز وجل اظهار جودة الامر أو رداءته دون معرفة حاله وما يجهل منه . والانسان المكلف لا يخلو من أن يسلك طريق الطاعة أو طريق المعصية . والابتلاء يظهر ذلك السلوك سواء منه الجيد أو الرديء وهو الهدى أو الضلال . والعبادة أيضا من حيث الأمر بها تلزم كل مكلف ، فجميع المكلفين خلقوا للعبادة وكون البعض تخلف عن تحقيق وظائف العبادة لا يخص عموم الخلق لها حيث قد اقتضت حكمة الله أن يستجاب للأمر بالعبادة على وجه الاختيار لا على وجه القسر والاجبار ، ولتتم أيضا سنة الابتلاء على الوجه الذي أراد الله . وبهذا اتضح أن الانسان خلق لكل من الابتلاء والعبادة لكن الخلق للابتلاء له مسار والخلق للعبادة له مسار آخر ، فالخلق للابتلاء

كان وسيلة لظهار فعل المكلف من حيث الامتثال أو عدمه ، وان شُغرت :
قلت : الابتلاء داخل تحت الارادة الكونية التي لا مدخل للعبد في
تحصيل مقتضاها واما العبادة فداخلة تحت الارادة الشرعية التي جعل الله
للعبد مدخلا اختياريا في تحصيل مقتضاها اذا التزام المكلف بأمر
العبادة أو عدم التزامه بذلك هو أمر ظهر في تحديدها شرعا ليعرف العابد
من غيره فالخلق للعبادة التي هي أقصى غاية الخضوع والذل مسار
لاخراج نتيجة الابتلاء التي بناء عليها يثاب المحسن ويجازى المسيء . وهكذا
يتبين أنه لا تعارض بين الغايتين اللتين ربط بهما خلق الانسان غاية الابتلاء
وغاية العبادة وأن كلا منهما لا بد منه فلا يمكن استغناء احدى الغايتين
عن الأخرى وذلك بحيث لا يبلغ المكلف كماله وما يستتبعه ذلك الكمال من
خيرى الدنيا والآخرة فضلا من الله ورحمة إلا بهما جميعا . فالانسان خلق
للابتلاء الذى هو في ذاته شهادة من الحكيم العليم بشرف هذا الانسان ،
وتكريم ظاهر منه تعالى له حيث عامله معاملة المختبر المكرم من يختبره ،
الشاهد بأن له ذلك العقل الذى يبلغ به أوج الكمال لو شاء ولو شاء
الله ما جعله أهلا للابتلاء . والنتيجة التي يحب الله أن تتحقق ، ولا يرضى
للعبد سواها ، أو بعبارة جامعة - التي يريد لها ارادة شرعية هي أن يعبد
ذلك الانسان المكلف ولكن الذى حدث بالفعل هو أن نتيجة هذا الابتلاء
لم تكن واحدة على ما يحب ربنا ويرضى بل كانت اختلاف الناس بحيث عبده

منهم فريق وكفر به آخر وهو المنوه عنه بقوله عز من قائل ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ (١) أي لو شاء أن يقهرهم على ذلك ويطبعهم عليه بحيث لا يعطى لعقولهم من التكريم الذى يتضمنه الاختيار - لا محالة - على ما وصفنا لـفـعـلـ . ولكن لم يفعل بل كرم عقولهم وشرف انسانيتهم فاخترهم فكان أن اختلفوا ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ (٢) فأما من اختار العبادة فقد حقق النتيجة التي ترضى الله والتي ما كان ينبغي أن يتحقق من كل أحد سواها . وجزاء هذا أعظم الجزاء وأكرمه في الدنيا والآخرة ، وأما من اختار الأخرى بحيث جحد فلم يحقق العبادة فذلك الذى نكس عقله . وعكس المقصود من خلقه ، فيسر خلقه لجهنم ، فذلك قوله عز من قائل : ﴿ ولقد زرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ﴾ (٣) وسواء أقلنا : إن اللام في قوله ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ (٤) وقوله ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ (٥) للغاية أم لم نقل فإنك ترى نظم جميع هذه الآيات ملتئما متناسقا بالغا ذروة الذرى من انسجام المعنى سمو الغاية ، وبذلك نكون قد علمنا فأدركنا المقصود في كل من الخلق للابتلاء والخلق للعبادة والخلق للنار وتميزت لدينا فكرة الابتلاء الذى خلق من أجله الانسان من حيث إنه ظاهرة كونية بالنسبة للانسان المكلف لظهار أحد المسلكين اللذين

(١) سورة هود آية ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) سورة هود آية ١١٨ ، ١١٩ .

(٣) سورة الاعراف آية ١٧٩ .

(٤) سورة الذاريات آية ٥٦ .

(٥) سورة الملك آية ٢ .

لن يخرج أى مكلف عنهما ،مسلك طريق الهدى واليسرى ،أو مسلك
طريق الضلال والعسرى .

وبعد هذا الإدراك يتطلب الأمر منا أن نعلم هل هذا الابتلاء
من الله للإنسان لغرض يرجع نفعه إليه سبحانه أم هو لحكمة بالغة ومنافع
ترجع للإنسان فقط فيترتب آثارها عليه ، هذا ما سيتناوله الفصل الذى
أمامنا .

الفصل الثاني

حكم في الابداء

الفصل الثاني

حكمة الابتلاء

توطئة :

وقبل أن نجيب عن هذا التساؤل ينبغي أن نعرف أولاً : هل
أفعل الله عز وجل ينبغي أن تعلق بعلة ؟ . وفي هذا أقول : مستعينا
بالله إنه سبحانه غني عن كل ما سواه مفتقرا إليه كل ما عداه ، وغناه يتضمن
الغنى المطلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله فهو غني في كل ذلك ،
لأنه لو احتاج أو افتقر إلى غيره لكان النقص ثابتا في جانبه سبحانه وذلك
ما يتنافى مع مقتضى الألوهية والربوبية إذ هو المستغنى على الإطلاق المنعم
على جميع المخلوقات المستوجب لجميع المحامد ، وقد ذكر الله في كتابه الكريم
صفة الغنى ثمان عشرة مرة . ومن ذلك قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ
الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١) وقوله تعالى ﴿ مَنْ جَاهِدْ
فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) فالمراد أن الله له
جميع صفات الغنى والكمال . فهل هو في حاجة إلى منفعة تعود عليه
من أي فعل يفعل ، أو بمعنى أقرب إلى بحثنا : هل يتوقف على الابتلاء
كمال لله يزول بزواله ؟

(١) سورة فاطر آية ١٥ .

(٢) سورة العنكبوت آية ١٦ .

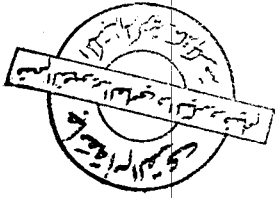
وللقول الفصل في هذه القضية يحتاج الأمر الى تتبع ما ذهب اليه سلف أمتنا من النظر في أفعال الله واجب الوجود ، النظر من حيث هل لله غرض في الفعل ليرجع اليه نفع منه ؟ وهو ما يسمونه بالعلة الباطنة . وينظر في ذلك فقد وجدت فرقة ذهبت الى وجوب تعليل أفعال الله بالأغراض والعلل الغائية تنزيها له عن العبث بفعل شيء بغير قصد ، بناء على أن هذا ما يقبح في حق المخلوقين فكيف بالخالق .

وفرقة أخرى ذهبت الى أن أفعاله تعالى وجودها وعدمها سواء فلا يفعل شيئا لعلة داعية وغرض مقصود تنزيها له عن الافتقار وإثبات الكمال له بحيث لو فعل فعلا لغرض للزم أن يكون قبل أن يصدر عنه ذلك الفعل ناقصا فيلزم استكمال به . وهذا قارح في كونه سبحانه غنيا غني مطلقا . وذهب شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله (١) الى أنه تعالى يفعل لحكمة ولا يلزم من ذلك نقص نظرا ، لأن ما يفعله سبحانه هو بمحض مشيئته المتفرد فيها يفعل ما يريد فليس هو في حاجة الى ما يفعله بل إصداره للأفعال لحكمة دليل على سرمدية كماله . فلا يزال منزلها عن النقص ، وأفعالها الغائية كمال له عز وجل .

هذا ومن أنعم النظر وأطال الفكر يدرك بجلاء أن هذا الخلاف صوري ، والا فالذين نفوا عن أفعاله عز وجل الغرض أوجبوا له الحكمة

(١) رسالته في الإرادة والأمر ج١ ص ٢٢٦ الى ٣٣٢ ، مجموعة

الرسائل الكبرى . نشر دار الفكر بتصرف .



في ذلك ، وقد بين هذا المفهوم الشريف الجرجاني في شرحه للمواقف (١) فقال : "إن العبث ما كان خالياً عن الفوائد والمنافع وأفعاله تعالى محكمة متقنة مشتملة على حكم ومصالح لا تحصى راجعة الى مخلوقاته تعالى . لكنها ليست باعثة على إقدامه وعلا مقتضية لفاعليته فلا تكون أغراضاً له ، ولا علا غائية لأفعاله حتى يلزم استكمالها بها بل تكون غايات ومنافع لأفعاله وآثاراً مترتبة عليها فلا يلزم أن يكون شيء من أفعاله عبثاً خالياً من الفوائد ."

وهكذا يتضح لنا أن من قال : بتعليل أفعاله يقصد الحكمة الغائية ولم يقصد أن الله يرجع عليه من ذلك نفع يستكمل به بعد أن كان ناقصاً ، ومن نفى التعليل أوجب الحكمة في أفعاله نافية رجوع مصلحة أو استكمال لله عز وجل من تلك الحكمة . وبهذا الذي ذكرنا يظهر أنه لا مجال للشك في أن ثبوت الحكمة في أفعال الله عز وجل بين واضح مؤيد بالنصوص القطعية كقوله تعالى ﴿ حكمة بالغة ﴾ (٢) وقوله تعالى ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ (٣) وذلك ما أشاد به العلامة ابن القيم وانتصر له بالتحميم والتدقيق في الأدلة في كتابه شفاء العليل بما يزيد على مائة وستين صفحة . وما تعرض

(١) ج ١ / ص ٣٣٩ / ٣٤٠ / الموقف الخامس ، الالهيات ، نشر مكتبة الأزهر

(٢) سورة القمر آية ٥ .

(٣) سورة النساء آية ١١٣ .

له في هذا الصدر (١) قوله : " والحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعلها " ، الى أن قال : " ولا يكون الكلام حكمة حتى يكون موصلا الى الغايات المحمودة والمطالب النافعة " .

وقصارى القول في ذلك ان أفعال الله جميعها دالة على حكمة الحكيم وكمال الفنى فكلما تكرر النظر الى ظواهر الكون ونظام الخلق ظهرت له الحكم الباهرة ، والمقادير المسيطرة ، وازا تقر هذا فاننا نعود الى طرح التساؤل الذى أسلفنا - هل يتوقف على الابتلاء كمال لله - بعد ان تبين بما ذكرنا أنه تساؤل صحيح وفي موضعه . وللجواب عن ذلك فإننا حينما نتدبر قوله تعالى ﴿ أَلَيْسَ أَحْسَبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ، وَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ (٣) . حينما نقرأ هذه الايات الكريمة يتبادر الى الأذهان من ظاهرها أن الله يكتسب علما باجراء الابتلاء ليدرك فعل من أحسن ممن أساء ، وهذا يستحيل قطعا على الله عز وجل إذ هو يعلم السر وما هو أخفى منه ، يعلم بعلم محيط انكشفت له به جميع المعلومات .

(١) شفاء العليل ص ١٩٠ .

(٢) سورة العنكبوت آية ١ ، ٢ ، ٣ .

(٣) سورة محمد آية ٣١ .

فلو كان يكسب علماً بابتلائه عباده ليلزم من ذلك النقص في صفاته سبحانه ،
ومن المسلم به أن علم الله تعالى متعلق بجميع الكائنات في الأزل لكل
ما سيكون وعلى أي حال يكون فلم يطرأ على علمه الأزلّي انكشاف جديد .
وانما التجدد في المعلومات لا في العلم ، فالمراد بعلمه سبحانه في ابتلائه
عباده التمييز باظهار المعلوم وفق علمه الأزلّي للعيان فيتميزه من آمن
وصدق في ايمانه ومن لم يؤمن من فيترتب على ذلك الثواب أو العقاب ، والى
هذا الذي قررنا نحا العلامة الألويسي في تفسيره (١) عند قوله تعالى
﴿ ولقبولنكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ﴾ حيث قال :
" ما يفيد أن المراد به علم فعلى يتعلق به الجزاء . وفي معناه :
ما قيل حتى يظهر علمنا " . والسيد قطب في ظلاله (٢) اذ قال ما نصه :
" أما المراد بعلم الله لما تتكشف عنه النفوس بعد الابتلاء فهو متعلق
علمه بها في حالها الظاهرة التي يراها الناس عليها " ، وهذا المعنى مرت
الإشارة إليه عند تحقيقنا لمعنى الابتلاء حيث تقرر هناك أنه بالنسبة إلى
الله عز وجل هو إظهار ما اختاره العبد من خيراً أو شراً فليس علم الله
بأفعال العباد متوقفاً على إجراء الابتلاء ، ولا على غير ذلك بل هو الخبير
بما تكنه النفوس ، وما تعلنه قبل وقوعه . وانما اقتضت حكمة الله أن يكون

(١) م : ٩ / ج ٢٦ / ص ٧٨ نشر دار الفكر .

(٢) م : ٦ / ج ٢٦ / ٣٢٩٩ نشر دار العلم بجدة .

العطاء مربوطاً بالابتلاء . وهل هذا الربط هو الاليق بكرم الكريم وحكمة الحكيم بأن يبتلى ثم يعطى أو أن يعطى بلا ابتلاء ؟

ولبيان ذلك لا بد من النظر في حال السائل ، وبناءً عليه لا يخلو حاله إما أن يكون مؤمناً أو كافراً ، فإن كان مؤمناً فطبعي أنه ينطلق من مستوى إيمانه فاجابته تكون في حدود ما يؤمن به من عقائد ثابتة مأخوذة من مصدر ثابت فهو اذن يبني إجابته على ما صح عنده من دليل نقلي أو عقلي ، فمن حيث الدليل النقلي فقد سبق البيان بأن الابتلاء من باب الارادة الكونية (١) فكل انسان مكلف خلق للابتلاء وهو في حياته كلها مبتلى لقوله تعالى ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ (٢) وقوله تعالى ﴿ إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ (٣) ففي الايتين الكريمتين بيان واضح يدل على أن الانسان مبتلى في هذه الحياة الدنيا ولذلك خلق مهياً بوسائل الادراك ليميز بها بين

(١) وهي المشيئة الشاملة لجميع الحوادث والمتعلقة بكل مراد ، بخلاف الشرعية المتضمنة للمحبة والرضا . انظر الطحاوية بشرح ابن أبي العزص ٤٣ ط/ العاصمة القاهرة . والموافقات للشاطبي ج٣/ ١١٩ نشر دار المعرفة بيروت . وكتاب دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي ص ١٥٩ .

(٢) سورة الملك آية ٢/١ .

(٣) سورة الانسان آية ٢ .

طريق الحق وبين طريق الباطل ليجتاز مدة الابتلاء التي جعل الله فيها مدار سعادة الانسان مبنيا على اختياره ، وعلى كيفية استعمال عقله في تمييز بين ما ينجو به في الابتلاء وما لا يسعد به ومن الثابت عقديا لدى المؤمن من أيضا أن الله لا يفعل أى فعل عبثا ومنه الخلق . فلم يخلق الله السماوات والأرض والانسان الذى سخر له ذلك باطلا ، إذ يقول الحكيم العليم * وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون * (١) فالحكمة تقتضي عدم العبث وما دام النص القرآني أثبت الحكمة لله في فعل كل شيء - والابتلاء فعل الله - فابتلاؤه الانسان ثم يعطيه هوحكه . ومعلوم أن الحكمة هي وضع كل شيء في مكانه وذلك بأن لا يوضع خلافه . فأفعاله سبحانه كلها حسنة وحكيمة إلا أن الله سبحانه غيب عن عباده بعض المصالح وتفرّد بها والا فقد دلت أفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها أحد على كماله ، ويكفى ما نصبه من دلائل كونية في الآفاق والأفانفس أن تكون دليلا على كماله وحكمته ، وما كان كمالا فهو عين الكرم ، ثم إنه لا يمكننا أن نتصور كمالا تماما في جانبه سبحانه ، ونغفل عن كمال آخر ، لأن هذا ينافي أقصى الكلمات في الجانب الالهي ومن هنا فالعطاء المترتب على نتيجة الابتلاء لا ينافي أقصى غاية الكرم كما قلت إن الكمال الذى يتعارض مع كمال آخر لا يسمى كمالا كالرحمة

(١) سورة الدخان آية ٣٨ - ٣٩ .

والغضب لا ينافي وجودهما الكمال في جانب الله القدوس وذلك كغضب
الله على الكافرين بجانب الرحمة يعد كمالاً^(١) ، لأنهم استحقوا الغضب
بعدولهم عن طريق الحق . وبناءً على هذا المعنى فكل كمال له موضع
لا يتعارض مع كمال آخر ومن كرم الله العام المبني على كماله ما اقتضته
حكيمته من ابتلاء عباده ليعطي من يستحق العطاء ، ان التصرف المطلق له
وحده فهو الذى أقام الميزان في نظام الكون الذى خلق من أجل الانسان
المتحن فلا بد من السير على سننه الحكيمه التى توصل الى ما شاء سبحانه
بالأسباب ، ومن حيث الدليل العقلي . فحينما يفكر الانسان في سنن الخلق
يجد التكوين والنظام المبدع المبني على التقدير والتدبير ، وكذلك حينما
ينظر في تحرك البشر يجد حتماً عموم اتصال الأسباب بالمسببات التى لا تتغير
فيجد الآيات البينات في ذلك التحرك البشرى بحيث يدرك أن ذلك لا يمكن
وقوعه الا لحكم بالغة خفي علينا منها ما خفي كما خفي علينا الكثير من شؤون
الخلق ، وما على الانسان الا أن يبحث عنها ليزداد علماً بكمال الله سبحانه
والواقع أن من تدبر في نظام الخلق يجد الدقة والتنسيق والحكمة في القصد
فيدرك أن هذا الخلق كان لغاية وكان على الحق ، وأن رحلة الانسان في
الكون تدل على أن عليه تبعات ومسئوليات ، فواقع حياة الانسان يدل على
أن هناك حياة أخرى يتم فيها ظهور مصيره بناءً على واقع حياته الحاضرة

(١) فيما قررت شفاة العليل من ص ٣٩١ الى ص ٣٩٥ .

فالدار إذن دار ابتلاء فالإنسان الموجود فيها ممتحن كي يتم له العطاء
انطلاقاً من صفتي العدل والكرم.

وأما الكافر الذي عصا أمر ربه وجحد فضله وهو الذي خلقه وأسبغ عليه
نعمه لا يخلو إما أن يوء من أول الأمر ويرجع إلى طريق الهدى أو لا . فان
رجع فطبعي يجاب بما يجاب به المؤمن ، والا فيرشد إلى دلائل الإيمان
إن لم تحقق عليه كلمة الله بالخلود في النار ، وتوضيح هذه القضية ليس
مجال بحثنا .

وجملة القول : ان ابتلاء الله عباده كان في غاية الكرم والكمال
والحكمة والانعام فأفعاله سبحانه مبنية على الحكمة وان لم نستطع
حصرها أو درايبتها ، فكيف وقد ظهرت لنا المصالح التي حققها الابتلاء للإنسان
فماذا حققه الابتلاء لبني البشر بعامة وللمؤمنين بخاصة من جليل المصالح ؟
للإجابة على هذا التساؤل أقول : مما لا يختلف فيه اثنان أن
إنسان في الاعتماد على بعضهم بعضاً شيء مسلم ووصف للطبائع ملزم وجوهر
في الخلق مقيم وبمجموع البشرية محيط ، فالناس في حاجة إلى ما يعيشهم
وإلى التعاون على ما يحييهم من القوام والقوت والاستمتاع بما يصلح البال
ويقوم الروح والرمق ان ثبت عدم استطاعة الإنسان بلوغ حاجته بنفسه دون
التعاون مع بني جنسه ، فالقريب مسخر للبعيد والعظيم مسر للضعيف
كالغني للفقير ، والسلطان للحاجب والسوقي للشريف حيث إن الله خلق الناس
مقسمين وصرف العقول لأنواع الميادين واختلاف القوانين ، فإنسان تفرغ

لعلم الافلاك ، وآخر للحياكة وغيرهما لاسباب الصناعات ، وذلك من أجل
إسباغ النعمة وتام المعرفة بتنوع الانتاج فيما الناس اليه في حاجة ،
فكان لا بد لذلك من حركة ، ان الناس في المرافق مختلفون ، فكل
واحد منهم آلة لذلك المرفق وأداة لتلك المنفعة ، كنماء البذور البرية فلا
بد لتفتقها من حركة وكالصبي لاشداد عوده وتحرك قدميه . كان لزاما
التعام شدى أمه ، وكالطبيب لا بد له من تعلم لعلاج مرضاه ، والمزارع
ليحصد تحتم عليه شق الأرض وسقى الزرع . لما كان للانسان هذا
الدور لم يترك هملا بل اتاه الله مواهب وآلات جعلته موهبا للقيام بهذا
الدور فسخر له ما في السموات وما في الأرض كما قال عز وجل ﴿ ألم تتروا
أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأصبح عليكم نعمه ظاهرة
وباطنة ﴾ (١) فكان مكلفا لا ابتلاء كما قال عز وجل ﴿ إنا خلقنا الانسان
من نطفة أمشاج نبلته فجعلناه سميعا بصيرا ﴾ (٢) .

فبالابتلاء بلغ هذه المنزلة العالية ، وتبين له ما أريد به من إكرام
عظيم تحققت له به فوائد ومصالح ذلك حيثما ننظر في هذه الحياة
ندرك أنها أعيان موجودة للانسان فيها نصيب ، وله في اصلاحها شغل ،
فالأرض بما عليها كانت زينة له كما قال تعالى ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض
زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ (٣) ، فجعل الله الأرض مستقرا وما عليها

(١) سورة لقمان آية ٢٠ .

(٢) سورة الانسان آية ٢ .

(٣) سورة الكهف آية ٧ .

ما هو زينة للإنسان ولا يتم ذلك الاستقرار إلا بوجود معادن ونبات وحيوان
لأن المعادن يصنع منها الإنسان الآلات والآواني. كما قال تعالى :
* وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس * (١) . والنبات به
قوام حياة الإنسان وجريان الروح فيه كما به ينتج الحيوان الذي منه
ما هو للأكل ومنه ما هو للحمل ، كما قال عز وجل في شأن الانتفاع بالنبات
* فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شققا
فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا (٢) وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا (٣) وفاكهة
وأبا (٤) متاعا لكم ولا نعامكم * (٥) . وقوله في شأن الحيوان * الله
الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع وتبلغوا
عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون * (٦)
وهذه الآيات تعطينا أن الإنسان في كل حياته يتدافع إلى القوت
والملبس والسكن وغير ذلك من مقومات استمرار الحياة ، ولا تتم هذه

-
- (١) سورة الحديد آية ٢٥ .
(٢) هو الرطبة المقطوعة سميت بذلك لأنها تقضب مرة بعد مرة
فهي من قضبه إذ قطعه ، انظر الكشاف ج٤ / ١٨٦ .
(٣) أي ذات أشجار متكاثفة أو كل شجرة فيها توصف بالغلظ والعظم .
الكشاف ج٤ / ١٨٦ .
(٤) هو الكلاب والمرعى كما نقل عن ابن عباس في الألويسي م١٠ ج٣٠٩ / ٥٩ .
نشر دار الفكر بيروت .
(٥) سورة عبس آية ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .
(٦) سورة غافر آية ٧٩ ، ٨٠ .

الا بصناعات متنوعة وعقول مختلفة جعلها الله متفاوتة الإدراك والاتجاه حتى يتم انتفاع الناس من بعضهم بعضا ، ويخدم بعضهم بعضا ؛ لأن أحوال الناس لو كانت على وتيرة واحدة لم يسخر بعضهم لبعض ما ينتج منه خراب العالم وفساد نظام الدنيا لذلك فلا بد من مزارع يشق الأرض ويبذر البذرة لانتاج المطعم ولا بد من البناء للمسكن ، ولا بد من النسيج لصناعة الملابس فكل صناعة لا بد لها من آلات حسب التنقل الحضري الذي يصل إليه أي مجتمع وهذا يفرض أن لا يستغنى البشر بعضهم عن بعض كما قال عز وجل * نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا * (١)

يقول الحافظ ابن كثير : " معناه يسخر بعضهم بعضا في الأعمال لاحتياج هذا الى هذا وهذا الى هذا (٢) ، اذن فالناس قد فاوت الله بينهم فيما أعطاهم من الأموال والعقول والأفهام وهذا شيء يحتم أنه لا بد من التعاون فيما بينهم والا لما استمر الجنس البشري في البقاء ، وبالتالي لما وجدت في المجتمع عناصر مختلفة بحيث يكون هذا مزارع يشق الأرض لانتاج الطعام وهو أيضا محتاج لصانع آلات الشق وهما وغيرهما محتاجون الى صانع النسيج وهكذا فكل صاحب حرفة في

(١) سورة الزخرف آية ٣٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ج ٤ / ١٢٧ نشر دار التراث القاهرة .

حاجة الى صاحب حرفة أخرى (١) والحياة كلها بما بنيت عليه من حضارة
عمرانية متزايدة وبوسائلها التي أدت الى رفاهية الانسان وضاعفت تحركه. كل
ذلك قد حصل من خلال تجارب بشرية منبثقة من العقل الكادح كما قال
عز وجل * يأيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه * . وتلك
التجارب هي في الحقيقة وواقع الأمر ابتلاء ، لأن الانسان بالابتلاء
يتفاعل مع الحياة في مجتمعه يأخذ ويعطي لتنمية مسئوليات الفرد والجماعة .
ويتفاعله ذلك أيضا يقيم نظاما في كل أنحاء الاتصالات ما يعطي الحياة
قيمة متماسكة في طريق واحد متجه الى ساحة الأمان والاستقرار في دار
السجاء .

وخلاصة القول إن الانسان يتفاعله مع الحياة ينقلب متدافعا في
ميدان الامتحان ليثبت ذاته وبذلك يعطي للحياة حركة متدفقة مما
يشعر معه الانسان بقيمة ذاته في الحياة فهو يفكر بعقله . وهو أيضا في

(١) انظر فيما قد بسطته من معان تفسيرى روح المعاني للألوسي ومفاتيح
الغيب للرازي عند قوله تعالى * انا جعلنا ما على الأرض زينة
لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا * م / ٥ / ج / ١٥ / ص ٢٠٦ من
روح المعاني . م / ١١ / ج / ٢١ / ص ٨١ من مفاتيح الغيب
ومقدمة ابن خلدون من ص ٦٧ الى ص ٦٨ . ط / الأولى بالطبعة
الخيرية القاهرة .

ذلك كله يتحرك بإرادة حرة يختار بها ما يشاء ، ولهذا الاختيار كان مكلفا
ليبتلى حسب ما أعطاه الله من قدرة كان متحننا على ضوءها فيما يريد .
وحيثما نتتبع تدافع الانسان نجده مدني الطبع مجبولا على حب الرفاهية
فيبذل أقصى ما يستطيع الوصول به الى السعادة الدائمة ومن خلال التجارب
الحياتية ثبت أنه لا وصول للسعادة إلا على طريق المشاق . فلولا المكاره
الداعية الى الكد والمكابدة ما تبين الناس نعم السعادة ولما تدافع الناس
للوصول اليها ما يعطي للحياة الحركة الدائمة التي تتحقق معها كلفة
الخلافة التي نيطت بالانسان . كما قال عز وجل ﴿ وان قال ربك للملائكة
اني جاعل في الأرض خليفة ﴾ (١) ، ولا يهمنا في هذا المقام الحديث عن
المستخلف عنه لأنه سواء قلنا هو خليفة عن الله في اجراء احكامه وتنفيذ
أوامره بين الناس ، أو قلنا هو خليفة عن أم بادت وقرون غيرت فخلفهم
وذريته في الأرض يعمرونها بعد هم لا نستطيع أن نفرق بين القولين
من حيث المستخلف فيه لأنه على القول بأنه خليفة عن الله لا يخرج عن
كونه أيضا مأمورا بتعمير الأرض وإقامة ما هو وسيلة لبقاء الحياة ، ولذلك الذي
يهمنا هو المستخلف فيه ، فالنص يدل على أن الله جعل الانسان خليفة
في الأرض بمعنى أن الله وجه الانسان لمهمة الإقامة بالامانة التي تحملها
الانسان والتي وردت في قوله تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .

(٢) تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ج٢ / ١٢٠ نشر دار صادر

والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان لأنه كان
ظلوماً جهولاً ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله
على المؤمنين ومؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً (١) . فانطلاقاً من
موضوع ما خلق له الإنسان والذي مر تحقيقه ندرك أن الخلافة هي القيام
بحقوق الله الواردة في أمره ونهيه . ومعنى هذا أن تحقيق لوازم العبادة
التي خلق لها الإنسان هو تحقيق لأمر الخلافة . فالخلافة إذن هي
إرادة الأمانة التي جاءت في الآية الكريمة والتي تعددت أقوال المفسرين
في معناها وأياً ما قيل في معناها كالقول بانها الفرائض أو الطاعة أو ائتمان
المرأة على نفسها كما نقل عن أبي بن كعب ، فهي تفسيرات ترجع إلى شيء
واحد بينه ابن كثير بقوله : (هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول
الأمر والنواهي بشرطها وهو أنه ان قام بذلك أشيب وان تركها عوقب)
وابو حنيفة في بحره (٢) حيث قال : " والأمانة الظاهر أنها كل
ما يؤتمن عليه من أمر ونهي وشأن الدين والدنيا كل أمانة وهذا قول
الجمهور " . ومن خلال هذه المعاني نستطيع أن نقول أن الله جعل
الإنسان خليفة في الأرض لأجراء سنة الابتلاء . وليؤدى وظائف تلك
الخلافة على أكمل وجه ، ولذلك سخر الله له قوانين الكون كي ينتفع

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ج ٥ / ٥٢٥ نشر دار الفكر .

(٣) البحر المحيط ج ٧ / ٢٥٣ الطبعة الثانية .

بما يشه فيه من معالم ملائمة لمصلحة الانسان منذ الله له كما قال عز وجل ﴿ الله الذى خلق السموت والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار وءاتاكم من كل ما سألتوه ، وان تعد وانعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار ﴾ (١) ، ففي هذه الايات العظيمة وأمثالها من الكتاب الكريم يخبر الله عز وجل أنه سخر تلك المعالم مصلحة للانسان ومن أجل اتمام سنة الابتلاء لكن الانسان كثيرا ما ينفعل عن شكر النعمة وكثيرا ما يجحد فضل الله عليه بدليل أن الغالب من الناس يتغافل أو يفغل عن شكر النعمة بالمرة ، وذلك بوضعها في غير مواضعها كالبغي والبطر عند الغناء وغيرهما كالظلم الذى ينافى المقصود من الخلافة في الأرض ، ووجود هذه السنة العادلة المطلقة المعدة لتحكم مسار الحياة في كل مكان وعلى كل مستوى والمقدرة أيضا بحكمة من الله هي التي تعطي لحياة الانسان التفسير بأن له مغزى وغاية من وجوده ، فبالابتلاء يعمل مكافحا ويتألم ويحب الجمال ويكره القبيح ويتطلع الى الفضيلة وفالانسان المحرك لمجرى هذه الحياة باذن الله بصفته جعله الله خليفة في الأرض وجعل له قوة يتحرك بهالم يخرج بقوته تلك عن دافعين اثنين ، دافع لتحصيل ما يرضى به رغباته الجسمانية ودافع

(١) سورة ابراهيم آية ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .

يوه دى به الدور الملائم لكيان الانسان العام ، وهذه حقيقة تعطي
الانسان مصلحة التفكير في الغاية من وجوده ، إذ ليس إرضاء الرغبات
الجسمانية أو المحافظة على ما يلائم شخصيته عموماً هما اللذان يحققان
له السعادة التي يكبح من أجلها ، إذ موكب الانسان في هذه الحياة
هو حلقة متصلة بحلقة أخرى بحيث لم يصل الانسان الى ما يريد من كمال
في هذه الدار ، فلا بد من حياة أخرى تتصل بهذه الحياة مثل ما قالوا :
كاتصال حياة الجنين في بطن أمه بحياته الدنيوية وذلك أن الجنين
في بطن أمه يعد اعداداً صالحاً لاستقبال الحياة الجديدة . فكذاك الابتلاء
هو مصلحة للانسان في إعداده ، إن استعد وفق إرادته الحرة ليواجه الحياة
في عالم الآخرة بقدر ما اجتهد ليحصل مكانة مرموقة مناسبة لاجتهاده في
الحياة الدنيا أما اذا لم يستعد ولم يعمل تحقيق رسالته في هذه الحياة ،
أو بمعنى آخر ، إذا لم يكسب الخير ويعمل من أجله سيخسر لا محالة مكانته
في الحياة الآخرة ويكون بمثابة جنين ولد مشوهاً لم يكمل تكوينه وحينئذ
ينكوه الناس بِل ينكر نفسه ، نجد ما أشرنا اليه من معاني واضحة في النص
الكريم * ويوم نحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى إذا ما جاءوها
شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم
لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء * وهو خلقكم أول مرة
واليه ترجعون وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم

ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ذلكم ظنكم الذي ظننتم
بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين * (١)

وحيثما ننظر في مسيرة الحياة وتقلباتها ، وتداول معطياتها بين
الناس وحيثما نتفكر في الصراع القائم في حياة الانسان للكسب المادي
مع ما سخره الله له وذلك له في الكون ليصل الى مبتغاه ، ندرك حقيقة
أن الحياة في هذه الدنيا تجرى على سنة الابتلاء . وهذا الادراك يتحقق
من خلاله دافع الانسان للترقي بكل أنواعه وفي كل مجالاته والى جهاد
النفس ليغالب ما يعترضه من شرور في هذه الدار . وذلك يتطلب النهوض
بجميع ما هو ضروري لتحصيل القيم التي تؤدى دورا كبيرا في جميع تحركات
الانسان المختلفة الموصلة الى السعادة التي هي الغاية للانسان .

فهو إذن في كل تحركاته تلك يبحث عن السعادة . والتجربة

أثبتت أنه لا سعادة الا من طريق العمل الممتحن من خلاله الانسان ،
فالا ابتلاء اذن أساس في المصالح لا سيما أن الانسان ذو اختيار نظرا لأن
الله من عليه بالعقل والارادة وبهما استطاع أن يحكم على الأمور المادية
ويميز بين الخير والشر **الذَيْن بَيْنَهُمَا الشَّرُّ** ومن هنا كان الناس متفاوتين
في الاختيار من أجل اتمام قضية الابتلاء الذي به قدر أن يكون الناس

(١) سورة فصلت آية ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

مختلفي المواهب والصنائع متفاوتين في الادراك ، يقول الله عزوجل :

* وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات

(١)

ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم * والاية

تقرر إن الناس يخلف بعضهم بعضا لكن منهم من سلك طريق الخير،

ومنهم من سلك طريق الشر . وبناء على السلوكين يكون الارتقاء أو الهبوط

أو بمعنى آخر السعادة أو الشقاء . والانسان لا يريد بتحركه ذلك أو

سلوكه الا تحقيق السعادة . فهو يكدح ويتدافع لبلوغها . والتجربة

أثبتت أن السعادة الكاملة لن تتم في هذه الدار بدليل أن الانسان يرى

- مثلا - النبات ينمو ويخضر فيعجب الناظر اليه فما يلبث حتى يذبل ويبيس

ويتشهم حتى لا يبقى منه شيء * ثم من جديد حينما تمطر السماء يخرج

مزهرا ومنبتا في كل مكان صالح للانبات ولذلك يلفت القرآن نظر الانسان

الى ظاهرة التغير في الكون كما في قوله عزوجل * إنما مثل الحياة

الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلف به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام

حتى إذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها

أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل

الايات لقوم يتفكرون * (٢)

(١) سورة الأنعام آية ١٦٥ .

(٢) سورة يونس آية ٢٤ .

فهذه السنة الكونية تعطي الانسان ظاهرة التغيير في الأشياء

وهذا مما لا تتحقق معه السعادة ، بل تقلب الانسان في أطوار عمره وفناؤه .
أوضح دليل على أن هذه الدار ليست دار سعادة وكل تحركاته تقرر هذه
القضية .

لننظر الى الانسان في صراعه . فهو بصراعه بين دوافع

الحياة ليصل الى السعادة - رغم تقدم وسائل الحضارة في كل مجال - لم
يصل الى السعادة المنشودة بل كلما تقدمت تلك الوسائل ازداد الصراع ،
بدليل أن الانسان كلما وصل الى درجة راقية ما كان يريد تطلعت نفسه
الى درجة أرقى ، وهكذا الى أن ينتقل من هذه الدار وهو لم يحصل الا على
سعادة محدودة مزوجة بتعاسة . فالعاقل اذن يستفيد من خلال الابتلاء
أنه لا بد من حياة أخرى يقام فيها العدل بدليل ما أدركه من أن الاعمال
في هذه الدار سواء منها الحسن أو السيء لم يوجد لها جزاء مساو لمستواها
في الدنيا ولذلك كان لا بد من حياة يعطى فيها كل ذي حقه حقه فتجزى
كل نفس بما كسبت . وحينما يستفيد الانسان من تجربته تلك ويصل الى
هذه الدرجة ، تأتي عقيدة الايمان التي يحققها الابتلاء للانسان الذي يعيش
في عالم التجربة . الانسان من خلال تجربته في عالم المشاهدة سيدرك -
مثلا - أنه لا بد لهذا العالم من موجد مدبر حكيم له جميع صفات القدرة
والسيطرة ، وحينئذ يخضع دوافعه إن كان منصفا لميزان العدل بين المادة
والروح ولا ميزان إلا من طريق الايمان . ومن هنا فالمؤمن - اضافة الى

هذه المصالح العامة - تحققت له مصالح خاصة بالابتلاء انطلاقاً من إيمانه فهو بفكره الثاقب وإيمانه المستنير وما يتبعه من مستلزمات تستبين له معالم ظاهرة الابتلاء لتتحقق له مصالح جمة ، وعندما تثبت حقيقة الابتلاء في نفس المؤمن ويدرك كنهها يتجه الى العمل الدؤوب ليحقق أعلى مراتب الخلافة في الأرض وليعطى الأجر الكريم والثوية الحسنی إيماناً منه بقوله تعالى ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون ﴾ (١) ووعد الله لا يتخلف بالثوية الحسنی والله يقول ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ﴾ (٢) . فالذين أحسنوا العمل يمتازون عن أساءوا في مسلكهم فأولئك في روضات الجنات فيما يشاءون من مآكل ومشرب وملايس ومناجح وملاذ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأولئك في عرصات الذل والهوان والخوف المحقق عليهم بظلمهم ، فأين منزلة هؤلاء من أولئك ، ومن هنا فالمؤمن بعقيدته الثابتة يدرك أن الاسلام الذي اختاره منهاجاً وسلوكاً لم يترك شيئاً يعين الانسان على سعاده الأمانه وأرشده اليه ومهد له السبل كي لا يضل عن طريق الخير ، ولم يترك شيئاً يكون سبباً في شقاء الانسان ويؤدى به الى سوء العاقبة الا أظهره

(١) الانبياء آية ٣٥ .

(٢) سورة الشورى آية ٢٢ .

وحذره منه كي يكون على بينة من الأمرين المبني عليهما الابتلاء اللذين هما طريق الخير أو طريق الشر، فالموء من اذن بعقيدته هذه فيما يتحتمن به ونظرته له من زاوية الايمان تتحقق له مصلحة حسن الاختيار . فمن الطبيعي أن يختار ويثبت على طريق الخير انطلاقا من إيمانه ذلك . وحينئذ يتحقق للموء من الامتياز عن غيره لأنه انتفع بما وهبه الله من عقل وسمع وبصر فميز بينهما هو خير والتمزم طريقه وبينما هو شر وتجنب سبيله ولذلك ترى الذين لم يدركوا غاية الخلق ومقاصد الوجود في هذه الدار أخط منزلة من العجموات حيث يقول عز وجل من قائل :

* لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون * (١)

غفلوا عن مجريات الابتلاء الذي خلقوا من أجله فلم يكونوا من الشاكرين حيث لم ينتفعوا بشيء من تلك الجوارح التي جعلها الله سببا للهداية كما قال عز وجل * وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحق بهم ما كانوا به يستهزءون * (٢)

فلما لم يستعملوا جوارحهم فيما نيطت بها معرفته من فنون النعم

ويستدلوا بها على شئون منعمها ويدأوموا على شكره جل شأنه لم تفن

(١) سورة الأعراف آية ١٧٩ .

(٢) سورة الأحقاف آية ٢٦ .

عنهم من عذاب الله شيئا وذلك أنهم لم يستفيدوا بسمعهم من الوحي ومواعظ
الرسال ولا ببصرهم من الآيات الكونية المرسومة في صحائف العالم ولا بقلوبهم
في معرفة الله لما كانوا كذلك لم يتبعوا طريق الخير فكفروا والعاقبة الحتمية
هي الخلود في النار وبئس القرار . نوه يد ذلك يقول الله الكريم * انا خلقنا
الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ، انا هديناه السبيل إما
شاكرا وإما كفورا ، انا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا * (١)

وبهذا نكون قد علمنا أن ظاهرة الابتلاء هي التي تبرز فعل الانسان
المختار ليتم العطاء أو الحرمان من ميزان العدل الالهي ولتحقق أيضا تلك
المصالح المؤدية الى الايمان عموما . بيد أن السوء الالذي يفرض نفسه
ويجد العاقل فكره مضطرا الى الجواب عنه هو : كيف أتاح الله للانسان
ما يصحح به ابتلاءه؟ ، هذا ما سوف نتطرق إليه في الفصل القادم إن شاء الله .

الفصل الثالث

أُتِيَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ مَا يَصِحُّ بِهِ ابْتِلَاءً.

الفصل الثالث

أتاح الله للإنسان ما يصحح به ابتلاءه .

هل أتاح الله لهذا الإنسان الذي خلقه ليبتليه من الوسائل ما يوهه له أولاً لهذا الابتلاء ، ثم ما يمكنه ثانياً من اجتيازه بنجاح أو أنه تركه فغلاً أعزل لا قدرة له ولا عدة معه ؟

وللجواب ، نقول : نعم قد أتاح الله لهذا الإنسان الوسائل لهذا الابتلاء ، وهياً لبلوغ أقصى درجات الامتياز في النجاح فيه ، وتمثل هذه الوسائل فيما يلي :

أولاً : الفطرة :

وهي لفظة : اسم هيئة من الفطر الذي هو الابداع والاختراع كما قال ابن الأثير^(١) ، أو هي الابداع على هيئة مرشحة لفعل من الأفعال كما يقول الراغب^(٢).

- (١) الفطرة : الابتداء والاختراع والفطرة الحالة منه كالجلسة . والمعنى أنه يولد على نوع من الجبلة والطبع المتتهي لقبول الدين فلو تبرك عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها السي غيرها ، وإنما يعدل عنه من يعدل لآفات من آفات البشر والتقليد . النهاية ، تحقيق محمود الطناحي ج ٣ / ٤٥٧ ، نشر دار الفكر .
- (٢) وفطر الله الخلق وهو ايجاد الشيء وابداعه على هيئة مرشحة لفعل من الأفعال . فقله ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ إشارة منه تعالى إلى ما فطر أي أبداع وركز في الناس من معرفته المفردات ، مادة فطر ، ص ٣٨٢ ط / الحلبيية .

وأما في الشرع : فللناس فيها أقوال عديدة ، خيرها وأجلها
وأقومها حجة وأسلمها من النقد والشبهة ، أنها الاسلام وهو المعنى
المقصود في قوله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ
النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِن أَكْثَرُ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . (١)

وفي قوله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة : " ما من
مولود الا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه
كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء " . ثم
يقول : رضي الله عنه " فطرة الله التي فطر الناس عليها " . (٢)

وفي شرح هذا الحديث يقول الحافظ ابن حجر (٣) في الفتح

: وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة : الاسلام . قال ابن عبد البر
وهو المعروف عند عامة السلف . . . الى ان قال - وفي المسألة : أقوال
أخرى ذكرها ابن عبد البر وغيره ، منها : قول ابن المبارك أن المراد
أنه يولد على ما يصير إليه من شقاوة أو سعادة ، فمن علم الله أنه يصير

(١) سورة الروم آية ٣٠ . كتاب الفقه رباب معنى كل مولود

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٦ / ٢٠٧ ط الثانية .

(٣) والبخاري بشرحه الفتح ج ١ / ١٣٠ كتاب في التفسير . واللفظ للبخاري رباب
قوله تعالى : لا نبدل ما خلقنا الله
ج ٣ / ص ٢٤٨ / ٢٤٩ ، الجنائز وانظر رسالة ابن تيمية في

الكلام على الفطرة ، مجموعة الرسائل الكبرى ج ٢ / ٣٣٤ ،

نشر دار الفكر .

مسلمًا ولد على الإسلام ومن علم الله أنه يصير كافرًا ولد على الكفر . فكأنه أول الفطرة بالعلم . وتعقب بأنه لو كان كذلك لم يكن لقوله : " فأبواه يهودانه الخ - معنى لانهما فعلا به ما هو الفطرة التي ولد عليها فينافي التمثيل بحال البهية . ومنها أن المراد أن الله خلق فيهم المعرفة والانكار ، فلما أخذ الميثاق من الذرية قالوا : جميعا " بلى " أما أهل السعادة فقالوها طوعا وأما أهل الشقاوة فقالوها : كرها .

قال محمد بن نصر (١) : سمعت اسحاق بن راهويه (٢) يذهب

الى هذا المعنى ويرجحه . وتعقب بأنه يحتاج الى نقل صحيح ، فإنه لا يعرف هذا التفصيل عند أخذ الميثاق إلا عند السدي (٣) ولم يسنده وكأنه أخذه من الاسرائيليات ، حكاه ابن القيم عن شيخه ابن تيمية ، ومنها أن المراد بالفطرة الخلقة ، أى : يولد سالما لا يعرف كفرا ولا إيمانا ثم يعتقد إذا بلغ التكليف ورجحه ابن عبد البر وقال : إنه يطابق التمثيل بالبهية ولا يخالف حديث (٤) عياض ، لأن المراد بقوله : حنفاء أى على استقامة .

(١) هو المروزي ابو عبدالله ثقة حافظ توفي سنة اربع وتسعين ،

التقريب ج ٢ ص ١١٣ .

(٢) هو ابو محمد المروزي ثقة حافظ مجتهد توفي سنة ثمان وثلاثين

التقريب ج ١ ص ٥٤ .

(٣) هو اسحاق بن عبد الرحمن الكوفي ، صدوق يهيم رمي بالتشيع

توفي سنة سبع وعشرين ، التقريب ج ١ ص ٧١ .

(٤) " واني خلقت عبادي حنفاء كلهم وانهم اتهم الشياطين فاهتالوا بالهتاك

عن ابن تيمية انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٧ / ١٩٦ ، ط / الثانية

التي يجهلونها بكسر اوله بن حمار بن أبي حمار التميمي المجاشعي .

ر الاصابة ج ٣ / ٤٨ وأسد الغاية ج ٤ / ١٦٢ .

وتعقب بأنه لو كان كذلك لم يقتصر في أحوال التبديل على ملل الكفر دون ملة الاسلام ، ولم يكن لاستشهاد أبي هريرة بالآية معنى . ومنها قول بعضهم : إن اللام في الفطرة للعهد ، أى فطرة أبويه ، وهو متعقب بما ذكر في الذى قبله . (١)

ويؤيد المذهب الصحيح أن قوله : " فأبواه يهودانه " ليس فيه لوجود الفطرة شرط بل ذكر ما يمنع موجبها كحصول اليهودية مثلا متوقف على أشياء خارجة عن الفطرة بخلاف الاسلام . والذى يعيننا في الموضوع أن الآية الكريمة والحديث الشريف بينا أن الانسان خلق مجبولا على أن يسلك طريق الاسلام الذى هو طريق النجاح ، فرسول الاسلام صلى الله عليه وسلم ضرب المثل في هذا الحديث مقربا معنى كيفية خروج الانسان عن أصله مما يجعله خاسرا في الابتلاء من حيث إن البهيمة تولد جمعا كاملة الخلقة ، وانما تجدد بفعل فاعل من خارجها . فكذلك الانسان يولد مهيا لقبول الدين ممكنا في جبلته أصل الهدى ، فلو ترك لم يقبل غير طريق الخير الذى اذا سلكه نجح ، وبذلك يتبين أن التدين فى الانسان بفطرته عميق ، واحساسه به أصيل ولذلك ما يلبث الانسان الذى أصر مكابرا معاندا معرضا عن الاستجابة الى الدعوة التى وافقت

(١) بمعنى أنه لو كان على فطرة أبويه لكان مسلما ، لأن الكافر خرج عن فطرته بفعل فاعل فكيف تكون أل للعهد ولأن الكفر طارىء بدليل الحديث الذى معنا .

فطرته . ما يلبث حينما تحيط به معضلة أو تنزل به نازلة حتى يرجع الى فطرته المتأصلة فيه فيخلص الالتجاء الى الله . والقرآن الكريم وضح هذه الصورة أوضح بيان . حيث يقول عز من قائل * هو الذى يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين ، لكن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * (١) فالآية الكريمة ظاهرة المعنى على أن الله ركز في الانسان ما يجعله يسلك طريق الهدى إن لم يجانب الصواب في الاختيار ، فاذا كان هذا حال المؤمن من الذى يطلب الهداية ، فان هوءاء الكفار الذين عاندوا وكابروا فلم يقبلوا دين الله الموافق لفطرتهم ما لبثوا حين ادلهمم الخطب واشتدت عليهم عاصفة البلاء ، ما لبثوا - والحالة هذه - حتى أخلصوا التوحيد والتوجه ، فرجعوا إلى جبلتهم المركوزة في طبائعهم حتى قال قائلهم : لكن لم ينجنني في البحر إلا الاخلاص ما ينجنني في البر غيره . (٢)

وهكذا كل إنسان سوى يحسن في داخل نفسه أنه في حاجة الى قوة فوق قوته والى موجد أوجده ، وهو تحت سطوته ، والانسان بحسه

(١) سورة يونس آية ٢٢ .

(٢) القصة في سنن النسائي بشرح السيوطي ج٧/ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

ذلك يعيش دوماً في حاجة الى من يلتجئ اليه . ولذلك حينما نتتبع مسالك البشرية على مدار تاريخها نجد أنه لم تخل أمة أو جيل إلا ويتجه الى الخضوع لشيء يسد به ما تحسه نفسه من فراغ . وهذه الحقيقة تعطينا أن الله جعل الانسان مفتوراً على العبادة وهو بذلك قد سهل له طريق النجاح يجعله مفتوراً عليها ، وقد سبق معنا بيان أنها ميدان للابتلاء فأتاح الله له فرصة كاملة لاتباع طريق الحق الذي يوهى به إلى النجاة ، وهذا دليل على أن الانسان باختياره طريق الضلال في ميدان الابتلاء قد عدل عن فطرته المركوزة فيه وتكلف ما ليس من طبيعته بحيث خرج عن جبلته ، ولذلك كان الجزاء من الله عدلاً .

فالخروج عن الفطرة المدعومة بالشرع خروج عما تميل اليه طبيعة الانسان ، يدلل أن هذه الفطرة تتطلع دائماً الى البحث عن معرفة بارئها اذا انطلقت محررة من أى انحراف . فعقول الانسان عن فطرته التي خلق عليها كعدول إنسان مريض عن غذاء ملائم لطبيعته ، فمتى ما عدل عما يوافق طبيعته ويليق بها من الاغذية كان قد تسبب في اضمحلاله ووصول الأذى إليه ، فكذلك طبيعته الفطرية إن هو عدل بها عما يليق به من خيراً أو هدى إلى شراً أو ضلال ، فقد ألحق بها الأذى وأحل بها النقمة ، وحينئذ يخسر في الامتحان . فالفطرة إن في الانسان بمثابة الجسم فيه أيضاً فكما ينساق الى الغذاء تلبية لحاجة جسمه فكذلك ينساق بفطرته لتلبية حاجتها، إلا أنه قد يخطئ في

كيفية تلبية حاجته هذه ، وهو المسئول عن خطئه . ومتى ما ذهب الانسان بفطرته إلى ما هو أنجع له وأنفع حسنت أحواله ، واستوى نظامه . وبالتالي ينتفع بوجوده في الحياة الدنيا فلا يسلك الا طريق الخير . والانسان حينما يلتزم بما يوءد الفطرة من توجيهات إلهية وسنن نبوية يكون قد حقق نجاحه فيما سيربه من ابتلاء .

ولما كانت الفطرة شيئا مركزوا في الانسان يدفعه إلى مبتغاه الذي يرضيه ، كان لا مناص من ترشيد تلك الخلقة الجوهرية في الانسان بالعقل ، إذ العقل يخرج بفطرة الانسان من عسین التقليد ، فكم من إنسان يريد أن يتجه الى العبادة بحكم فطرته لكنه قد يخطي في كيفية تأدية هذه العبادة ، فيعبد جمادا لا ينفع ولا يضر ، فلا بد من ترشيد هذه الفطرة ، نظرا ؛ لأن المقصود هو اتباع الحق . ولذلك نجد القرآن الكريم ما فتى يذكر الانسان ويدعوه الى استعمال العقل منبع العلم والمعرفة وهو الذى يمنع الانسان أن يضل بفطرته فتخطي المنهج اللائق بها وهو الوسيلة الثانية لا نجاح الانسان في الابتلاء .

ثانيا : وسيلة العقل .

ما امتن الله به على الانسان ومميزه به عن غيره أن جعله ذا عقل تشريفا له وتكريما . ميزه عن الحيوان بالفكرة العقلية التي تهديه الى اتباع الحق ^{المشرعي} ومعرفة الخير للعمل به فأعطى الانسان بذلك

القدرة على تحصيل الفضيلة واجتناب الرذيلة . ومن هنا كان العقل في
الانسان تابع للشرع ^{هو} ~~الشرع~~ ^{الطريق} المعرفة بمسالك الصواب والعلم لاجتناب
الخطي ، وهذا ما لاحظته علماء اللغة ، يقول صاحب مقاييس اللغة :
" وهو - العقل - الحابس عند زميم القول والفعل • ونقل عنه الخليل
قوله : العقل نقيض الجهل ، يقال : عقل يعقل عقلا ، إذا عرف ما كان
يجهله قبل . أو انزجر عما كان يفعله " . (١)

فالانسان اذا استعمل ما رزق من عقل ففكره في نفسه رأى آثار
قدرة عظيمة ، فنظر الانسان في أصل نشأته يجعله يدرك أنه تنقل في
أطوار عدة . فبعد أن كان نطفة ، صار علقة ، ثم مضغة ، كما قال عز
وجل * ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار
مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما
فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين * (٢)
ثم بعد وصول الانسان الى الكمال العقلي ينقل الى أطوار هو يكرهها
طبعاً ولا يستطيع أن يدفعها عن نفسه ، وذلك أنه نقل من الفتوة والشباب إلى
الكهولة والشيخوخة كما قال عز وجل * ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا
أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً * .

(١) مادة عقل ج ٤ / ٦٩ ط . الثانية الحلبية .

(٢) سورة المؤمن آية ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ،

فالعقل إذن جعل الله فيه قدرة على تحصيل المعرفة بحيث يدرك حقائق مجردة بحكم تكوينه الروحي وذلك لما كان قابلاً لفهم الأشياء فتكون معقولة . وحينما تتوفر للعقل قواعد القياس السليم من مقدمات ونتائج وما يحيط بتلك المقدمات ونتائجها من عوامل يتطلبها النظر في شيء ، فإن العقل في الغالب يصل إلى الأسباب الدالة على الخالق ، فالعقل إذن مهمته الأولى أن يعين الإنسان على أنجح طريق لإجابة النوازع الفطرية . وكثيراً ما لفت القرآن الكريم النظر إلى استعمال العقل للدلالة على الخالق المؤمن للإيمان به مثل قوله تعالى ﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (١) والمراد يتفكرون بأن يستعملوا عقولهم في استنباط أسبابها وكيفية تكونها ليظهر لهم كمال قدرة الصانع جل شأنه وحكمته في تكوين ظاهرة البرق أو الأسباب التي تؤدي إلى نزول الأمطار فتظهر قدرة الفاعل المختار في أعلى قوة من الكمال . والمتأمل في قوله تعالى بصدد تكوين الأمطار ﴿ ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ (٢) .

(١) سورة الروم آية ٢٤ .

(٢) سورة النور آية ٤٣ .

المتأمل في ذلك يرى الدلالة الباهرة والاحاطة الشاملة
والسيطرة المتفردة بالوحدانية ، والانسان إذا استعمل عقله مستبصرا
لا شك أنه سينجح في معركة الامتحان . والقرآن الكريم أخبر كاشفا
عن ندم واعتراف الذين لم يستعملوا عقولهم فقال عز من قائل ﴿ وقالوا
لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحقا
لأصحاب السعير ﴾ (١) .

فلو تفكر الانسان بعقله في الدليل المسموع أو المبصر معتمدا
في ذلك على ما ظهر له من صدق المعجزات لنجح ولما كان من الخاسرين .
فتحكيم العقل إذن يرشد الى النهج القويم . الا أن العقل وهو على
الحال التي ذكرنا في حاجة الى وسيلة تعينه على إدراك الأشياء وقد
أتاح الله له من وسائل المعرفة .

وسيلة السمع والبصر :

امتن الله على الانسان بنعمتي السمع والبصر فجعله سميعا
بصيرا يستطيع أن يتجه بنظره الى الآيات المبصرة من آفاقية أو أنفسيه
وسمعه إلى الدلائل المسموعة : يقول عز من قائل : ﴿ إننا

خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾ (٢) .

(١) سورة الملك آية ١٠ / ١١ .

(٢) سورة الانسان آية : ٢ .

وقد جعل الله للإنسان هذه الآلات ليُدرك بها المعرفة
ويعلم بحها علوماً يتمكن بها من النظر في الأشياء التي تجعله يصل
إلى طريق الخير. فيسمعه يدرك الآيات التنزيلية الناطقة بالتوحيد
والبعث، وببصره يدرك الآيات التكوينية الشاهدة عليها. فبواسطة
السمع والبصر يتوصل الإنسان إلى التمتع بمسائر النعم الدينية والدنيوية
وفي معرض الامتنان على الإنسان بنعمة السمع والبصر يقول الله عز وجل:
* قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من السه
غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون * (١)، فلو
فات الإنسان المسموع والبصر لفاته الكثير من آيات الله وأعظمها خطراً،
ولو فقد الإنسان البصر والسمع لاختلت حياته والتبست عليه الأمور حتى لا يرى
موضع قدمه. وبالتالي لا تتاح له فرصة النظر في ملك الله وعجائبه
ولذلك من الله على الإنسان بالبصر فأودعه نورا يبصر به الضوء الباهر
الذي ينظر به ما بين السموات والأرض ليرى الدلائل الواضحة على أن
للكون صناعاً واحداً له جميع صفات الكمال، وما يراه الإنسان من الدلائل
المبصرة أن الأرض اليابسة التي لا نبات فيها ولا ماء تصبح مخضرة
فيرى الماء مساقاً إليها وإذا النبات والزروع تخرج زاهية للناس
والأنعام، فننتشر فوق الأرض التي كانت جرداء خالية من الخضرة.

(١) سورة الأنعام آية ٤٦.

وقد دعا القرآن الانسان إلى التفكير في ذلك كما قال عز وجل :
* أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فشخرج به زرعاً تأكل منه
أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون * (١)

وما أحسن قول القائل ، واصفا النبات الخارج من الأرض :
تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات وأحداق كالذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك (٢)
فلو تأمل الانسان فيما يبصره من نعم شتى مدركة بالحس أو معقولة
مسخرة له يشاهدها في كل مكان من حوله وينتفع بها في كل ما يحتاج
إليه في حياته لاستيقظ من غفلته واحتسى بطريق الهدى واستنار بمنهج
الاسلام القويم وقد خاطب القرآن الذين لم ينتفعوا بالمبصرات من
حولهم على وجه التقرير لهم لما لم يبهتدوا بما يشاهدونه من دلائل
مبصرة ونعم ظاهرة * ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في
الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة * (٣) . فمن تأمل
يبصره في المبصرات الكونية وأصغى بسمعه للدلائل السمعية لا شك أنه

(١) سورة السجدة آية ٢٧ .

(٢) ذكرها ابن كثير منسوبة لابي نواس في تفسيره ج١/٥٩ ، نشر

دار التراث القاهرة وهي من بحر الوافر .

(٣) سورة لقمان آية ٢٠ .

سيسلك طريق الخير ويعرض عن طريق الشر ، ولو نظر الانسان فسي
تقلب الليل والنهار لا أدرك أن الله جعل الليل زمانا للراحة والسكن
والاستجمام بعد التعب في النهار ، فاذا استراحت النفوس وأخذت
من الليل سباتها انفلق الصبح وكشف عن العالم وانتشر الخلق
جميعا ابتغاء مصالحهم ، فلو كان الليل فقط . أو النهار فقط لما
استمرت الحياة فوق البسيطة لما لكل من الليل والنهار مصالح خاصة
فلا تغنى إحداهما عن الأخرى يقول عز من قائل * قل أرأيتم إن جعل
الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتكم بضياء
أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم
القيامة من إله غير الله يأتكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته
جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (١)
فلواستعمل الانسان سمعه مصفيا بتأمل وقبول للدلائل لتعرف على
أن الله له القدرة المطلقة والتفرد في الخلق والابداع ولواستعمل
البصر أيضا متأملا ما يبصره من شواهد منصوبة دالة على قدرة القدير
وصنعة المختار المدير لرأى ما يبهره وما يرشده الى معرفة ربه وخالقه
ورازقه الذي تجب الطاعة المطلقة له .

(١) سورة القصص آية : (٧١، ٧٢، ٧٣) .

وسيلة الوحي :

ولما كان قصارى ما يفعله العقل المستنير بوسيلة السمع والبصر هو موافقة الفطرة الى طريق النجاة ، كان في حاجة الى ما يتوصل اليه معرفة دقائق الشرع .
ولا سبيل الى ذلك إلا أن يوه تينا الله وسيلة أخرى لتكميل العقل بما يثبت به على ما يدركه من حقائق عامة بتوجيه إلهي من خلال حقيقة الوحي حتى لا يضل العقل سبل السلامة والهداية فيخطئ بصاحبه طريق النجاة .

والوحي مصدره وحى يحي من باب وعد . فالواو والحاء والحرف المعتل أصل يدل على إلقاء علم في خفاء أو غيره . ويقال : أوحى إليه بالالف مثله . ويكون بالاشارة والرسالة والكتابة وكل ما ألقته الى غيرك ليعلمه وحى كيف كان ، ثم غلب استعمال الوحي فيما يلقي الى الأنبياء من عند الله تعالى . (١) وهو ما يعبر عنه بعضهم (٢) بقوله : " ما أنزل الله على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم " ، وهذه الرسالة ليست بصدور البيان لما تعدد من أنواعه وكيفياته فلذلك مجاله اللائق به من كتب الحديث والتوحيد وغيرها

-
- (١) المصباح المنير ج٢/ ٨١٠ ، نشر دار الكتب بيروت ،
ومقاييس اللغة ج٦/ ٩٣ ، مادة وحى . ط/ الحلبي الثانية .
(٢) انظر الوحي المحمدى لمحمد رشيد رضا ص ٤٤ طبعه المكتب الاسلامي .

وإنما المهم فيما أنا بصدده هنا أن ابرز للقارىء الثمرة العظمى التي تتم بهذا الوحي وهذه الثمرة نلخصها في الآتي :

أ - هداية الله العامة الى الأصول النافعة التي لا بد منها لصلاح الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة ،

لا تخفى عن العقل والحواس الظاهرة ، ذلك لأنه لا يمكن أن ينقاد جميع الناس لראى عاقل بناء على أنه حق ، فمن الممكن أن تخالف جماعة شخصاً عاقلاً وهو لا يستطيع إلزامهم بأن فكره هو الصواب . والثابت في الناس هو اختلاف مداركهم ما يترتب عليه الاختلاف في الأهواء والنحل . صحيح أن الناس جميعاً تلجئهم فطرتهم الى البحث عما يحسون به من قوة مسيطرة وأنهم تحت قهر وغلبة لكن لما اختلفت عقولهم في الإدراك كانوا في حاجة الى الوحي فمن الله به عليهم ليرشدهم الى ما فيه صلاحهم بجمعهم على طريق واحد في العقيدة والمنهج يقول عز من قائل * وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون * . (١)

ب - كبح جوامح النفس تجاه نوازع الشر المتعددة ومغريات الفتن المتنوعة كاستعماله وسائل الترهيب المختلفة وبينان

ما أعد الله للأشرار من جزاء وويل فيرفع الانسان يده عن الباطل والشر ويتوجه الى طريق الخير والحق ؛ لأن الانسان ذو طبيعة قابلة للخير والشر ، وهو بعقله فقط معرض للخطأ أو الاهمال فيسلك طريق الشر مسخرا شهواته ولذاته لأهوائه . فتورده موارد الشر وسوء العقابة . فلا ثبات على نهج قويم وصراط سليم إلا عن طريق الوحي الذي نزل من عند العليم الخبير . يقول سبحانه * يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا * (١)

فالوحي إذن بين للانسان طريق الخير والحق ودعاه إلى الايمان الذي تبنى عليه في الحقيقة جميع الخيرات ، دعاه إلى زجر النفوس من هواها والى ضبط شهواتها بالصبر والايثار وعدم الاغترار بالدنيا وزخارفها .

ج - وضع أعظم الحوافز الضابطة لسلوك النفس والدافعة لها الى اختيار مجالات الخير ومسالك البر باستعمال وسائل الترغيب المتعددة وبيان ما ينتظر المتقين من الجزاء الا وفي كميّان مصير الذين اعتصموا بالتقوى وهي الصفة الجامعة لكل سبل النجاح

كما قال تعالى ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلم عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ (١).

وفي بيان أن المتقين لهم جنات النعيم ما يرغب الإنسان في سلوك سبلها . والله يقول ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والمعاقبة للمتقين ﴾ (٢).

د - كشف العدو المبين الذي يعمل على اغتيال نور القلب وإهلاك حياة الروح سواء كان هذا العدو من الداخل كالنفس أم من الخارج كالشيطان والكفار والمنافقين .

١ - فبالنسبة للشيطان حذر الوحي من اتباعه والانقياد له إذ في ذلك الفتنة والبلاء بحيث يوسوس للإنسان بما يمنعه من الثبات على الإيمان . ومن هنا - يوم القيامة - سيخاطب الله من لم يعقل على وجه التقريع والتبكيث على متابعة عدوه الشيطان وعلى مخالفته سبيل الحق الذي لو اتبعه الإنسان لنجاه الابتلاء فيقول عز من قائل ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾ (٣).

(١) سورة الزمر آية ٧٣ .

(٢) سورة القصص آية ٨٣ .

(٣) سورة يس آية ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ .

والشيطان غيب عن الانسان فلا يراه بينما الشيطان يراه
كما أخبر عز وجل محذرا الانسان من فتنته * يا بني آدم لا يفتنكم
الشيطان كما أخرج أبوكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما
سوء^١ تهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين
أولياء للذين لا يؤمنون * (١) ، فللشيطان قدرة على التأثير في
أنفسنا فيقوى فيها رغبات الشر فلولا الوحي ما تبين للانسان المسالك
التي يعمد إليها الشيطان لا غوائه . ولا مانع للشيطان من إضلال
الانسان الا الوحي فهو وحده الكاشف للانسان عن مسالك الشيطان .

٢ - وبالنسبة للنفس ، فالمعروف عنها أنها ميالة للذائد

والشهوات ، فلن لم توضع لها حدود زاعت عن الحق وضلت بصاحبها
عن السبيل المنجي ، ولذلك أنزل الله الوحي هاديا للانسان إلى
طريق النجاة ومبينا الرشد من الضلال ، لأن من سلك طريق الخير
وطهر نفسه ظاهرا وباطنا فاز ونجا ، ومن ضل بالمعاصي والنقائص
خسرها . يبين ما قرناه قوله تعالى * إن يتبعون الا الظن وما
تهوى الا نفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى أم للانسان ما تمنى
فله الآخرة والأولى * (٢) وقوله تعالى * ونفس وما سواها ، فألهمها

فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاهها ، وقد خاب من دساها * (٣)

(١) سورة الأعراف آية ٢٧ .

(٢) سورة النجم آية ٢٣ .

(٣) سورة الشمس آية ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .

٣ - وبالنسبة للكفار والمنافقين فهم جادون في إيصال

الشر للمؤمنين ويتطلعون لادخالهم في حزبهم ولذلك كشف الله

عن عواقب طاعة الكافرين الذين يأملون أن يرجعوا بالمؤمنين إلى الضلال

بادخالهم في الظلمات بعد أن من الله عليهم بالإيمان ، يقول عز من قائل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ آتَوَا الْكِتَابَ يَرُدُّكُمْ

بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ، وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ وَفِيكُمْ

رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) ، وقوله

تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّكُمْ عَلَى

أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ (٢) .

وطالما تمنى أهل الكتاب إرجاع المؤمنين إلى الضلال كما

فعل اليهود بعد وقعة أحد حينما قالوا للمسلمين : لو كنتم على الحق

لما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم (٣) ، فنزل قوله تعالى :

﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُونَ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِنْ

عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ

بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤) .

(١) سورة آل عمران آية ١٠٠ ، ١٠١ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٣) روح المعاني للألوسي ١٤ / ١٦ / ص ٣٥٦ ، نشر

دار الفكر .

(٤) سورة البقرة آية ١٠٩ .

أما المنافقون ، فقد كشف القرآن أمرهم الى درجة أن سورة كاملة نزلت في شأنهم ، كما أن سورة التوبة أسهبت بجانب كبير في كشف أمرهم للمؤمنين ، فبينت مراوقتهم وتثبيطهم في أمر الجهاد الذي هو ذروة سنام الاسلام وذلك كما فعلوا في غزوة تبوك حينما تخلفوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبر سبحانه بأنهم لو خرجوا معكم لفتنوك بما سوف ينشرونه بينكم من نصب الحيل والمكايد لا سيما أن فيكم من يسمع اليهم وتطلي عليه مقاصدهم وذلك قوله تعالى * لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولا وضعوا خلالكم يبفونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين * (١)

هـ - بيان التشريعات الالهية التي ارتضاها الله لعباده

والتي لولاها ما كان للانسان أن يحيا حياة طيبة وما كان له أيضا أن يميز العمل الصالح من غيره كما قال عز وجل * من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون * (٢) ولا يمكن لغير الوحي من قبله سبحانه التلميح بشيء من ذلك العمل وتحديد دواعي عنك الافصاح به .

(١) سورة التوبة آية ٤٧ .

(٢) سورة النحل آية ٩٧ .

والنجاح في الابتلاء الذى خلق له الانسان مرهون بطهارة النفوس واستقامة الضمائر . ولا يحصل ذلك إلا بالوحي لأنه بالتشريع الالهى تزكو نفس الانسان ، وتتجه الى الخير المؤدى الى النجاة . فلما كان العباد لا يتجهون للاحكام التكليفية الا بمعرفتها عن طريق الوحي من الله بالوحي على العباد تكريما لهم .

و - إنارة العقل بعلوم ومعارف سامية تتعلق بالحق سبحانه تارة وبملكه أو ملكوته تارة أخرى ، لما كان لا يمكن إدراكها إلا بهذه النعمة الجليلة ، أعني نعمة الوحي كان لزاما بيانها به ، فمثلا ثبت بالدليل العقلي أنه من الضروري وجود حياة أخرى بعد الحياة الدنيا حتى يقام العدل بين البشر ، فكم من مظلوم ضاع حقه وكم من صالح اتهم لصلاحه وكم من فاسق جائر عتافى الأرض فسادا . ففي هذه الحياة ظواهر اجتماعية تحتم وجود حياة أخرى يعطى فيها كل ندى حقه وينصف فيها كل مظلوم ويحاسب فيها كل ظالم فمن الله بالوحي مبينا أنه في دار الآخرة عقاب وثواب ، وقيل ذلك فترة حساب مما يطمئن المظلوم فيعتقد أن حقه لم يضيع منه . ويرتدع الظالم ويرد الحقوق لأهلها وبالتالي يقلع عن ظلم الناس خوفا من العقاب في الحياة الأخرى كما قال عز وجل ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ (١) فأحوال ذلك

اليوم مما أعد فيه من جزاء وثواب قد خفيت على العقل ولا يمكن للإنسان إدراكها فلا بيان لذلك إلا من طريق الوحي .

ز - إقامة الحجّة للذين آمنوا وصدقوا بما أنزل إليهم من

عند الله فعملوا عملاً صالحاً وفق ذلك . وعلى الذين كفروا واستكبروا

عما أنزل إليهم كما قال عز وجل * ولوترى إن وقفوا على النار فقالوا

يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم

ما كانوا يخفون من قبل لووردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم

لكاذبون * (١) ، يخبر تعالى عن حال الكفار حينما رأوا بأعينهم تلك

الأمر العظام والأهوال الجسام بأنهم تمنوا أن يردوا إلى دار الابتلاء

ليعملوا العمل الصالح ولا يكذب بالآيات التي نصبت وهذا صادر منهم

لما رأوا العذاب المحقق وإلا فهم كاذبون . وهكذا فالذين آمنوا

لما اتبعوا طريق الحق بانصياعهم لما يلقي إليهم من دلائل سمعية

وما قد نصب في الكون من دلائل بصرية نجوا . وأما الذين جحدوا

فقد خرجوا عن طريق النجاة فلم ينتفعوا بعقولهم لأنهم لم يتدبروا

الأدلة سواء كانت سمعية أو بصرية . يقول الله عز وجل * لقد

(٢)

أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط *

(١) سورة الأنعام آية ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) سورة الحديد آية ٢٥ .

ويقول تعالى أيضا * يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم صراطا مستقيما * (١) ، فأخبر سبحانه أنه أنزل الكتاب لمن يريد خيري الدنيا والاخرة فأمر باتباعه وحذر من مخالفة أوامره فدعا الناس جميعا الى الاعتراف برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لأنها البرهان على تحقيق الحق وإبطال الباطل والقرآن هو النور المبين ؛ لأنه سبب لوقوع نور الايمان في القلب. (٢)

ففي هذا قطع للأعداء التي يمكن لبعض الجاحدين اتخاذها حجة لولم ينزل ، أما وقد انزل الله كتابه فهو حجة واضحة للمؤمنين آمنوا فسلخوا طريق النجاة باتباعهم للوحي الذي أنزل من عند الله جامعا لما يحتاج إليه الناس في جميع شئون حياتهم . وحجة على الذين سلكوا سبيل العناد فلم يؤمنوا بما أنزل إليهم وبذلك قطع الله عذرهم لا سيما الذين لم يسبق أن نزل إليهم كتاب ، فيعتذرون بالقول: إنما نزل على من كان قبلنا . وما كنا نفهم ما يقولون ، ونحن في غفلة وشغل ، كما قال عز وجل * وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة * (٣)

(١) سورة النساء آية ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) انظر روح المعاني ٢م / ٦ج / ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

والمراد من الآية الدعوة الى اتباع القرآن وتدبره والعمل
به لأنه عين الرحمة والهدى . وحبل الله المتين من أخذ به واتبعه
حصلت له البركة ، في دنياه وآخرته كما أنه في إنزاله قطع لشبهه
المكذابين والذين سوف يتخذون عدم انزاله - لولم ينزل - ذريعة
للنجاة من الجزاء الذى حق عليهم لما خالفوا ما أنزل اليهم
من أوامرونواه .

الباب الثاني

الابتلاء بالخير والشر

ويتضمن الفصول التالية :

الفصل الأول : مفهوم الابتلاء بالخير والشر معنى وصفة

وحكمة

الفصل الثاني : الابتلاء بالتكليف .

الفصل الثالث : الابتلاء بالمال والولد .

الفصل الرابع : الابتلاء بالمصائب .

الفصل الأول

مفهوم الابتلاء بالخير والشر معنى وصفة وحكمة ؟

لما كان الانسان مبتلى بالخير والشر ومعرضا لهما لزم النظر في معنى وكيفية وحكمة ابتلاء الانسان بهما . وقبل كل شيء أرى لزاما على الباحث في مثل هذه القضية أن يحدد مفاد الخير والشر المراد في هذا الباب . وفي ذلك يقول الراغب الأصفهاني (١) في تفسير الخير ما نصه : الخير ما يرغب فيه الكل كالعقل مثلا والعدل والفضل والشمسي النافع . وضده الشر . قيل : والخير ضربان خير مطلق وهو أن يكون مرغوبا فيه بكل حال وعند كل أحد كما وصف عليه السلام به الجنة فقال : لا خير بخير بعده النار ولا شر بشر بعده الجنة ، (٢) وخير وشر مقيدان وهو أن يكون خيرا لواحد شرا لآخر كالمال الذي ربما يكون خيرا لزيد وشرا لعمرو ولذلك وصفه الله تعالى بالأمرين فقال في موضع * إن ترك خيرا *، (٣) وقال في موضع آخر * أيحسبون أننا نمدهم به من مال وينين نسارع لهم في الخيرات *، (٤)

وقال الرازي فيما قال من تفسير قوله تعالى * ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون * (٥) الابتلاء لا يتحقق إلا مع التكليف

(١) كتاب المفردات : ص ١٦٠ مادة خير .

(٢) لم أشر على أصله .

(٣) سورة البقرة آية ٨٠ .

(٤) سورة المؤمن آية ٥٥ - ٥٦ .

(٥) سورة الأنبياء آية ٣٥ .

فآلية دالة على حصول التكليف ، وتدل على أنه سبحانه وتعالى لم يقتصر بالتكليف على ما أمر ونهى وإن كان فيه صعوبة بل ابتلاه بأمرين: أحدهما ما سماه خيرا وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من المرادات . والثاني ما سماه شرا وهو المضار الدنيوية من الفقر والألام وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين ^(١) . ويقول العلامة الأوسى في نطاق تفسيره لهذه الآية الكريمة - أعني آية الأنبياء - " بالمكروه والمحبوب هل تصبرون وتشكرون أولا . وتفسير الشر والخير بما ذكر مروى عن ابن زيد ^(٢) وروى عن ابن عباس أنهما الشدة والرخاء . وقال الضحاك ^(٣) الفقر والمرض والغنى والصحة والتمسيم أولى ^(٤) فحصل جملة هذه النقول إذن ، أن الخير هو المحبوب المرغوب فيه وأن الشر هو المكروه المرغوب عنه . ثم إنهما - أعني الخير والشر كثيرا ما يطلقان بالمعنى المصدرى لا سيما عند الاقتران بأل كالذى فى القول الكريم * ونيلوكم بالشر والخير فتنة * كما يطلقان اسمى تفضيل على وزن أفعل حذف الهزة من أول كل منهما تخفيفا كما تقول : فلان خير من هذا وشر من ذاك وكما فى قوله عز من قائل * أفمن يلقى فى النار خيرا

(١) مفاتيح الغيب م ١١١ / ج ٢٢٢ / ١٦٩ ، الطبعة الثانية ، طهران .

(٢) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوى ضعفه فى التقريب

توفى سنة اثنين وثمانين ومائة . التقريب ج ١ / ٤٨٠

، طبقات المفسرين للداودى ج ١ / ص ٢٦٥ نشر مكتبة وهبة القاهرة .

(٣) هو ابن مزاحم الهلالي صدوق كثير الارسال مات بعد المائة .

التقريب ج ١ / ص ٣٧٣ .

(٤) روح المعاني للأوسى م ٦٦ / ج ١٧٢ / ص ٤٧ نشر دار الفكر .

أمن يأتي آنا يوم القيامة ﴿ (١) ، وقوله تعالى ﴿ اولئك شر مكانا
وأضل عن سوا السبيل ﴿ (٢) وذلك ما عبر عنه الراغب في مفرداته حيث
يقول : والخير والشر يقالان على وجهين : أحدهما : أن يكونا اسمين
كما تقدم وهو قوله ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ﴿ (٣) والثاني
أن يكونا وصفين ، وتقديرهما تقدير أفعل منه ، نحو هذا خير من ذاك
وأفضل . وقوله تعالى ﴿ نأت بخير منها ﴿ (٤) إذا تصد هذا ،
فإن ما لا يخفى أن الخير والشر بالتعميم الذي وصفنا ، والذي هو
محصل ما أسلفنا من الأقوال المتقدمة كما قلت هو كل ما يشمل
الماديات والمعنويات جميعا ، فكل ما كان مرغوبا فيه من الأشياء المادية
كالمال والبنين وما إليهما من جميع ما يدخل تحتها ما هو محسوس ومشاهد
من زينة الحياة الدنيا هو من الخير ، وكل ما هو مرغوب فيه كذلك من
الأمور المعنوية كالعلم والعقل والجاه والسلطان والجود والشجاعة
والمروءة وحسن الخلق وما إلى ذلك من كل ما يكتمل به العاقل من القيم
الرفيعة والآداب السامية فهو من الخير . وما لا ريب فيه أن بين
المادى من المال والبنين وما إليهما ، وبين المعنوى من القيم الرفيعة

(١) سورة فصلت آية . ٤٠ .

(٢) سورة المائدة آية . ٦٠ .

(٣) سورة آل عمران آية . ١٠٤ .

(٤) سورة البقرة آية . ١٠٦ .

والمعايير العالية من تفاوت الدرجات واختلاف المنازل بونا شاسعا
حيث تجد ما هو مادي أدنى بدرجات كثيرة لا تكرر تحصي بالقياس
الى ما هو معنوي كما أنه مما لا مزية فيه أن راس القيم جميعا وأعلىها
قدرا وأنهضها بالعبد الى آسى ما يلقى بالحر الكريم من المنازل العالية
والدرجات الراضية هو معرفة الله عز وجل والعبودية لجنابه الأعلى
اعتقادا وقولا وعملا وأنه إذا كانت الوسيلة الضرورية التي لا بد منها
لتحصيل هذين المطلبين الجليلين هي التكليف الالهي لنا بها ، فإن
جميع هذه التكليف الشرعية - إذن - تكون بدورها خيرا ضرورة أن الوسيلة
إنما تشرف بشرف الغاية وتخس بخستها . نعم هذا كله خير ، فإن
حقه أن يكون مرغوبا فيه لكل عاقل . وبهذا الذي نبهنا إليه بل
دلنا عليه كذاك مع كونه من البدهيات الجليات التي حقها أن لا تحتاج
الى تنبيه ، فضلا عن أن تكون من الدعاوى المفتقرة الى إقامة البينات ونصب
الدلائل - أعني كون التكليف من الخير لما يتوقف عليه من سنة الله وحكمته
من غايته العبودية والمعرفة له سبحانه أقول : بما نبهنا عليه بل دلنا
عليه من ذلك يتبين عدم خلوع عبارة الشيخ الرازي رحمه الله المتقدمة
في صدر هذا البحث ، (١) في هذا المجال من الخطأ أو ابهام غير
ما ينبغي من الحق الذي بينا في هذا الصدر على أقل تقدير .

(١) ص ٩٠ ، ٩١ .

هذا وإذا كان من المسلمات أن الأشياء تتبين أفضل تبين بأضدادها،
فانه بقدر ما يحرم المرء من صنف الخير الذي ذكرنا يكون قد ناله ما هو
على المضادة لهذا الصنف أو ذاك من الشرطى قدر ذلك الحرمان
حتى إن من حصل على الدرجة الدنيا من الخير كالمال مثلا على حساب
ما هو أسى وأرفع من درجاته كشكر نعمة المال بالعمل الصالح الذى شره
الله فيه يكون قد نال من الشر العظيم ما لا يكاد يذكر إلى جنبه ما حصل
له من الخير القليل الضئيل حتى يمكن أن يقال حينئذ إن هذا المال
الذى هو خير في الأصل كان شرا وبالا على صاحبه بحيث لو لم
يحصل له هذا المال البتة لكان ذلك عين الخير له في الحقيقة .
ويؤيد هذا المعنى ما ذكره ابن كثير في تفسيره (١) حيث قال : فيغني

من يستحق الغنى ويفقر من يستحق الفقر

(١) تفسير القرآن العظيم ج٤ / ص ١١٥ نشر مكتبة دار التراث

القاهرة .

وممن ينبغي التنبيه إليه والاعراض عن التفاؤل عنه أنه ليس
بين الخير بالمعنى الذى قررنا وبين الأجر أو المثوبة منه تعالى ،
ولا بين الشر بالمعنى الذى قررنا كذلك وبين الوزر أو العقوبة منه عز
وجل تلازم ، فحرمان المال أو الجاه أو السلطان أو العلم بما لا تتوقف
عليه معرفة الله وطاعته من القادر على تحصيل ذلك فضلا عن العاجز
عنه - إن سلكنا على ضوء ما بينا في عداد الشر - ليس دليلا على الاثم
أو العقوبة ، كما أن تحصيل المال أو الجاه أو السلطان وما الى ذلك
ليس له لذاته أجر أو مكرمة ، وإنما الأجر لما يمكن بل ينبغي أن
يؤدى إليه ذلك من مرض الله عز وجل . إذا علم هذا لى
القارىء الكريم فإننا نقول : ابتلاء الله تعالى عباده بالخير معناه
أنه يؤتى العبد من صنوف الخير المادية أو المعنوية فضلا منه ورحمة
بالعبد من جهة ما هو في الواقع ونفس الأمر ، وفتنة واختيارا لـ
من جهة أخرى . أما الفضل والرحمة فظاهر ما يحصل من اللذات الحسية
والمتعة النفسية . وأما الفتنة والاختيار فمن جهة أن من حصل له هذا
الصف أو ذاك من الخير هل استغله كما ينبغي واستثمر من معطيات
الهدى والبر فيه ما جعل زرعه يخرج شطئه حتى استفلظ
فاستوى على سوقه فحصل لنفسه بذلك أعظم غاية أعنى رضوان الله
وجزائه الأوفى أو أنه تعس وانتكس فسلب الخير مضمونه وقلبه على
نفسه وعلى غيره كذلك في بعض الأحيان شرا عظيما وبلاء مستطييرا

ففوت على نفسه بذلك من مراتب الخير العليا ما لا يقاس إليه ما حصل له من درجاته الدنيا. وما لا ينبغي أن يغيب عن فطنة الفطن هنا أنه يستوى في الدخول تحت الابتلاء جميع صنوف الخير الدنيوى ومراتبه أعلاها وأدناها ، فكما يتصور بل يقع بالفعل مثل هذا الابتلاء في أقل صنوف الخير الدنيوى شأننا كالكامل مثلا ، فكذلك يتصور بل يقع بالفعل في أعلى منازل قدره كعرفة الله والعبودية له حينما يحولهما العبد يخبثه ويجعلها وبالا على نفسه فيحرمها ما هو مقتضى هذه المعرفة ، وحق تلك العبودية بالعجب بهما وهزل العطف (١) غرورا وكبرياء على ما نال منهما فانه عندئذ يكون قد نسب الفضل الى نفسه فكفر بمن أنعم بذلك الفضل عليه بل يكون على التحقيق قد نازع جبار السماوات والأرض إزاره ورداه ، وهي أسفل دركات الشر ، فاستحق بذلك أسوأ الجزاء عليه كما قال ربنا تعالى في الحديث القدسي المشهور "الكبرياء ردائي فمن نازعني ردائي قصته" . (٢) وعلى نحو من ذلك فقل في ابتلائه تعالى عباده بالشر ، فانه يحرم العبد هذا الصنف أو ذاك من صنوف الخير منزلا به ما هو على المضادة له من أشكال الشر

-
- (١) هو بكسر العين وسكون الطاء ، الجانب من الشيء . انظر المصباح مادة عطف ج ٢ / ص ٤٩٦ ، نشر دار الكتب العلمية بيروت .
(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه من حديث أبي هريرة وقال على شرط مسلم وأقره الذهبي ج ١ / ٦١ كتاب الايمان .

كأن يحرمه المال مثلا فينزله بذلك المنزلة المعروفة بين الناس بالفقر
أو يحرمه الصحة منزلا لإياه المنزلة المعروفة بين الناس بالمرض السي
أشباه ذلك من صنوف شتى ابتلاء للعبد وفتنة أئحمد الله على كل
حال فيحول ذلك العرمان الى قيمة رفيعة ومرتبة سامية من قيم الخير
ومراتبه أعني فضيلة الصبرأم يحول مثل هذا الصنف الأدنى من الشر
والذى كان يمكن أن يحصل به لنفسه أعظم الخير إلى ما هو أعظم منه
شرا وأشد نكرا فيشتكى ويتسخط ويحسد غيره على ما اتاه الله من النعمة
التي فقدها هو ثم ما يزال به الأمر على هذا النحو حتى يجره الى
التردى في دركات الشر من سافل الى أسفل الى أن ينتهي به الى الكفر
والعيان بالله ، والله در الحافظين الجليلين المفسرين الكبارين محمد بن
جرير أبو جعفر الطبرى ، وأبو الفداء اسماعيل بن كثير ، فقد أخرج الأول بسنده
(١)
عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ يقول :
نبتليكم بالشدّة والرّخاء والصّحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام
والطاعة والمعصية والهدى والضلال .

ويقول ابن كثير بصدّد تفسير الآية الكريمة : " أى نختبركم بالمصائب

(٢)

تارة وبالنعمة تارة أخرى فننظر من يشكر ومن يكفر ومن يصبر ومن يقنط ،

تفسير القرآن العظيم ج ١٧ / ص ١٩ الطبعة الأُميرية الأولى مصر . راجع في هامشه

(١)

ج ١٧ / ص ١٩ الطبعة الأُميرية الأولى مصر . راجع في هامشه

(٢) تفسير القرآن العظيم ج ٣ / ص ١٧٨ دار التراث القاهرة .

هذا هو معنى وصفة ابتلاء الله عباده بالخير والشر المعنيين في القول الكريم * كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة * (١) .
وأما حكمة الابتلاء بهما - بالخير والشر - فضروبها كثيرة وأنواعها متشعبة وسأتعرض - بإذن الله - لبيان الحكمة فيهما عند الحديث على كل نوع منهما فيما سيأتي من دراسة . وأما هنا فيمكننا أن نجمل القول في ذلك فيما يلي :

أ - ظهور من يصبر في المحن ومن يشكر في المنح بحيث يتحمل مرارة الآلام بالشرور المؤقتة التي قد تعقبها لذات دائمة ، وفي الجانب الآخر ظهور من يلجم شهواته التي قد تعقبها آلام دائمة إذ ابتلاء الإنسان مبني على ما هو أمر ضروري فيه ، وذلك أن الإنسان خلق مركباً تركيباً طبيعياً للذات والآلام فلا يختص بواحد منهما إلا إذا خرج عن طور الاعتدال . فالإنسان السوي هو الذي يشكر في السراء ويصبر في البأساء والضراء . فالابتلاء بهما لتمييز من يصبر ومن لا يصبر بأن يجزع فينقلب خاسراً وذلك حال من لم يتبع سنن الحق ، ويستفيد من الهداية الإلهية فقد يسيء في العمل بتعمدي الحدود ، وسواء في ابتلاءه بالخير أو الشر ، وحينئذ يشقى في الدارين كما بين سبحانه بقوله : * فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا * (٢) .

(١) سورة الأنبياء آية : ٣٥ .

(٢) سورة طه آية : ١٢٤ .

ب : للتذكير بالنظر في نعمة الابتلاء بالخير وذلك أن اختلاف

الأحوال على الانسان بحيث يبتلى بالخير مرة ، وبالشر مرة رحمة من الله
كي يرجع من غفل ونسي فيتوب ويسلك طريق الحق ، وكي يثبت من استقام
واتبع الهدى وبالتالي يسارع في تحصيل الخير ، يبين هذا المعنى قوله
صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخارى (١) من حديث عبد الله بن مسعود

قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " الجنة أقرب الى أحدكم من شراك نعله ،
والنار مثل ذلك " ففي هذا النص دليل على اقتراب الخير والشر من الانسان
ولذلك حثه الله على المبادرة الى الخيرات من فعل الطاعات وترك
المحرمات ، كما أنه يجب على المرء أن لا يزهى في قليل من الخير أن يأتيه
ولا في قليل من الشر أن يجتنبه بدليل أن الانسان لا يدرى الحسننة
التي يرحمه الله بها ولا السيئة التي يسخط عليه بها .

فتقلب الأحوال اذن على الانسان يجعله دائما في تفكير وتذكر

وذلك يودي بالانسان الى اليقظة فيرجع عن غيه وطفياهه إن كانت قد
زلت قدمه ، يقول عز من قائل : * ويلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم
يرجعون * (٢) يقول الشيخ الرازى (٣) عند تفسيره لهذه الآية :

(١) صحيح البخارى بشرحه فتح البارى كتاب الرقاق باب الجنة

أقرب الخ ج ١١١ / ص ٣٢١ .

(٢) سورة الاعراف آية ١٦٨ .

(٣) مفاتيح الغيب ج ١٥ / ص ٣٤ ط / الثانية الحلبية .

وكل واحد من الحسنات والسيئات يدعو الى الطاعة أما النعم فلا جل
الترغيب وأما النقم فلا جل الترهيب .

ج - اعتقاد الانسان أنه مبتلى بالخير والشر يجعله في

حس من الاغترار بالدنيا وزينتها بحيث لا ينخدع بلذاتها الموقته فيسلك
طريقا وسطا بأن لا يقنط ولا ييأس عندما يبتلى بالشر ولا يبطر عندما
يبتلى بالخير فيغبط الناس حقوقهم ، أما الذي تطفى به شهواته فقلما
يسلم من الاخفاق في الامتحان ، فيخسر بذلك الفائدة المتوخاة من
الابتلاء .

د - لتربية الانسان المبتلى واعداده كي يتحمل مسئوليته

في الحياة . فرور الانسان بالمكروهات قد يرق بسببه قلبه ويصفو
ضميره ، كما أن الانعام عليه أيضا بالخيرات يجعله يقدر للمنعم بإنعامه
عليه معترفا بالحق لبارئه فيكون من الشاكرين ويتضح بذلك من يتحمل
ويكون في مستوى التضحية من أجل الايمان فيصبر في الحالين ويتضرع
بالالتجاء إلى الله وحده فيستقر على طريق الحق ، يقول عز وجل :
﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم ﴾ (١)
أي أن الله يختبر عباده المكلفين بالآوامر والنواهي ليظهر من يصبر
على مشاق التكليف . ويعمل وفق ما أمر الله به عملا فعليا يتعلق
به الجزاء وذلك حتى لا يقع التباس أوخفاء بين صفوف المكلفين بأن
يتميز المومنون بانكشاف أمر المنافقين أو الجزعين .

الفصل الثاني

الابتلاء بالتكليف

توطئة :

تقدم القول عند بيان معنى القول الكريم * ونبلوكم بالشر والخير
فتنة * بأن أعلى الخيرات معرفة الله وطاعته الشاملة للعبودية القلبية
والقلبية والوصول إلى هذه المنزلة العالية من الخيرات لا يتم إلا بوسيلة
التكليف ولذلك ميز الله الانسان بأن كلفه بما كلفه به من أوامر ونواه
فنن عليه بالفكرة العقلية التي تهديه الى معرفة الحق لذاته ، ومعرفة
الخير للعمل به بحيث أعطي القدرة على تحصيل الفضيلة واجتناب الرذيلة ،
ولما كان الانسان كذلك كان موء هلا لأن يبتلى بالتكليف ، والبحث في
هذه القضية يتطلب معرفة معنى التكليف لغة وشرعا .

فأقول : التكليف مأخوذ من تكلف الأمر تجشمه ، وتكلف الشيء

فعله بجهد تصله منه مشقة معتادة وذلك ما أفاده صاحب القاموس بشرح

الزبيدي ^(١) إذ يقول : والتكليف الأمر بما يشق عليك ، وقد كلفه تكليفا .

قال الله تعالى * لا يكلف الله نفسا الا وسعها * ^(٢) وتكلفه تكلفا إذا

تجشمه ، نقله الجوهري ، زاد غيره على مشقة وعلى خلاف عادة . وفي

الحديث " أنا وأمتي برآء من التكليف " ^(٣) ومن هذا المعنى أيضا انطلق

المفهوم الشرعي ، يتضح ذلك فيما أفاده امام الحرمين ^(٤) حيث قال :

(١) باب الفاء . فصل الكاف مادة كلف ج ٢٣٨/٦ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

(٣) لم أشر على من ذكره مسندا وورد في هذا المعنى ما هو في

حكم المرفوع من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه " نهينا عن

التكليف " أخرجه البخاري من حديث أنس . كتاب الاعتصام . باب

ما يكره من كفرة السوء ال . فتح الباري ج ١٣/٢٦٤ .

(٤) البرهان ج ١/١٠١ ط / الثانية . دار الاعتصام القاهرة .

"هو إلزام ما فيه كلفة ، ونقل عن غيره طلب ما فيه كلفة وهو أولى لشموله".
وفيا أفاده صاحب^(١) المفردات من قوله : والتكليف لإسم لما يفعل بمشقة
أو تصنع أو تشيع ولذلك صار التكليف على ضربين محمود ، وهو ما يتحراه
الانسان ليتوصل به إلى أن يصير الفعل الذي يتعاطاه سهلا عليه ويصير
كلفا ومحبالا . وبهذا النظر يستعمل التكليف في العبادات . والثاني
مذموم وهو ما يتحراه الانسان مراعاة وإياه عني بقوله تعالى * قل
ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين *^(٢) . وقول النبي صلى الله
عليه وسلم : " أنا وأتقيا أمتي برآء من التكليف "^(٣) . وقوله تعالى
* لا يكلف الله نفسا إلا وسعها * أي ما يعدونه مشقة فهو سعة في المال
نحو قوله * وما جعل عليكم في الدين من حرج *^(٤) . وما قرره الفيروز آبادي
وشارحه ، والاصفهانى في مفرداته ، ندرك التطابق الذى بين المعنى
اللفوى والمعنى الشرعى حيث إن كلا منهما يدل على أمر فيه كلفة ، وقد
يتماز المعنى الشرعى عن اللفوى نظرا ، لأن المشقة في الشرعى مقيدة
بحيث لا يتجاوزها أن تكون غير معتادة وذلك ما عناه صاحب المفردات
بقوله السابق في النوع المحمود . والذى معناه أن الانسان حينما يعتاده

(١) كتاب المفردات في غريب القرآن مادة كلف ص ٤٣٩ .

(٢) سورة الزمر آية ٨٦ .

(٣) انظر ص ١٠٢ هامش (٣) .

(٤) سورة الحج آية ٧٨ .

ويعتاد فعله يكلف^(١) به حتى يصبح محبا له . وهو المعنى بالعبودية التي من أجلها كلف الانسان ، كما أنه يدرك من خلال تعريف الأصفهاني مفهوم يعطينا أن الانسان في تحركه بين الاعمال التكليفية والتصرفات الشرعية هو مرهون من حيث الأجر أو عدمه بالنية ، وذلك أنه ما كان منه بإخلاص وموافقا لقواعد التكليف كانت لصاحبه المثوبة . وما كان تصنعا أو تشبعا كان مذموما . وبالتالي يرد على صاحبه^(٢) . فالمذموم إذن لم يدخل في الحكم التكليفي حقيقة وإنما دخل صورة . يوء يد هذا المعنى قوله عز من قائل ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾^(٣) وقوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن الله عز وجل ، قال الله : "أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"^(٤) .

فالحكم التكليفي مبني إذن على موافقة القواعد التي أمر الله بها . هذا أولا ، وثانيا : مبني على الاخلاص لرب العباد فلا يقبل الله أى عبادة دخلها الشرك ومنه الرياء ، وهو الشرك الأصغر كما سماه صلى الله عليه وسلم . كما أن تقييد المشقة بالمعتادة يعطينا أنها ليست

(١) أى يولع به ويعتاده . المصباح مادة كلف ج ٦٥١/٢ نشر دار الكتب العلمية بيروت .

(٢) بمعنى أن الأمور أو المنهيات إذا لم تكن موافقة لقواعد الشرع أو تكون مشوبة بالرياء والسمعة عند الأراء لا تقبل . ومن هنا كانت صورته الظاهرة عبادة ولكن بحكم أنها مردودة ليست داخلية فسي الحكم التكليفي حقيقة .

(٣) سورة البينة آية ٥ .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ج ١٨/ص ١١٥ باب فضل الانفاق على المساكين انظر صحيح مسلم بشرحه النووي ط/٣ .

مطلقة وذلك يدفع ما قد يوهم أن الله ابتلى عباده بما يشق عليهم وهو الكريم الرحيم ، بل مشقة مبنية على قدرة الانسان المستطاعة بدليل ما شرع الله من رخص كالفطر في رمضان للمريض والمسافر وغيرهما ، وكأكل المحرمات في حال الاضطرار وغير ذلك مما يدل على رفع الحرج في تكليف الانسان . ومن هنا نرى عدم جدوى الحديث في قضية التكليف بما لا يطاق وذلك في نظري أن هذه القضية لا فائدة من البحث فيها وإيثارها بالنظر في وقوعها أو عدمه حيث إن المقصود من التكليف بعيد عن ذلك المعنى إذ هو مبني على الاستطاعة بحيث لا تكليف الا مع القدرة . فما الفائدة إذن من الجدل حول قضية لم تقع ولن تقع . فنسبة المشقة في الأمور والمنهيات هي بمثابة نسبة ما يلقاه الصانع مثلا من مشقة في إنتاجه الصناعي أو أى عمل دنيوى . فطبعي أن تكون المشقة في انجازه والنفوس تعتاده وبالتالي فكل عاقل لا ينازع في أن تقلب الانسان في هذه الحياة مبني على الكلفة والمتاعب فلا يسلم أحد منها ، بل الحياة في دار الابتلاء مطبوعة بالتعب والنصب ، بدليل ما جاء في قوله عز وجل محذرا آدم من مخالفة الأمر الالهي الكريم بعدم الأكل من الشجرة المترتب عليه الخروج من الجنة الذي يؤدى الى النزول في دار الشقاء ﴿ وقلنا يا آدم إن هذا عدوك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ (١) .

وانطلاقاً من هذا المعنى ندرك أن المشقة التي في التكليف الشرعي مشقة معتادة وهي طبيعية في أي تحرك في هذه الحياة الدنيا . ويجعل بعد هذا أن أقول في خلاصة معنى التكليف المصاحب للمشقة إنه حبس النفس عن الميل الى ما يضرها ، وهو المعنى بما حرم الله عليها أو كره لها تعاطيه . أو إباحة ما فيه نفعها بقدر الاعتدال ، وهو المعنى بما أحل الله لها أو رغب فيه لها ، وهذا المعنى يعطينا أن التكليف منظم للأوصاف التي طبع عليها الانسان من شهوات وغرائز وذلك حتى لا يميل بها عن الحد المرسوم لها الذي إذا خرجت عن الأفعال المكتسبة المطلوبة أو المنهى عنها أصيبت حياته بخلل وضياع في مسيرة الحياة الدنيا ينتج عنها خسران في الدار الآخرة . يوه يد ذلك القرآن الكريم في القول الصريح ، حيث يقول سبحانه * لا يكلف الله نفساً الا وسعها *^(١) ويقول : * يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر *^(٢) ، ويقول : * وما جعل عليكم في الدين من حرج *^(٣) ، فالتكاليف مبنية على الوسع والاستطاعة وعدم التشديد في القيام بها كما يلاحظ ذلك جلياً في الحديث الوارد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم : **فإنذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم** :^(٤)

(١) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

(٢) سورة البقرة آية ١٨٥ .

(٣) سورة الحج آية ٧٨ .

(٤) أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . **شرح**

البارى كتاب الاعتصام باب الاقتداء بسنن رسول الله ج ١٧ / ٢١

ط / الحلبية .

وبناء على ذلك لم تقع المشقة في التكليف إلا بقدر الشيء المعتاد الذي لا تنفك عنه حركة الانسان في حياته . وبعد تصور مفهوم التكليف لغة وشرعا يلزمنا بيان مفهوم التكليف عمليا فنقول :

إن الله عزوجل هو الخالق وهو المالك لكل شيء والمتصرف في جميع الأكوان والعوالم وهو الفعال لما يريد في خلقه . وقد فضل بعض خلقه على بعض وهو الذي خلق الانسان وفضله وكرمه وجعله خليفة في الأرض ، وكلفه بما أوحى إليه من الالزامات الشرعية * لا يسأل عما يفعل * (١) ، والانسان أمام ما هو مسئول عنه ومكلف به لا يمكن أن يتحرك فيه أو يوءد به حسب عقله الذي هو في حاجة الى ما يكتمل به . بل لا بد من تنظيم المسارات التي ينبغى أن تنطلق منها تلك المسئولية . أعني المجالات التي يدور عليها التكليف من حيث أنواعها . وبيان ذلك أن الانسان مكلف ومسئول بمقتضى أوامر ونواه من خلالها يستطيع تجنب ما قد يخل أو يوءد بسيره في الحياة إلى فساد إذا هو لم يتحرك وفق تلك الأوامر وتلك النواهي المنظمة لسلوكه والتي تكسبه الفضيلة وتجنبه الرذيلة . ومجريات تعلقات التكليف بفعل الانسان لا تخرج عن الاقتضاء (٢) أو التخيير بمعنى طلب الفعل طلبا جازما أو غير جازم

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٣ .

(٢) انظر المستصفي للغزالي ج ٦٥ / ط / الأولى بالأميرية ١٣٢٢ هـ .

وانظر روضة الناظر ونخبة المناظر بشرح عبد القادر الدمشقي

ج ٩٠ / ١ ط / السلفية مصر .

أو طلب الكف عن الفعل طلبا جازما أو غير جازم أو ما كان الانسان مخيرا فيه بين الفعل أو الترك وهذا ما قرره صاحب مراقي السعود بقوله: (١)

ثم الخطاب المقتضى للفعل جزما فيجاب لدى ذى النقل
وغيره الندب وما الترك طلب جزما فتحريم له الاثم انتسب
أولا مع الخصوص أولا مع ذا خلاف الاولى وكراهة خذا
لذاك والاباحة الخطاب فيه استوى الفعل والاجتناب
فلم تخرج دائرة التكليف عن هذه الأربع أعنى قسي الطلب أو الكف، أما
ما كان الانسان مخيرا فيه فليس هو ما ابتلى به الانسان اذ الكلفة فيه
غير ظاهرة . وهو المباح كالتخيير في خصال الكفارة أيها فعل المكلف
أجزأه . وإن كان الوجوب في مجموعها ، فتلك مدارات التكليف التي توصل
إليها علماء الاسلام فقعدوها بعد سيرهم لجميع مقاصد الشريعة الخاتمة
لما قبلها سواء كانت كلية أو جزئية ، فما كان الخطاب في العمل به
جازما بحيث يتحتم العمل به من جهة فعله وعدم تركه فهو واجب
فلا يجوز مخالفة الأمر فيه والا استحق صاحبه الذم واللامة من الأمر
المشروع وذلك كقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢) وكقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

(١) مراقي السعود بشرحه نشر البنود ج١ / ٢٨٠ .

(٢) سورة البقرة آية ٢١ .

وآتوا الزكاة * (١) وكقوله : * يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام
كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات * (٢) وكقوله
* ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا * (٣)

٢ - وما كان الخطاب فيه طلبا للترك بمعنى النهي عن

فعل ذلك الشيء نهيا قاطعا فهو الحرام وهو الذي يذم فاعله ويؤاخذ
على ارتكابه وذلك مثل النهي الوارد في الآية الكريمة * واعبدوا الله
ولا تشركوا به شيئا * (٤) والقول الكريم * ولا تقربوا الزنى إنه كان
فاحشة وساء سبيلا * (٥) وقوله عز قائلًا * ولا تقتلوا النفس التي حرم
الله إلا بالحق * (٦)

٣ - وما كان الخطاب فيه من حيث طلب فعله لكنه طلبا

لم يصل إلى درجة التحتم والایجاب فهو المندوب أو المستحب، وهو
الذي لا تلحق من لم يفعله مذمة أو ملامة وإنما فعله خير من تركه
وذلك كسائر النوافل مثل صلاة الضحى أو كتابة الدين الوارد في قوله
تعالى * يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه * (٧)

-
- (١) سورة البقرة آية ٤٣ .
(٢) سورة البقرة آية ١٨٣ .
(٣) سورة آل عمران آية ٩٧ .
(٤) سورة النساء آية ٣٦ .
(٥) سورة الاسراء آية ٣٢ .
(٦) سورة الاسراء آية ٣٣ والانعام آية ١٥١ .
(٧) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

وكالنجاح لمن لا يخاف على نفسه العنت وما أشبه ذلك ما هو مذكور في محاله .

٤ - وما كان الخطاب فيه واردا مورد النهي غير أنه لم ينف عن فعل ذلك الشيء نهيا قاطعا يستحق مرتكبه الذم والعقوبة على فعله بل تركه خيرا من فعله وذلك كاللعب الذي يقدر في المروءة أو الحلول في مواطن التهم وما أشبه ذلك .

هذه المواطن الأربعة هي التي يتحرك الانسان المكلف بمقتضاها بناء على مراعاة مصلحة الانسان وحظه في التحرك على ضوءها وأى خروج في سلوك الانسان عنها يؤدى الى ضياع موضوع التكليف وبالتالي سيخسر الانسان بإعراضه عن حدود التكليف ، وبذلك يفتح بابا ويعطي لجامسا للشيطان فيقوده إلى دار البوار . يقول عز وجل * ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإِنَّهُمْ لَيُصَدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * (١)

وتلك المعاني تنقلنا حتما إلى اعتقاد أن التكليف ضرورة لسلامة حياة الانسان في قيامه بالخلافة الأرضية في دار الفناء كما هو ضرورة أيضا لفوزه وفلاحه في دار الخلود والبقاء .

(١) سورة الزخرف آية ٣٦ .

التكليف ضرورة لسلامة العالم من الفساد :

الناس مختلفون في التفكير والنظر في الأشياء فما يراه هذا حسنا قد يراه الآخر قبيحا وبالعكس وإن كان الناس عموما متفقين على أن :
الأفعال منها النافع ومنها الضار ، وطبعاً يرون أن النافع حسن والضار قبيح إلا أنهم اختلفوا في تحديد ذلك بناءً على اختلافهم في التفكير المنبثق من أن إدراك الانسان أو علمه بالأشياء وعواقبها محدودان ،
يضاف لذلك ما يحيط به من دوافع تختلف من شخص لآخر ، إذ المشاهد والمحصل من التجربة تفاوت الناس في الذكاء والغباء ومعرفة السديد من الآراء وحدس عواقب الأمور ، فالعقول إذن ليست متساوية في إدراك الأشياء ومعرفة عواقبها ، فظاهرة الاختلاف بين الناس في ذلك سنة جارية ، وفطرة طبع عليها الانسان منذ خلقه الله ، هذا أولاً ، وثانياً :
المكلف يسعى طالبا حظه ما جبل عليه من تعاطي الشهوات ونييل اللذات ، وسد الحاجات لأنه خلق وله شهوة الطعام والشراب ، فلذا مسه الجوع والعطش تحرك لتلبية حاجاته ، من ذلك ما أمكنه وله شهوة النكاح ، فلذا فارت غريزته بحث عن الأسباب التي توصله إلى إشباعها ،
ومثل ذلك من ضرورة الانسان التي تدعوه إلى تحصيل المسكن والملبس ، وجميع وسائل الاستقرار التي نتج بسببها صراع في هذه الحياة ،
فلذا لم ينظم سلوك الناس في حياتهم الاجتماعية أصيبت حياة الانسان بالدمار والفناء .

ثالثا : الانسان المؤمن يتطلع إلى حياة أخرى وإلى دار أخرى يتاح فيها العدل ويحصل فيها عوض ما قد ضاع لأصحابه في الدنيا ، من نقص في الحقوق وتشويه للمنازل وذلك أن الانسان يرى كثيرا ما تهضم حقوق العباد وكثيرا ما يتعالى القوى على الضعيف فيغصبه حقه وبالتالي يرى العاقل أن ظاهرة اختلال الموازين في معاملة الناس بعضهم لبعض مستمرة دون أن يأخذ الضعيف حقه ، ودون أن يضرب على يد الظالم حتى يقتص منه ويؤخذ منه الحق لصاحبه ما يدل على أن هناك دارا تقام فيها الموازين القسط ويجازى فيها الانسان على عمله الذي أسلف في هذه الدنيا والتكليف بالايان بهذه الدار دافع قوى وحاجز للانسان من الوقوع فيما يترتب عليه فساد أو خلل في الحياة ، فلو ترك الانسان -والحالة هذه بحيث لا يستطيع العقل منفردا إدراك الصواب ما اختلفت فيه العقول - لما أمكن تنظيم مسالكه المادية والروحية ، وبالتالي لا يستطيع العقل إدراك الايمان بوجود دار الجزاء . والايمان عامل من العوامل التي تجعل الانسان يحسب لتحركاته في الحياة حسابا دقيقا ينعمه من الجور والظفیان ، كل ذلك لم يحصل لولا نعمة التكليف ، والا لاختلفت الموازين وأشرفت الحياة على النهاية ، فالتكليف من لدن الله العليم الخبير ضرورة لسلامة الحياة من الفساد . وعلى مرأزمان وجود البشرية فسي هذه الأرض لم ينقطع التكليف ، وحينما تصل البشرية الى درجة خلو مجتمعاتهم من امثال الأوامر الالهية بحيث لا يبقى من يقول لا اله الا الله ،

الكلمة التي بنيت عليها جميع التكاليف لحقت كلمة الله فيأمر بفناء العالم
ومن هنا فأى عمل يقوم به الانسان يجب أن يتصوره على النحو الذى وضعه
الشارع من تحريم أو تحليل ، لأن أى مخالفة أو إعراض عما وضعه الشارع
أو أى انحراف في القصد يخرج تحرك الانسان من دائرة العمل
التكليفي يؤدى ذلك الى الدمار والضياع بانحطاط الانسان الى دركة
الحيوانية الصرفة التي لا عقل لها ولا تفكير ولا تدبير فيصبح أخس من
العجماوات الضالة بل يكون أضل منها ، فمثلا لو لم يكن التكليف من
الخالق القدير زاجرا عن القتل لأدى ذلك الى الفناء . وعن الزنا
لأدى ذلك الى اختلاط الأنساب وفساد النسل وضياع الموارث ، وعن
الظلم لأدى ذلك الى الضرر في النفوس والأموال ، وعن كل ما هو رذيلة
كالبغي والحسد والكذب والبخل والنميمة والغش والخيانة . لو لم يكن
التكليف بخصوص ذلك للزم الاهمال ، ولفسد العالم كله ولتفحرت أوصاف
التكريم في الانسان كفضيلة الفهم بالعقل وغيرها من الفضائل التي خص
الله بها الانسان دون سائر الحيوانات وبذلك ينزل الى البهيمية كما
هو شاهد وواقع في المجتمعات التي أضربت صفحا عن معالم التشريع
الالهي ، وهذا يعطينا أن التكليف ضرورة لبقاء الانسان في منزلته التي
خلق عليها كما أنه يعطينا أن التشريع لا يصلح إلا من لدن العليم
الحكيم الذى خلق الانسان ويعلم ما يصلح له ويصلحه والذى تفرد
بالألوهية والربوبية ، كما أنه يعطينا أيضا أن الله يبتلي عباده من

خلال ما هو مصلحة لهم كما تبين لنا قبل قليل من أن التكليف مبني على أساس مصلحة الانسان بحيث ما كان منهيا عنه ثبت ضرره على مرتكبه وما كان واجبا ثبتت ضرورة نفعه للانسان هذا . ولما كان التكليف ضرورة لقيام حياة الانسان التي هي في الحقيقة وواقع الامر سلسلة من حلقات الابتلاء اقتضى البحث معرفة صفة الابتلاء به .

وذلك أن الانسان كانت خلقته مشتملة على جانبين : أحدهما شهواني أرضي ، والآخر روحاني متعلق بالملا الأعلى ، وعن طريقه يصل الانسان إلى كماله . فبالشهواني يستطيع الانسان المحافظة على ماديته المتعلقة ببدنه بواسطة الأكل والشرب وما يتبع ذلك من وسائل البقاء والاستمرار للنوع البشري . وبالجانب الروحي يستطيع المحافظة على الأخلق النافعة والموافقة لتكريم الانسان وهذا ما خلق الانسان له . وذلك من حيث طهارة النفس وتزكيتها ، والانسان بهذا المعنى صار واسطة بين كفتين . فرجحان إحداهما على الأخرى يلحق بالانسان الضرر ، ثم الانسان بخلقته تلك يصير بين الحكمة والعدل والسفه والجور وبين الهدى والضلال أو الايمان والكفر ، ومعنى أعم ، بين موالة الله وموالة الشيطان ، فمن راعى تلك الازدواجية من حيث الاستعداد لسلوك طريق الخير أو سلوك طريق الشرفميز بينهما وهو قادر على ذلك بما وهبه الله من وسائل يميز بها بين الخير والشر ، بأن توجهت نفسه الى الخير . وتجنبت الوقوع في الشر فسيكون من الشاكرين الناجين وإن لم يراع

تلك الازدواجية وغلب جانب الشر على جانب الخير فسيسقط في طريق الضلال وذلك يكون كافرا بنعمة الخالق حيث أعرض عما كلفه الله به ولم يجاهد نفسه في الفعل والترك انطلاقا من الايمان وما يتبعه ممن قيام بالعبادات ابتداءً. أو عدم الاتيان بها على وجهها والمحافظة عليها أو من جهات اجتناب المنهيات الفعلية والقولية بل انجر وراء الشهوات المستلذة ما منع الشارع من تعاطيه ككية كالخمر أو لكون تعاطيه يودي الى مخالفة أمر أو نهى كما اختلاط النساء بالرجال الا جانب عنهن . ذلكم التصور نجده في كتاب الله العزيز حيث يقول عز من قائل ﴿ إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميما بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ (١) ويقول عز من قائل ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاهما وقد خاب من دساها ﴾ (٢) فمن نشأة الانسان تلك ، أى كونه مزدوج النزعة ابتلى بالتشريع أو إن شئت فقل : ابتلى بتنظيم ازدواجيته تلك عن طريق ما يمنعه من شيء أو ايجاب شيء عليه فسواء كان ذلك الايجاب أو المنع الزاما متحتما أم لا وذلك بقدر ما فيهما من نفع للانسان أو ضرر . ثم إنه من الواجب معرفته أن الانسان بين ذلك المنع أو الايجاب يتحرك حسب اختياره فلم يجبر على

(١) سورة الانسان آية ٢ ، ٣ .

(٢) سورة الشمس آية ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .

أبي منهما بل أعطاه الله القدرة على التفكير والاختيار وتفضل عليه بالتوجيه الذي عن طريقه يستطيع تنمية فطرته فيما جبلت عليه من خير فلم يتركه الله لفطرته وعقله بل إضافة إلى العقل والحواس والقيم المنبثقة عن الضمائر من عليه بما يصل به إلى الكمال الانساني من رسل مبينين دلائل الايمان المحدد للموازن التي ينبغي للانسان أن يسير وفقها وأن لا يتخطاها إلى غيرها - أعني قواعد التكليف - ، وهذا يعطينا أن كل ما هو واجب لإصدار الحكم الصحيح أو اتخاذ الطريق المتجه إلى الحق والصواب هو في وسع كل فرد فيجب على كل إنسان مكلف أن يختار الأرض المفيدة ليستغلها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، انطلاقاً من مسؤوليته عن كل ما ابتلى به من خير أو شر أو أمر أو نهي والناس في ذلك فريقان :

أ - فريق أدركوا الحقائق ببصرهم وبصيرتهم فلا تصدر منهم إلا أفعال محمودة بالنظر لما كلفوا به من أمر أو نهي فكان تحركهم على منهج التكليف منبتا العشب والكلاء منتجا بأفعالهم ثمرات تعود عليهم بالنجاح والسعادة في الدارين ؛ لأنهم أدركوا الحق باختيارهم فقاوموا ما يعترضهم من انحراف بمجاهدة الرغبات الشهوانية فاختراروا طريق النجاة فيما ابتلوا به من أوامر ونواه كانت لهم العاقبة الحسنى بما وفوا به من تحمل الأمانة في التكليف وبالتالي حافظوا على ما تفضل الله به عليهم من تكريم في العالمين .

ب - فريق وقفوا عند حجب الشهوات فلم ينظروا أو يتحركوا
في ميزان التكليف ببصيرتهم (١) فكان تحركهم على أرض صلدا (٢) فلم
تثبت شيئا وكانت ثمرات أفعالهم مذمومة عائدة عليهم بالوبال والخسران
حيث عرضوا أفعالهم للخطايا والمعاصي بمخالفة ما كلفوا به من أوامر ونواه
وظلموا أنفسهم بجهلهم طريق الحق الذي تحمله فلم يهتدوا الى الصواب
فيما ابتلوا به من حمل الأمانة التي جعلها الله ضابط التكريم للانسان حينما
يوفى بما عاهد عليه الله وبما أخذ عليه من ميثاق . وبالجملة لم يتحفظوا
بضمايرهم من الزيغ عن الهدى الذي قدم إليهم ، يقول عزقائلا * ومن
يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ، إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض
والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما
جهولا * (٣) ويقول سبحانه * ولواتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات
والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون * (٤) ،
وقوله عز وجل * ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء
الذين لا يعلمون انهم لن يغفوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم
أولياء بعض والله ولي المتقين هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم
يقنون * (٥) فاتباع الهوى إذن بترك ما أمر الله به أو ارتكاب ما نهى

(١) وان كانوا يبصرون بأعينهم كما قال عز وجل * لهم قلوب لا يفقهون

بها ولهم أعين لا يبصرون بها *

(٢) أى صلبة ملساء ، القاموس باب الدال فصل الصاد مادة صلد ج ٢ / ٤٠٠ .

(٣) سورة الاحزاب آية ٧١ ، ٧٢ .

(٤) سورة المؤمن آية ٧١ .

(٥) سورة الجاثية آية ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

عنه هو تذل عما التزم به الانسان وتعهد القيام به في عالم الذر كما
أخبر سبحانه في قوله ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَىٰ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ
ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا
يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ
وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ وَكَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ
وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١﴾

والانسان بما قد تحمله من تكاليف تتفاوت مسئوليته تجاه تلك
التكاليف بحيث تصغر مرة وتعظم أخرى وذلك بقدر ما في الأمر من صلاح
وما في النهي من فساد لحياة الانسان عموما ، فمدار الأمر على مصالح
المكلفين وأساسها الايمان بالله الخالق ومدار المنهيات على ما يفسد
مقومات حياته أيضا وأخسها الكفر بالمنعم فالمخالفة إن تكثر أو تصغر
بناء على المصلحة أو المفسدة التي تعود منها ومن هنا لا نستطيع أن
نجعل حدا للكبيرة من المخالفات ، إن الاصرار على الصفات يجعلها
كبائر بل نفس الكبائر تتفاوت على قدر ما فيها من فطاعة المفسدة فكل
مخالفة تصل مفسدتها إلى درجة لحوق الدمار بالانسان من حيث الاعتقاد
في القلب والعمل بالجوارح هي في درجة العظم والفحش الذي يجعل
الجزاء كبيرا ، مثلا مخالفة الأمر بإقامة الصلاة ليست كمخالفة الأمر ببرد

السلام أو الأثم بل إنقاذ الهالك المتعين كالمخالفة بإزالة الأذى من الطريق
وفي النهي ارتكاب ذنب النظر إلى الأجنبية ليس كارتكاب الزنا وارتكاب
جريمة القمار ليس كارتكاب جريمة السرقة وهكذا . فالمخالفة توصف
بالكبر والفحش بناءً على المفاسد المترتبة عليها . يقول الله عز وجل :

﴿ الذين يجتنبون كبائر الأثم والفواحش إلا اللمم ﴾ (١)

قال العلامة الألويسي " وكبائره ما يكبر عقابه " والفواحش ما عظم
قبحه من الكبائر فعطفه على ما تقدم من عطف الخاص على العام ، واللمم
ما صغر من الذنوب وأصله ما قل قدره . (٢)

والإنسان في تحركه ذلك من حيث الامتثال أو المخالفة مختار

في إرادته الخير منها أو ما هو شر منها متسبب في الناتج عنها ، ومذمته

متعلقة بكسبه . صحيح أنه لا يمكن نكران الإرادة الكونية وهي إرادة عامة

قدرية متعلقة بكل الكائنات كما قال عز وجل ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ (٣)

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله

يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس

على الذين لا يؤمنون ﴾ (٤) فما يريد الله كائن لا محالة وما لم يرد

(١) سورة النجم آية ٣٢ .

(٢) روح المعاني ٩م / ٢٧ج / ٦١ نشر دار الفكر .

(٣) سورة هود آية ١٠٧ .

(٤) سورة الأنعام آية ١٢٥ .

فلا سبيل إلى إيجاده . هذه الارادة بالنسبة للأمر أو النهي لا ترفع
مسئولية الابتلاء بالتكليف عن الانسان ، بمعنى أن الانسان المكلف
مجبور على هذا الفعل أو على هذا الترك وانما القضية في هذه الارادة أن
الله المرید علم في سابق علمه أن هذا المكلف أو ذاك سيسلك الخير
بامثاله الأمر واجتنابه النواهي أو طريق الشريعة ذلك وهو مختار
في كل سلوكه بمشيئة الله فلا يكون من ذلك إلا ما أراد الله بناه على
سابق علمه ، فامثال الانسان أو عدمه هو بالنسبة لهذه الارادة العامة
بمثابة كشف - والله المثل الأعلى - لما سيفعله الانسان حرا مختارا حينما
يأتيه الأمر الشرعي وهو ما نسميه الارادة الشرعية التي يجب على المكلف
التحرك ضمن تعاليمها وهي المعنية في القول الكريم * يريد الله بكم
اليسر ولا يريد بكم العسر * (١) فالارادة في الآية الكريمة المأموره
فيها مطلوب امثاله والله راض عن فاعله ، والمنهي عنه مطلوب اجتنابه
فيجب تركه . وهذا المعنى هو الذي يقتضيه القول في تعريف التكليف (وهو
الزام ما فيه كلفة) ، لأن الله أمر العباد أن يفعلوا أو أن يتركوا وذلك
يستلزم وجوب إيقاع الأمور وعدم ايقاع المنهي عنه ، وهذا يعطينا أن
الارادة الكونية لها خاصية العموم المطلق بأن تشمل الارادة الشرعية
وتنفرد عنها بمعنى أن كل ارادة شرعية هي ارادة كونية وليس العكس

(١) سورة البقرة آية ١٨٥ .

فقد يأمر الله بما قد لا يقع كونا مثل عدم إيمان أبي لهب ، فعدم إيمانه
كشَف عنه القدر وهو مختار في ذلك فلم يمنع من الإيمان بفعل فاعل
بل هيئت له أسباب الإيمان ودواعيه من دلائل واضحة آمن على ضوئها
كثير من قومه الذين يعيشون في بيئته .

الخلاصة هي أننا نريد القول بأن الإنسان فيما هو مبتلى
به من تكليف مسئول عن اخفاقه أو نجاته . فمن أخفق فهو المتسبب
في ذلك إذ له ميزة الحرية في الاختيار . يقول الله عز وجل ﴿ لا إكراه
في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤء من بالله
فقد استمسك بالعمرة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ (١) يقول
صاحب الظلال بصدور حديثه عن الآية الكريمة " وفي هذا المبدأ يتجلى
تكريم الله للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره وترك أمره لنفسه فيما
(٢)
يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد وتحميله تبعه عمله وحساب نفسه" ،
ويقول العلامة الألوسي عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ بل الإنسان على نفسه
بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ (٣) "أي حجة بيّنة واضحة على نفسه شاهدة بما
صدر عنه من الأعمال السيئة" (٤)

-
- (١) سورة البقرة آية ٢٥٦ .
(٢) ج ١ / ٢٨٥ نشر دار العلم للطباعة جدة .
(٣) سورة القيامة آية ١٤ .
(٤) روح المعاني م ١٠ / ج ٢٩ / ص ١٧٧ نشر دار الفكر .

إذن فالذى يجب على المكلف النظر فيه والاهتمام به من حيث التفكير والعمل هو ما يأتيه من تعاليم تكليفية من أمر ونهي معتمدا على الدلائل الموصلة للحق ولا ينفعه التعليل في إخفاقه بالحقيقة الكونية ، ومن كان كذلك فقد سلك سبيل الشيطان حيث إنه احتج على عصيانه الأمر بالسجود لآدم عليه السلام بالقدر فأخطأ الطريق المنجسي ، ومثله من سلك سبيله في ذلك والحجة قائمة على من حاول التنصل من تبعات ما تسبب في نتيجته ، أو التنكرا لفعاله وذلكم ما جاء في القول الكريم * سيقسول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ، قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهدىكم أجمعين * (١) فالآية الكريمة تبين أن الله تبارك وتعالى أقام الحجة على الانسان حينما من على المكلفين بالعقول التي يفهمون بها ما يعرض عليهم ويدعون إليه وهم بذلك لديهم وسائل القدرة على اكتساب الخير أو ارتكاب الشر فقطعت عليهم جميع طرق الأعداء عما يقتربونه من مخالفات إن ما من شيء يصدر من المكلف امتثالا أو مخالفة إنما هو باختياره ولم يكن مضطرا أبدا والا لو كان هناك اضطرار لكان من الحكمة والعدل أن يضطر جميع المدعويين للهداية ولكن شاء الله أن يوفق للهداية الذين اختاروا سلك طريق الحق وانتفعوا بالدليل ، كما شاء سبحانه خذلان الذين صموا آذانهم وأبصارهم عن الحق وانصرفوا الى

طريق الضلال يحض اختيارهم وارانتهم . وهذا مشاهد ومحسوس فيما نراه جاريا في ساحة الايمان أو دائرة الدعوة . وذلك يوضح لنا أن هناك ربطا بين الفضيلة والمثوبة ، وبين الرذيلة والعقوبة ، وهناك أبرار وهناك أشرار . وهناك مؤمن من أو كافر كل حسب اختياره . يوء يد ما قلته القول الكريم الذى يحذر الانسان من الوقوع في فتنة ابليس الذى من أطاعه حقت عليه الضلالة * يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبوكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يريكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون * (١) وقوله تعالى * الذين كفروا صدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون * (٢) وقوله تعالى * والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم * (٣) وقوله عز وجل * يأبها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم * (٤)

(١) سورة الاعراف آية ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) سورة النحل آية ٨٨ .

(٣) سورة المائدة آية ٣٨ .

(٤) سورة الانفال آية ٢٩ .

وفير ذلك من الآيات العظيمة التي تجعل الانسان أمام واقعته في تبعات ما يكسبه من أفعال مختارا في اقترافها ان وقوع الانسان في المعصية بتوليه الشيطان يجعل المسئولية عليه كاملة . وكون الله يعلم ذلك في سابق القدر لا يؤثر في المعلوم وما دام الانسان هو الذي اختار تولية الشيطان ولم يفكر في تمييز الحق من الباطل فهو المسئول عن وقوعه في الخسران ثم بعد هذا لا يمكن التسوية بين أمرين متباينين ومتضادين: الحق والباطل . يقول عز وجل ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ (١) وقوله تعالى ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم هم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (٢) إذن حجة الله قائمة على المخالفين الذين خسروا فلم يشكروا بالمحافظة على ما كلفوا به من أمانة الطاعة والانقياد وبالتالي لم يحافظوا على نقاب فطرتهم التي فطروا عليها ، يقول أبو سعيد عبد الله البضاوي في تفسيره للآية الكريمة ﴿ يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ من النور الذي منحوه بالفطرة إلى الكفر وفساد الاستعداد والانهماك في الشهوات . (٣)

(١) سورة الجاثية آية ٢١ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٧ .

(٣) أنوار التنزيل بحاشية الشهاب ج ٢ / ٣٣٦ ، نشر دار صادر بيروت .

وبعد هذا يخطر على بال المفكر الناظر في سلسلة الخلق والتدبير
سواء الـ عما إذا كانت هناك مصالح ظهرت لنا من خلال ابتلاء الانسان
بالتكليف ؟ نقول : نعم وان كان في بادىء الامر يجب على الانسان
المخلوق أن لا يجادل في أن لله الحكمة البالغة في كل أفعاله ، ومهما
جادل الانسان وركبها السفسة فلا يسعه الا أن يستسلم مرغما ويعتقد
أن الله الحكيم كلف الانسان لمصالح تعود عليه بالخير والنفع ولذلك
إذا أحسن العمل الذي يظهره الابتلاء ، ولا يتم التمييز بين الحسن والقبيح
من الأعمال الا عن طريق التكليف ، وهذه مصلحة كلية يدخل تحتها
جميع ما سنتطرق اليه من مصالح جزئية ، يبين ذلك أن الانسان مطور
على الاتجاه الى معبود يخضع له ليكمل ما يحس به من نقص - وهذا شيء
اتفق عليه جميع علماء الكلام والفقهاء وحتى المفكرون على مر العصور - إن
العبادة ضرورية في استقرار الانسان ، لأن بها يحصل كمال نفسه ، وسعادته
تم بسد ذلك النقص النفساني . أضف الى ذلك أن الانسان في حاجة
الى ما يطمئنه على مآله في الحياة الآبدية بعد هذه الحياة التي ثبتت
انقضاؤها قطعاً بالحس المشاهد . من هنا فعيننا كلف الله الانسان وإنما
كلفه للأخذ بيده الى طريق يصيب فيه مبتغاه في ادراك الاحسان باتجاهه
الى المعبود الحق . وذلك أن الله وحده العليم بطبائع الناس وما يستكن
في نفوسهم هو وحده أيضاً الذي يشرع للانسان ما يوافق حاجاته فيدفع
عنه بالتكليف ما قد يقع فيه من مضار لولاه أى التكليف ما سلم من أن

يتدنس بها سواء كانت تلك المضار دنيوية أو دينية .

أولا : إن من التكليف تحريم أخذ مال الغير بغير حق كالسرقة .

فلو ثبتت السرقة بشروطها وجب قطع يد السارق وذلك ليرتدع أصحاب النفوس المريضة عن تلك الفعلة والاسادات الفوضى وانتشر الرعب وبالتالي انعدم الأمان الذى لولاه لم يبق للحياة معنى ، ان ضياع الأموال التي هي أساس في حركة الانسان يكون سببا في انهيار جميع مقومات الحياة فمن أجل صيانة تلك المقومات جاء الحكم الصارم في حد السرقة بقطع اليد في قوله تعالى * والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم * (١)

ثانيا : التكليف الواردة بخصوص حفظ النفوس ، فحد القصاص

بقتل القاتل عمدا عدوانا ، فلولا القصاص لانعدمت الحياة ولحق الفناء ولظهر الشر على الخير ، يقول العليم الحكيم * ولكم في القصاص حياة يأولي الألباب لعلكم تتقون * (٢)

أما بخصوص الأمور الواردة في تحريم ما يتلف العقل كالسكر والتخدير ، لولا النهي عن ذلك واقامة الحد والتعزير لاختلت حياة الانسان بما يصيبها من تدمير ولخلت من المحبة والوفاق كما قال عزوجل * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون * (٣)

(١) سورة المائدة آية ٣٨ .

(٢) سورة البقرة آية ١٧٩ .

(٣) سورة المائدة آية ٩١ .

ثالثا : التكليف الواردة بشأن الابضاع كتحريم فاحشة الزنا الذى اذا انتشر بين قوم هدد كيانهم باختلاط انسابهم وتضييع حقوق الوارثين منهم وبالتالي يفتك بأجسامهم فتكا مبرما لا حل له الا بالرجوع لقواعد التكليف ، يقول عز وجل * ولا تقربوا الزنا فإنه كان فاحشة وساء سبيلا * (١)

رابعا : التكليف الواردة بخصوص تهذيب النفوس ورياضتها كالصوم الذى لا يخفى - على من جربه من الأمم - ما فيه من نقاء للروح واتصال قوى بالخالق يجعل الانسان متعاليا عن الماديات معرضا بذلك عن المحرمات ويجلب صاحبه إلى طريق النور ومشكاة الصلاح كما قال عز وجل * يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * (٢) وقوله صلى الله عليه وسلم " الصيام جنة " (٣) نقل صاحب الفتح (٤) عن ابن العربي قوله : إنما كان الصوم جنة من النار لأنه إسك عن الشهوات . وأضاف يقول : والحاصل أنه اذا كف نفسه عن الشهوات في الدنيا كان ساترا له من النار في الآخرة . وهكذا كل أمر أو نهى إلا وهو وارد لمصلحة الانسان بحفظ ما هو في حاجة إليه

(١) سورة الاسراء آية ٣٢ .

(٢) سورة البقرة آية ١٨٣ .

(٣) أخرجه البخارى من حديث ابي هريرة، كتاب الصيام منه فتح البارى

باب فضل الصوم ج ٤ / ١٠٣ .

والجنة : بضم الجيم ، الوقاية . كتاب النهاية لابن الأثير -

ج ١ / ٣٠٨ ، نشر دار الفكر .

(٤) ج ٤ / ص ١٠٤ كتاب فتح البارى .

لئلا تختل حياته . وذلك الحفظ جعله علماء الشريعة بعد الاستقرار
لمقاصد الشريعة منوطا بضرورات خمس اتفق عليها علماء الاسلام من
حيث إن التكليف مقصود بها فمثلا لحفظ أركان الدين شرع الجهاد
عن طريق الوجوب ، ولولا الجهاد ما قامت للدين قائمة وهذا المعنى
نجده في القول الكريم * قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر
ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا
الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون * (١) وقوله عز وجل
* أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * (٢) ،
والدين شامل لجميع قواعد الاسلام من عبادات كالصلاة والزكاة ، وأعمال
مبنية على حظوظ المكلفين ترجع إلى المحافظة على بقاء الانسان من خلال
حفظ النفس والعقل والنسل والمال وجميع التكاليف مدارها على هذه
القضايا التي هي في الحقيقة جوهر قوام حياة الانسان ومركز تحركه
فلو عدم الانسان لفقدت ظاهرة التدين ، ومثل ذلك قل في فقدان العقل
والنسل . واختلاف أمور المال يترتب عليه هدم معيار وحساب المبادلات
التي هي عنصر أساسي في استقرار الحياة على هذه الأرض وبذلك نعلم
أن التكليف هو محافظة على قيام قواعد هذه الضرورات ، بدفع ما قد
يتسبب في اختلالها ، وبعد هذا فامثال الانسان لا وأمر التكليف يظهر

(١) سورة التوبة آية ٢٩ .

(٢) سورة الحج آية ٣٩ .

شكر السنعم على العباد بالانقياد إليه والطاعة لأوامره حتى ولو لم يعلم المكلف الحكمة في بعض ما كلف به ، وذلك جلي في قوله عز وجل
* كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فانكروني أذكركم واشكروا لسي ولا تكفرون * (١) وقوله تعالى في ختام بيان كفارة اليمين * كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تشكرون * (٢) فالشكر إذ ان يمكن التعبير عن معناه بأنه يتمثل في تحمل النفس المشقة المعتادة التي في التكليف وذلك بتجنب القبائح وفعل المحاسن التي يترتب عليها العقاب أو الثواب ، وهو ما نعنيه بفعل الواجبات وترك المحرمات اللاتي جاء بها التشريع من عند الله بإرسال الرسل ، ان من نعم الله على الانسان أنه لا يؤخذ من عباده ما لم يبلغه من تكاليف لقوله عز وجل * وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا * (٣) ونفي التعذيب في الآية الكريمة قبل إرسال الرسل دليل على عدم الوجوب بالعقل فحسب إذ هو ليس حجة مفردا . صحيح أن الانسان العاقل مضطر للبحث عن أصله وعن خلقه وأوجده بمقتضى الفطرة ، وصحيح أن على العقل أن ينظر ويفكر فيما يدعو إليه الرسل المودون بالمعجزات ، لكن ليس في استطاعته إصابة الحق المنشود

(١) سورة البقرة آية ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢) سورة المائدة آية ٨٩ .

(٣) سورة الاسراء آية ١٥ .

كاملا ، وينا عليه فلا يجب التكليف بالعقل فقط خلافا لأهل الاعتزال حيث
قد نحا الزمخشري - في تفسيره الكشاف عند الآية الكريمة بما يشير مع تكلف
بمحاولة البعد عن المعنى الصريح للآية الكريمة - الى جعل العقل
ملزما للإنسان وموجبا للتكليف ومخالفه يوجب عليه العذاب الى آخر
ما يستشف من تفسيره للآية الكريمة (١) وقد تعقبه صاحب الانصاف
بما فيه الكفاية حيث قال في آخر تعقيبه ما نصه : " نعم العقل عمدة في
حصول المعرفة لا في وجوبها وبين الحصول والوجوب بون بعيد والله
الموفق " (٢)

وفي هذا الشأن يقول البيضاوي في معنى الآية : " يبين الحجج
ويشهد الشرائع فيلزمهم الحجة وفيه دليل على أن لا وجوب قبل الشرع " (٣)
ويقول أيضا الألويسي في معناها " بيان للعناية الربانية اثر بيان اختصاص
آثار الهداية والضلال بأصحابها وعدم حرمان المهتدي من ثمرات هدايته
وعدم مواخذة النفس بجناية غيرها أي وما صح وما استقام بل استحال
في سنتنا المبنية على الحكم البالغة أو ما كان في حكمنا الماضي وقضائنا

-
- (١) كإيراده سواء لا معناه أن الحجة لازمة للناس وقائمة عليهم ماداموا
يعقلون فجعل العقل ملزما لهم حيث يستطيعون به ادراك معرفة
الله ولذلك ما فائدة ارسال الرسل ؟ وأجاب بما معناه : انما هم
- أي الرسل - منبهين وموقظين لمن غفل عن النظر في الأدلة .
(٢) ج ٢ / ٣٥٤ نشر دار المعرفة بيروت وانظر الأحكام لابن حزم
ج ١ / ص ٤٧ الى ص ٥٤ نشر مطبعة العاصمة ، القاهرة
(٣) أنوار التنزيل ج ٦ / ١٧ ، نشر دار صادر بيروت .

السابق أن نعذب أحدا بنوع مّا من العذاب دنيويا كان أو آخرويا على فعل شيء أو ترك شيء أصليا كان أو فرعيا - الى أن قال ، بعد قوله تعالى ﴿ حتى نبعث رسولا ﴾ قال : يهدى الى الحق ويردع عن الضلال ويقيم الحجج ويمهد الشرائع^(١) وما ذهب اليه البيضاوى واللويسى من أن الوجوب بالشرع لا بالعقل هو الذى يوافق المنطق السليم والتفكير السديد نظرا لأن الوجوب بالعقل لا يستقيم عقلا وذلك أن العقل اذا أوجب شيئا إما أن يوجب لمنفعة أم لا ، فان كان لمنفعة لا يخلو إما أن ترجع للمشرع وهو الله سبحانه أو للمكلف بفتح اللام .

فإيجابه لغير منفعة ولا لمقصد يرجى من فعله عبث ، والعبث

عند العقلاء مذموم إذ المدرك من الوجوب إما الثواب أو العقاب . ولا مجال للعقل في ادراك ذلك فبطل كونه لغير منفعة وبقي لدينا أنه - أى الايجاب - لمنفعة وطبعي لا بد أن يكون هناك منتفع ، هذا أولا . وثانيا : - على القول بأنها ترجع - أى المنفعة - الى المنعم يوقعنا ذلك فيما هو محال بدليل أن المقصود بالمنفعة إما جلب مصلحة أو دفع مضرة والخالق المنعم ثبت له الكمال في كل شيء ، فله الكمال في الصفات والأفعال وله الغنى المطلق وما دام الأمر كذلك فهو منزّه عن إيصال منفعة له مما يقوم به الانسان من مظاهر الشكر سواء قلنا الايجاب بالعقل - وقد بطل قطعا - أو بالشرع وهو الحق الذى لا مربة فيه فثبت بذلك

(١) روح المعاني ٥م / ١٥٥ / ص ٣٦ نشر دار الفكر بيروت .

أن المنفعة ترجع الى المكلف لكن عن طريق الشرع بدليل عجز العقل
عن إدراك ما يترتب على تعبه من منفعة، إلا بالسمع وإلا فكيف يتعب
نفسه في شيء لا نصيب له فيه في الدنيا والآخرة. (١) بعد هذا
تحصل لدينا أن من الحكمة بالتكليف اظهار شكر المنعم بما من به على
المكلف من نعمة التشريع كما قال عز وجل * لقد من الله على المؤمنين
إن بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم
الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين وآخرين منهم لما
يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم * (٢) ، إذن عن طريق التكليف يتم
تطهير الانسان نفسه ووصلها بالنور الرباني باستفراق الجوارح في
الأعمال المأمور بها والاعراض عن الأعمال المنهي عنها ، كل ذلك يوجب
شكر المنعم به . والشكر هذا يظهر لنا أن التكليف يخرج الانسان من
اتباع الهوى الذى لو ترك واياها لآدى به الى الخسران ، يقول سبحانه
* ولواتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن * (٣) ،
ويقول عز من قائل * أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله
واتبعوا أهواءهم * (٤) . هذه الآيات وغيرها من أمثالها : تدل على

(١) المنهاج بشرح الأسنوى ج١/١١٨ ، ط/ الصبيحي مصر ،

والموافقات ج٢/١٧٢ نشر دار المعرفة بيروت .

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٤ .

(٣) سورة المؤمن آية ٧١ .

(٤) سورة محمد آية ١٤ .

أن ترك الانسان متبعاً هواه يؤدى - بالتجربة - الى الهلاك والدمار
والى تهقر المجتمعات وانحطاطها من الفضيلة الى الرذيلة ولذلك
كانت قواعد التكليف هي المانعة من الاسترسال في اتباع الهوى ، وهذا
لا ينافي أن الله وضع التكليف موافقة لمصالح الانسان المكلف بل الشريعة
كلها مبنية على تحصيل حظوظ المكلفين لكن لا على مقتضيات شهواتهم ،
لأن ذلك يلزم منه فقدان مصالح الانسان وحظوظه بل من مصلحة
الانسان تحديد ما يهواه ويوجب هذا أن الأهواء في مقتضياتها تختلف
بناءً على اختلاف الأوضاع واختلاف الناس في الصفات والطباع . وهذا
يحتم وجود مصدر ينظم مسارات الناس في حياتهم لسلامتها وليس هو
الا التكليف الالهي ، وحينما خرج الناس عن قواعد التكليف وشرعوا حسب
أهوائهم الجماعية أو الفردية وقعوا فيها لا مخرج منه من الفساد وفقدان
السعادة الا بتطبيق قواعد التكليف الالهي ، لأن اتباع الهوى يجعل
الحياة غير متوازنة ما يفقد معه الانسان الراحة والاطمئنان وبالتالي
يستبد الأتقواء بمقدرات الحياة ولا مكان للضعيف بينهم ولذلك لا ترى
من يحارب الانضمام تحت قواعد التكليف الالهي الا الذين يخشون على
فقدان ما يلبسون به شهواتهم العارمة فتراهم يأنفون من كل تشريع
يخالف شهواتهم وأهوائهم الى درجة أن ينكروا الايمان وهو القاعدة
الكبرى لباقي مقتضيات التكليف، يقول عز وجل ﴿ إنما كان قول المؤمنين
إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك

(١) هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقنه فأولئك هم الفائزون ﴿١﴾
وقوله سبحانه ﴿٢﴾ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء
الذين لا يعلمون إنهم لن يغفوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين
بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين ﴿٣﴾ وهذا يعطينا مصلحة
إخراج الإنسان - من خلال التكليف - عن اتباع أهواءه الذي يؤدى به
إلى الانتكاس. وسواء في ذلك عدم الخضوع لجميع قواعد التكليف البتة
أو العمل ببعض ذلك وترك بعضه الآخر أو العمل بتشريعات قد
نسخت حيث انتهت مهمتها حسب ظروف الأمم والزمن وذلك النسخ
لا يكون إلا في الجزئيات والأشرائع كلها متفقة على كليات الإيمان التي
تزكو بها نفس الإنسان كما قال عز وجل ﴿٤﴾ شرع لكم من الدين ما وصى به
نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا
الدين ولا تتفرقوا فيه ﴿٥﴾ إن كل ما هو ضرورة في حياة الإنسان قد
روعي في كل ملة وإن اختلفت وجوهه وصفاته بحسب اختلاف الأعصار
والأشخاص مثل الدواء الذى يعالج به الداء فإن النافع منه في زمان
قد يضر في زمان آخر والدواء الذى يزيل علة شخص قد لا يزيل علة
آخر، فكذلك التكليف الذى طرأ عليه النسخ يكون أصح في المعاش

(١) سورة النور آية ٥١، ٥٢.

(٢) سورة الجاثية آية ١٨، ١٩.

(٣) سورة الشورى آية ١٣.

والمعاد ما لوبقى العمل به . وهكذا إلى أن ختم الله الشرائع بما هو شامل وصالح لكل العصور وبما هو مرن وقابل لكل تقلبات حياة الانسان وذلك أن الشريعة الخاتمة جاءت بالكليات السابقة والجزئيات التي لا تتغير بتغير الزمن والانسان فهيمت على جميع الشرائع ونسختها وان كانت الاصول التي في الشرائع السابقة موجودة في الشريعة المحمدية الا أن اتباعها يلزم بأمر جديد لا مما سبق في الأولى . نجد ذلك صريحا في القول الكريم * وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمُ عَاجِلُونَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَاوِلُونَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ * (١) فالآية تبين أن اختلاف الشرائع كان للابتلاء وذلك حتى يظهر من يذعن معتقدا أن ما جد من الشرائع هو الأمثل وهو الأرفع في المعاش والمعاد فيخضع للأمر الجديد عاملا به مصدقا صادقا في طاعته . ومن يتبع هواه وما تبتغيه نفسه من شهوات فيزيغ بذلك عن الحق . كما أن الآية الكريمة تبين أن التكليف قد يكون لمحض الابتلاء مثل الأمر الوارد في شأن جنود طالوت حيث أمروا بأن لا يشربوا من النهر إلا ما حدر لهم وهو غرفة واحدة وهم في أشد القيظ والظما ، فليس هناك من حـظ للمكلف في هذا الأمر إلا إظهار من يصبر ويتحمل ويصدق فيما كلف به ومن لا يصبر فيظهر كذبه

وحينئذ لا يصلح لتحمل مشقة الجهاد بالقتال ، يقول عز وجل * فلما
فصل طالوت بالجنود قال : إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس
مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا
منهم * (١) . ومن هذا القبيل أيضا ما ابتلى به بنو اسرائيل من أوامر كانوا
دائما يسلكون سبيل التحايل فيها على كيفية العمل بها وبالتالي فهم
متشككون في أن الله أمر بها . كما صنع أصحاب السبت حينما اختاروا تخصيصه
للعبادة فامتنعهم الله فيه . فأمرهم بترك العمل وحرم عليهم فيه صيد الحيتان ،
فكانت الحيتان تتكاثر يوم السبت على شاطئ القرية وتقل في غيره ، فحذروا
حيضا بجانب البحر ومدوا إليها جداول ، فكان الحوت يتساقط فيها
ولا يستطيع الخروج منها لعرقها فيأتون هم يوم الأحد ويصطادونها
فاعتدوا بمخالفة أمر تحريم صيدها فسخم الله قرده كما أخبر سبحانه
* ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين
فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين * (٢) وفي
قوله تعالى * وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحراذ يعدون في
السبت ان تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم
كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون * (٣) . في هذه الآية الكريمة تحذير

(١) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

(٢) سورة البقرة آية ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٦٣ .

لليهود الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا ينكرون ما يجدونه في التوراة من صفات دالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم فيما يخبر به ومن ذلك الاخبار بما كانوا يخفونه من قصة أصحاب السبت الذين تجاوزوا حدود الله بالصيد يوم السبت الذي كانت الحيتان تدنو فيه وتظهر على وجه الماء (١) ، فلما استمرارهم على التمرد والعناد يسر الله ظهور الحيتان وسخرها لتأتي في اليوم الذي اختاروه للانقطاع عن العمل . فتحايلوا بما هو ظاهر المخالفة لأمر الله فحق عليهم العذاب ، وكما فعلوا أيضا في الشحوم التي حرمها الله عليهم بسبب بغيهم كما قال تعالى ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ومدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربوا وقد نهوا عنه وأكسبهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما ﴾ (٢) ، فلما حرم عليهم أكلها أذابوها وباعوها وأكلوا ثمنها . فأخبر سبحانه بذلك في قوله ﴿ ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإننا لصادقون ﴾ (٣) وفيما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم حيث قال " قاتل الله يهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها " (٤) . وكما فعل أصحاب البقرة بتشكيكهم

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ / ٢٥٧ .

(٢) سورة النساء آية ١٦٠ ، ١٦١ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٤٦ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ، كتاب البيوع

باب لا يذاب شحم الميتة . انظر فتح الباري ج٤ / ٤١٤ .

في ذبحها واتهامهم نبي الله موسى بالاستهزاء فسلكوا سبيل الالتواء والتعنت بالسوء ال عن حقيقة البقرة بطلبهم تعيين صفتها . وكان يكفيهم أن يذبحوا أى بقرة ، لأن الأمر بذلك جاء شاملا لأى بقرة كما نقل عن ابن عباس قوله :
" لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم " (١)
وبدليل أنه بعد سوء الهم الأول يأتيهم الأمر بعدم سوء ال ، المفهوم من قوله تعالى ﴿ فافعلوا ما تومرون ﴾ أى من ذبح البقرة ولا تكرروا سوء ال واطرحوا التعنت جانبا . ولذلك ما كادوا يذبحونها ؛ لأن غرضهم من الأسئلة التعنت وعدم الاستجابة للأمر الالهي كما قال عز وجل ﴿ وإن قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا ما لنا أتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ، قال إنه يقول : إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تومرون ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تشير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ (٢)

(١) أخرجه ابن جرير من رواية سعيد بن جبير عفاً ابن عباس بسند صححه ابن كثير في تفسيره . انظر جامع البيان للطبرى ج١/٣٤٧ ط/ الثانية الحلبيية . وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١/١١٠ نشر دار التراث القاهرة .
(٢) سورة البقرة آية ٦٧ الى ٧١ .

وبصدد بيان ما ينبغي للمكلف الانشغال به حينما يوء مر بشيء من عند الله يقول صلى الله عليه وسلم " دعوني ما تركتكم فانما أهلك من كان قبلكم سوءالهم واختلافهم على أنبيائهم فاذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وانا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم " (١) فالذى ينبغي للمكلف الاتجاه اليه هو الفعل لما يوء مر به والترك لما ينهى عنه بحيث يبذل وسعه في الطاعة والامتثال في كل من النواهي والأوامر؛ لأن ذلك هو الأهم من الاشتغال بالسوء ال والافتراض لما لم يقع ولم يوء مر به . ولذلك لما نسخ الله استقبال بيت المقدس في الصلاة وأمر بالتوجه الى الكعبة المشرفة ارتد من كان قد آمن من اليهود وأرجف المنافقون كعادتهم بينهم الموءنون الذين آمنوا بصدق اتبعوا أمر الله فتوجهوا حيث أمرهم من غير شك ولا ريب ، كما جاء في الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال " بينا الناس بقاء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم الى الشام فاستداروا الى الكعبة " (٢)

-
- (١) أخرجه البخارى في صحيحه من حديث أبي هريرة . كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . رفتح البارى ج ١٣ / ص ٢٥١ .
- (٢) أخرجه البخارى في صحيحه . كتاب الصلاة باب ما جاء في القبلة . رفتح البارى ج ١ / ص ٥٠٦ .

وذلك قوله تعالى * وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم
من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وان كانت لكبيرة الا على الذين
هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم * (١)
فالمراد أن الله جعل التوجه أولا الى بيت المقدس ثم نسخه
بالتوجه الى الكعبة اختبارا للناس ليظهر من يتبع الرسول ومن يعرض وينفر
عنه متكبيرا منقلبا على عقبيه (٢) . وهذا المعنى أيضا واضح في الأمر
الوارد في تحريم الصيد على المحرمين مع كثرة غيانه الصيد إلى أماكنهم
بحيث يستطيعون تناوله بالأيد فابتلاهم الله اظهارا للذين يلتزمون
بالتكليف غيبا فيربطون جأشهم ويتحملون ويمتثلون ويعتصمون بالصبر
عما هم في حاجة إليه إذ من لا يملك نفسه ويصبر في مثل هذه المواقف
لا يستطيع التحمل فيما سوف يلاقيه من مواقف أخرى تكون النفس أشد مهولا
اليها وذلك ما أمر به سبحانه في قوله : * يا أيها الذين آمنوا ليبولنكم
الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب ،
فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم * (٣)

هذه الآية الكريمة تدل على أن الله تعالى يبتلى عباده بالأمر
ليتميز الخائف من عقابه الأخرى وهو غائب مترقب لقوة إيمانه فلا يتعرض
للصيد ممن لا يخافه لضعف إيمانه فيقدم عليه فيظهر من يطيع الله في
السروالعلن بامتثال شرعه وعدم مخالفة أمره . ومن لا يطيعه ولا يمتثل

شريعته بأن يخالف أمره . اللهم وفقنا لطاعتك .

- (١) سورة البقرة آية ١٤٣ .
(٢) التفسير الكبير للرازي ٢م / ٤ج / ١١٤ نشر دار الفكر . وانظر
تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ / ١٩١ نشر دار التراث القاهرة .
(٣) سورة المائدة آية ٩٤ .

الفصل الثالث

الابتلاء بالمال والولد

ظهر لنا بجلاء من خلال ما تقرر في الفصلين السابقين أن
الانسان مبتلى بالخير والشر ، وأن الخير كل محبوب ، والشر كل مكروه ،
وأن الخير اذا لم يسلك به مسلك الحق قد ينقلب شرا وأن الانسان قد
وضع أمام الخير والشر سواءً وذلك كي يتميز كل فرد من خلال ما أوجب
الله من تكاليف حددت مسار الانسان فيما تشتهيه نفسه كما ألزمت الانسان
بأمور قد لا يعرف العلة في الالتزام بها وذلك حتى يظهر من يتبع طريق
الحق ومن يتجه الى سبل الباطل بأن يسلك الطريق المادى فقط وحينئذ
يخسر نفسه وأدركنا أن الانسان في حياته الدنيا اما أن يواجه نعمًا
وخيرات واما أن يواجه نقمًا وشرورًا . وضروب الابتلاء بهما متشعبة وكثيرة
إلا أن أعظمها فتنة وأخطرها موقفًا الابتلاء بالمال ثم بالولد ولذلك قدم
ذكر المال في قوله عز وجل ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ فقدم
المال على فتنة الأولاد لعظم فتنته وكثرة غوائله . يقول الصادق
المصدوق صلى الله عليه وسلم "إن لكل أمة فتنة ، وفتنة أمتي المال . (١)
والمال فتنة سواءً في توفره لدى الانسان وهو ما نصفه بالفنى أو فقده
لديه وهو ما نصفه بالفقر فما مأخذ كل منهما ؟

(١) أخرجه الترمذى بسنده من حديث عياض . والحاكم أيضاً
من حديثه . وقال الترمذى : حسن صحيح غريب . وقال
الحاكم : صحيح الاسناد وأقره الذهبي . تحفة الأحوزى
الزهد ج ٦٣٠ / ٦٤ ، المستدرک ج ٤ / ص ٣١٨ الرقاق .

أ - الفنى : جاء في مقاييس اللغة " الفين والنون
والحرف المعتل أصلان صحيحان أحدهما يدل على الكفاية والآخر
صوت . فالأول الفنى في المال يقال غنى غنى . والغناء بفتح الفين
مع المد الكفاية ، يقال : لا يغنى فلان غناء فلان أى لا يكفي كفايته .
(١)
والراغب رحمه الله في مفرداته جعل معاني الفنى على ثلاثة
أنواع :

- ١ - عدم الحاجة وليس ذلك إلا لله تعالى وهو المذكور في قوله
تعالى ﴿ إن الله هو الغني الحميد ﴾ (٢) ﴿ يأيتها الناس أنتم الفقراء
إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾ . (٣)
- ٢ - قلة الحاجة وهو المشار إليه بقوله تعالى ﴿ ووجدك عائلاً
فأغنى ﴾ (٤) وذلك هو المذكور في قوله عليه الصلاة والسلام " الفنى
غنى النفس " . (٥)
- ٣ - كثرة القنيات (٦) بحسب ضرب الناس كقوله تعالى ﴿ ومن
كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾ (٧) وكقوله تعالى
﴿ يحسبهم الجاهل أغنياً من التعفف ﴾ (٨) أى لهم غنى النفس

-
- (١) ج ٣٩٧/٤ مادة غنى ، ط/ الثانية .
 - (٢) سورة لقمان آية ٢٦ .
 - (٣) سورة فاطر آية ١٥ .
 - (٤) سورة الضحى آية ١١ .
 - (٥) أخرجه البخارى في الرقاق من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال : " ليس الفنى عن كثرة العرض ولكن الفنى غنى
النفس " ج ٢٧١/١١١ فتح البارى .
 - (٦) أى المال الذى لم يتخذ للتجارة . المصباح المنير ج ٢٢٦/٢ دار الفكر .
 - (٧) سورة النساء آية ٦٠ .
 - (٨) سورة البقرة آية ٢٧٣ .

ويحسبهم الجاهل أن لهم القنيات لما يرون فيهم من التعفف والتلطف .
ب - الفقر معناه كما جاء في مقاييس اللغة والمفردات أيضا
ففي الأول يقول: (١) الفاء والقاف والراء أصل صحيح يدل على انفراج
في شيء من عضو أو غير ذلك . ومن ذلك الفقار للظهر الواحدة فقارة
سميت للفصول التي بينها . والفقير المكسور فقار الظهر وقال أهل اللغة
منه اشتق اسم الفقير ، وكأنه مكسور فقار الظهر من زلة ومسكنة ، ومن
ذلك فقرتهم الفاقة ، وهي الداهية كأنها كاسرة لفقار الظهر . وبعض
أهل العلم يقولون : الفقير الذي له بلفة من عيش ويحتج بقوله :

(٢) أما الفقير الذي كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سيد

قال : فجعل له حلوبة وجعلها وفقا لعياله أي قوتا لا فضل فيه .

وفي الثاني (٣) للفقر أربعة معان :

١ - وجود الحاجة الضرورية وذلك عام في الانسان ما دام في دار
الدنيا بل عام في الموجودات كلها . وعلى هذا قوله تعالى * يأيها
الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد * (٤) وإلى هذا
النوع من الفقر أشار عز وجل بقوله في وصف الانسان * وما جعلناهم
جسدا لا يأكلون الطعام * (٥)

(١) ج ٤٤٣/٤٤ مادة فقر .

(٢) نسبة ابن السكيت في اصلاح المنطق للراعي ص ٣٦٠ نشر دار
دار المعارف مصر .

(٣) كتاب المفردات في غريب القرآن ص ٣٨٣ مادة فقر .

(٤) سورة فاطر آية ١٥ .

(٥) سورة الانبياء آية ٨ .

٢ - عدم المقتنيات وهو المذكور في قوله تعالى ﴿ للفقراء الذين
احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض ﴾ (١) وقوله
﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ (٢) ، وقوله ﴿ إنما الصدقات
للفقراء والمساكين ﴾ (٣)

٣ - فقر النفس وهو الشره المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام :
" كاد الفقر أن يكون كفرا " (٤) وهو المقابل لقوله صلى الله عليه وسلم
" الغنى غنى النفس " (٥) والمعنى بقولهم : من عدم القناعة لم يفده
المال غنى .

٤ - الفقر إلى الله المشار إليه بقوله عليه الصلاة والسلام " اللهم اغنى
بالافتقار إليك ولا تفقرني بالاستغناء عنك " (٦) وإياه عنى بقوله تعالى
﴿ رب إنني لما أنزلت الي من خير فقير ﴾ (٧) .

وبعد فإنا نعرض في هذا البحث للمعنيين العرفيين المشهورين
بين الناس لكل من الغنى والفقر : أعنى كون الغنى هو كثرة المقتنيات
على ما سبق في كلام الراغب وكون الفقر هو عدم المقتنيات أو قلتها القريبة
من العدم على ما قال الراغب أيضا كذلك . وأول ما ينبغي على الباحث

-
- (١) سورة البقرة آية ٢٧٣ .
(٢) سورة النور آية ٣٢ .
(٣) سورة التوبة آية ٦٠ .
(٤) ضعفه في الجامع الصغير منسوبا لأبي نعيم في الحلية .
انظر فيض القدير ج٤ / ٥٤٢ .
(٥) هامش (٥) في ص ١٤٣ .
(٦) لم أعر على مصدر قد خرج .
(٧) سورة القصص آية ٢٤ .

هنا أن يصدر به قوله : بعد تحديد المراد من الأُمرين اللذين هما محل البحث فيما معنا أن يبين كيف كان المال ضرورة اجتماعية جارية على ما أراد الله من سننه الكونية وكيف أن الله جعله زينة ، فأقول :

إن طبيعة الانسان في حياته الدنيا ترتكز على الاتصال وذلك أن الانسان لكي يحافظ على حياته يلزمه التعاون مع الناس حتى يحقق ما يحتاج إليه من خدمات تلبى رغباته من غذاء وكساء وماوى وغير ذلك من الحاجيات الضرورية وهذا يجعل الانسان مدفوعا نفسيا واجتماعيا للاتصال بأبناء جنسه ليلبي رغباته وقضاء مصالحه وحاجاته التي تدعو إليها مدنيته ومجتمعه ولا يمكن أن يشبع حاجاته إلا عن طريق المال الموجود الذي يستخدمه الانسان بصورة تالاشباع حاجاته المختلفة . والمال يشمل كل شيء له قيمة نافعة من المواد الطبيعية كالمعادن وقوى حيوانية أو نباتية كالأغنام وكالانتاج الزراعي أو النقود المعروفة بالعين من ذهب أو فضة أو ما يقوم مقامهما من المثلثات ، وهذه الأخيرة أصبحت أهم الأموال اليوم وأصل المقتنيات والذخائر وذلك لعمومها في التبادل فالنقدان لهما قيمة عامة في المبادلات فيمكن الحصول بهما على أى نوع من المتحولات ، فالمال إذن أساس تبنى عليه حياة الانسان . وبالمال يحصل الانسان على الطعام والملبس والمسكن ، وكل حركة اقتصادية لا وجود لها إلا بالمال^(١) . فالمال إذن ضرورة وعامل من العوامل

(١) ر في ذلك مقدمة ابن خلدون من ص ٢٠٨ الى ص ٢١٠ ط/الأولى الخيرية - القاهرة .

التي لا يستغنى عنها الانسان ان وسيلة للرغائب وطريق موصول
للذائد والانسان رغائبه غير محدودة. ولذلك كلما ازداد من المال
تطلع لاكثر مما عنده ، وصدق رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم حيث يقول :
فيما أخرجه مسلم من حديث أنس (١) " لو كان لابن آدم واديان من مال
لابتغى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من
تاب " والنقود ضرورة لحركة المجتمع الانساني بحيث جعلها ثمنا لجميع
الأشياء المثمنة ، فمن ملك نقودا كانت له القدرة على تحصيل الرغائب التي
تدرك بالمال . ولما كان المال ضرورة لقيام حياة الانسان جعله الله زينة
(٢)
فحبه لنفوس الناس كما قال عز وجل * المال والبنون زينة الحياة الدنيا *
وليبتلى الانسان من خلال ما يحب بناء على تصرفه فيه من حيث العدل
(٣)
وسلوك طريق الحق يقول عز قائلنا * إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها
لنبلوهم أيهم أحسن عملا * جعل الله المال زينة لينتفع به الناس حسب
ما تقتضيه الأوامر الالهية مبتلين به ليصلوا إلى سعادة الدين والدنيا
عندما يتعاطاه الانسان وفق أوامر الشريعة الكريمة ، يوءد هذا المقصد
من الزينة قول الفاروق رضي الله عنه " اللهم إنا لا نستطيع الا أن نفرح
بما زينته لنا اللهم اني أسألك أن أنفقه في حقه " (٤)

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج٧ / ١٣٨ ، الزكاة باب كراهة

الحرص على الدنيا .

(٢) سورة الكهف آية ٤٦ .

(٣) سورة الكهف آية ٧ .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الرقائق باب قول النبي صلى الله عليه

وسلم : هذا المال خضرة حلوة ، فتح الباري ج١١ / ص ٢٥٨ .

وزينة المال جعلت الشريعة لها حدودا فيما يريد الانسان

بما اشتتهته نفسه مبتلى بتلك الحدود فمن رعاها بمجاهدة النفس .

وطلب التوفيق من الله وأخذ من ذلك التزيين بقدر ما حدد له فهو في

مكان محمود من زينة المال ، ومن نظر الى الزينة من زاوية الانغماس في

المشتميات والانهماك فيما يحبه منها فقد تنكب الطريق المحمود

والمغزى المقصود . وقد بين المصطفى صلى الله عليه وسلم الغرض المنشود

من زينة المال وضرب المثل الأعلى لبيان الحد من زينته ، يقول صلى الله

عليه وسلم " ان أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض ، قيل : وما

بركات الأرض ؟ قال : زهرة الدنيا . فقال له رجل : هل يأتي الخير بالشر ؟

فصمت النبي صلى الله عليه وسلم حتى ظننت أنه ينزل عليه ثم جعل يسمح عن جبينه

فقال : اين السائل ؟ قال : أنا . قال أبو سعيد : لقد حمدناه حين طلوع

لذلك قال : لا يأتي الخير الا بالخير . ان هذا المال خضرة

حلوة وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا (١) أو يلم الا آكلة الخضرة (٢)

أكلت حتى اذا امتدت خاصرتها استقبلت الشمس فاجترمت (٣) وثلطت (٤)

وبالت ثم عادت فأكلت وان هذا المال حلوة (٥) فمن أخذه بحقه ووضع

(١) معناه هلكا من قولهم حبطت بالكسر حبطا بفتح الموحدة اذا

أفرطت في الأكل حتى هلكت أو تقرب من الهلاك وهذا معنى

قوله أو يلم . كتاب النهاية لابن الأثير ج ١ / ٣٣١ .

(٢) نوع من البقول ليس من أحرارها وجيدها . كتاب النهاية لابن الأثير

ج ٢ / ٤٠ مادة خضر .

(٣) معناه استرجعت ما أدخلته في كرشها من العلف فأعدت مضغه .

الفتح لابن حجر ج ١ / ٢٤٤ .

(٤) بفتح المثناة الرجيع كالقي للانسان . كتاب النهاية لابن الأثير

ج ١ / ٢٢٠ مادة ثلط .

(٥) معناه التشبيه ، فشبه المال بالبقلة الحلوة الخضراء باعتبار أنه زينة

الحياة الدنيا .

(١)
في حقه فنعم المعونة هو، وان أخذه بغير حقه كان كالذى يأكل ولا يشبع.
بين صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث العظيم مكان زينة المال من عمل
الانسان فيه فضرب المثل لمن اتخذ زينة المال لاشباع شهواته غير مبال
من أين يأخذ هذا المال وفيما ينفقه ، بأن يكسبه من طريق غير مشروع
ويمنع منه مستحقه بما تأكله الماشية من ربيع مكثرة من أكله لاستمرارها لإياه
فيؤدى بها الى انشقاق أمعائها فتهلك أو تكون بذلك قريبة من الهلاك
فكذلك الذى لا يقف عند المراد من زينة المال وذلك بأن يأخذه من غير
حل ويسبل به عن مستحقه يكون قد عرض نفسه للهلاك في دار الفناء
وباء بالخسران في الحياة الآخرة .

وفي جانب الذين نجحوا من حيث إدراكهم المغزى من زينة
المال ، ضرب صلى الله عليه وسلم المثل لمن اهتدى الى المقصود من
زينة المال بماشية تأكل نوعا من النبات بعد زهاب نضارته وخضرته فلا
تستطيعه ولذلك لا تكثر الاكل منه . بمن التزم طريق الوسط في قضية
المال بحيث طلبه من الحل فلم يحمله الحرص على المال بأن يأخذه من
حرام فهو من النجاة من الهلاك بمكان كما نجت أكلة الخضرة . فمن
اتخذ زينة المال ارضا لرغباته لا محالة هالك كما هلكت الماشية التي
لم تبال بما يضرها من الاكل فلم تتباعد عنه . ومن جعل زينة المال

(١) أخرجه البخارى في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدرى .
باب ما اتخذ من زينة الدنيا والمتنافس فيها
كتاب الرقاق . يفتح البارى ج ١١ / ٢٤٤ وابن ماجه في سننه . كتاب

عونا له على طاعة الله وراقب ربه في جميع تصرفاته المالية من حيث الكسب والانفاق ، فاكسبه من طرق مشروعة وانفقه فيما يرضى الله ، نجا بذلك وسلم في الدنيا وفي الآخرة وفاز وأفلح . فالمال إذن جعله الله زينة بناء على أوامره ونواه موحى بها من عنده سبحانه .

ولما كان الانسان بطبيعته ميالا للذائد ومنعظا لما ترتاح إليه نفسه ونافرا ما تأنفه فارا ما يوء له ، وجميع أعماله وتحركاته منطلقة من هذه القواعد يضاف لذلك أن الناس متفاوتون في اللذات والرغائب بدليل ما ثبت من تعارض لذة طائفة مع آلام أخرى وبالعكس . وبناء عليه فلو ترك الأمر لاستيفاء كل أحد لذائذه والدفع عن آلامه حسب هـواه لاستأثر بالذائد الأقوياء ومن ثم تشور الفتن بين الضعفاء والأقوياء فتسود العداوة والبغضاء بين الطبقات المتباينة . مما يجعل المجتمع الانساني يفقد راحته ، لما كان الأمر كذلك فلا بد من إقامة موازين تحدد جذب الرغبات وتمكن الناس من حقوقهم وما يحبونه من أموال . ووقايتهم مما ينتج عنه خلل في حياتهم ، فالمنافع والمضار تتفاوت كما سبق . فمن ثم كان لا بد من أن ينظم الله أمر المال سواء من حيث اكتسابه أو انفاقه تحقيقا للتوازن المالي بين أفراد المجتمع الفقراء والأغنياء منهم سواء فلكي يتم توزيع المال بين الناس جميعا ولا يقصر على فئة دون فئة . ولكي يتم روح التضامن والتكافل بين الناس فيما يحتاجون إليه من منافع لا تقضى إلا بالمال الذي له سلطان وتأثير على النفوس البشرية . أمر الله

الانسان فيه بأوامر يتحقق من خلالها تنظيم التعامل المالي بناءً على الأمانة والصدق والوفاء ، فأباح الله الكسب الحلال وبين طرقه المشروعة من معاملة تجارية أو مبادلات عوضية مثل الصناعة والزراعة وغير ذلك ، كما أجاز الملكية الفردية ولم يمنعها كالنظام الشيوعي ، وأوجب نفقات على الموسرين فلم يهضم الفقراء حقوقهم مثل ما تحكم به الرأسمالية (١) وفي الوقت نفسه حرم الكسب الباطل كالربا والرشوة والغصب والسرقعة والخيانة وأخذ المال باليمين الكاذبة وجحد الحق وما إلى ذلك من محرمات مبسطة ومفصلة في الكتب الفقهية . يقول عز وجل في شأن الربا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تَبتم فَلِكُمْ رءُوسُ ءَأْمَوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * (٢) .

ويقول ما أحكمه من قائل * وَلَا تَأْكُلُوا ءَأْمَوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ (٣) وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من ءَأْمَوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * ويقول أيضا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا ءَأْمَوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ * (٤) كل ذلك حفاظاً على توازن حياة الانسان

(١) كتاب : اقتصادنا لمحمد باقر الصدر . ص ٢٧٢ الى ص ٢٧٧

ومن ص ٥٠٦ الى ص ٥١٤ نشر دار الكتاب بيروت .

(٢) سورة البقرة آية ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٣) سورة البقرة آية ١٨٨ .

(٤) سورة النساء آية ٢٩ .

التي إذا أصيبت بخلل في المعاملة المالية انهارت ، وحينما انحرف الناس في طرق اكتساب المال من الأبواب المشروعة كما صرفوه عن غايته وأنفقوه في غير مرضاة الله أصيبت اقتصاديات البشرية بانهيار حار في حله خبيراً مرموقون على مستوى المجتمع الانساني ، فالتنظيمات الاسلامية - اذن - وحدها هي التي عالجت القضية المالية في حياة الانسان بما يكفل العدالة من شمول في النظام وسمو بالنفس عن الماديات ، هذا من حيث الكسب ، وأما من حيث الانفاق فقد فرض فيه حقوقاً وأوجب فيه تقديرات تكفل حقوق المحرومين وتواز بين الفقراء والأغنياء فأوجب على الأغنياء من العون للفقراء ما يحفظون به كرامتهم ويدفعون به عوزهم وتخفيفاً لما يلاقونه من ضيق في الرزق وشظف في العيش وحرص في التصرف ، من أجل ذلك رغب الاسلام في الانفاق على وجه الوجوب كالزكاة وكاعالة من تلزمه نفقتهم من الأقرباء وعلى وجه الندب كالتصدق تطوعاً وكالانفاق العام في بناء المساجد والمصحات وغير ذلك من سبل الانفاق التي امتلأت ببيانها كتب السنة وشرحتها كتب الفقه الاسلامي .

والله لما أمر الانسان بالانفاق إنما كان أمره لمصلحة الانسان نفسه فلم يأمره بما ليس في طاقته لا سيما أن اللطيف الخبير يعلم مدى حب الانسان للمال . فأمره بجزء يسير لا كلفة فيه ولا حرج جزء معلوم في نصاب معلوم أو نفقة واجبة للضعفاء من الأقرباء والأولاد في زمن محدود وصفة محدودة . وفوق ذلك كله يتبين أن من صرف المال

الطيب فيما أحله الله وأمر به مع الاخلاص والرضا وعده الله بالثبوت
ضعف ما أنفق وزيادة على ذلك تغفر ذنوبه ما يجعله من الفائزين
في الدنيا المفلحين يوم القيامة ، يقول الكريم عز من قائل * إن ترضوا
الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلیم * (١) وهكذا
ندرك أن الله ابتلى الانسان من حيث وجود المال عنده وذلك يظهر
في أنه من وجد عنده المال إما أن يستل أمر الله فيه فيأخذه بحق
وينفقه في حق . وهذا الصنف قد نجا وسلم وإما أن يحرص على جمعه
ويبالغ في محبته حتى يكسبه من غير حله وينعمه من واجبات إنفاقه
وحقوقه ، وهذا الصنف تنكب سبل السلام ووقع من هذا الباب في
الخسران . فالمبتلى بالمال - اذن - لا يخلو إما أن يكون شاكرا أو جاحدا .
فالشاكِر هو الذي يعترف بأن المال لله وبأن النعمة كلها له فهو
المختص بالايجاد والخلق وهو المعطي بناء على حكمته البالغة في ذلك
العطاء ولذلك نرى هذا العبد لا يمنع الناس حقوقهم فلا يبخل بما هو
مستخلف فيه بل يعطيه وينفقه بسخاء كما أمر طيبة به نفسه ، وأما الجاحد
فيفتر بما لديه من مال ويجحد الفضل لأهله والشكر لصاحب النعمة .
وبالتالي يتعالى على الناس أمثاله وأفضل منه ، وإذا دعى لامثال ما أمر
به امتنع وأضاف النعمة لنفسه . كما فعل قارون بنى اسرائيل فيما ذكره
الله في قوله الكريم * إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه

(١) سورة التفاين آية ٧ .

من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه
لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة
ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد
في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي أولم
يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر
جمعاً * (١) وقوله عز وجل * فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولنا
نعمة منا قال : إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون * (٢)
والإنسان بحاله هذه حينما يبتعد عن الصراط المستقيم ولم
يهتد لما يوافق فطرته يكون قد تنكر للنعمة بعد أن تعطي له من
مصدرها وتخول له على أنه مستخلف فيها فقط فيدعيها لنفسه زورا وههنا
ويرى أن ما استخلف فيه من مال هو من علمه بطرق الكسب أو لاستحقاقه
ذلك لكرمه على الله . وما درى أن المال يعطى للإنسان ابتلاءً ليظهر
شكره أو كفرانه كما أن الفقير يبتلى به المرء فيظهر صبره أم جزعه
كما سيأتي بيانه ، والإنسان حينما يبتر النعمة ويفتخر بالمال وينع الحق
الذى أوجب عليه صاحب المال الذى تفضل عليه فخوله إياه ليصرفه
في طاعة الله بأداء حقوق الفقراء والمساكين حينما يكفر بذلك تأتي العاقبة
جرىا على سنن الله في مثل هذا الصنف من الناس بالحرمان بمحسق

(١) سورة القصص آية ٧٦ الى ٧٨ .

(٢) سورة الزمر آية ٤٩ .

ما يتمتعون فيه من النعم ، وذلك ظاهر فيما ذكره العليم الخبير في كتابه الحكيم عن أصحاب الجنة الذين منعوا ما كان يعطيه سلفهم من ثمار هذه الجنة للفقراء والمساكين بحيث عقدوا العزم مقسمين على قطع ثمار تلك الجنة خوفاً عن أعين المحتاجين ليضيقوا عليهم بحرمانهم ما كانوا ينتفعون به من الجنة وهم على نيتهم هذه - فسلط الله على جنتهم ما أهلكها وذهب بثمارها عقاباً لهم يقول تعالى ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إن أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم (١) فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين فانطلقوا وهم يستخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد قادرين فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون قال أوسطهم ألم أقل لولا تسبحون قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾ (٤) .

وفى ما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ما أخرجه البخارى (٥) من حديث أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) معناه يجتنونها ويتناولونها . انظر المفردات ص ٢٨٠ مادة صرم .

(٢) فاعيل بمعنى مفعول كما قال ابن مالك :

وناب نقلاً عنه ذو فاعيل نحو فتاة أوفتى كحيل

والمراد أن جنتهم أصبحت تشبه البستان الذى قطعت ثماره .

(٣) أى على منع أو على قصد . انظر الكشاف عند تفسيره للآية

ج ١٢٩/٤ نشر دار المعرفة بيروت .

(٤) سورة ن آية : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ،

٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

(٥) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ، كتاب الانبياء ، باب ما ذكر

عن بنت اسرائيل
ج ٦/ص ٥٠١ نشر دار المعرفة بيروت .

يقول : إن ثلاثة في بني اسرائيل أبرص وأقرع وأعمى (١) لله عز وجل أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا ، فأتى الأبرص فقال : أي شيء أحب اليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن قد قدرني الناس . قال فمسحه فذهب عنه فأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا . فقال : أي المال أحب اليك ؟ قال : الابل - أو قال البقر ، هوشك في ذلك ان الأبرص والأقرع قال أحدهما الابل وقال الآخر البقر - فأعطى ناقة عشراء (٢) فقال : يبارك لك فيها .

وأتى الأقرع فقال : أي شيء أحب اليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب هذا عني قد قدرني الناس ، قال : فمسحه فذهب وأعطى شعرا حسنا . قال : فأى المال أحب اليك ؟ قال : البقر . قال : فأعطاه بقرة حاملا ، وقال : يبارك لك فيها .

وأتى الأعمى فقال : أي شيء أحب اليك ؟ قال : يرد الله إليّ بصرى فأبصر به الناس ، قال : فمسحه فرد الله إليه بصره ، قال : فأى المال أحب اليك ؟ قال : الغنم ، فأعطاه شاة والدا فأنتج هذان وولد (٣) هذا فكان لهذا واد من الابل ، ولهذا واد من بقر ولهذا واد من الغنم .

-
- (١) أي قضى الله أن يبتليهم . انظر فتح الباري ج٦/ص ٥٠٢ .
(٢) بضم العين المهملة وفتح الشين المعجمة مع المد هي الحامل .
والفتح نفس الرقم للجزء والصفحة السابقين أي ص ٥٠٢ وكتاب
النهاية لابن الأثير ج٣ / ٢٤٠ .
(٣) بتشديد اللام المكسورة والشاة الوالد هي التي لها أولاد كما
يقال شاة حامل . انظر فتح الباري ج٦ / ٥٠٢ .

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين
تقطعت به الجبال في سفره فلا يبلغ اليوم إلا بالله ثم بك - أسألك بالذي
أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال - بعيرا أتبلغ به في سفرى .
فقال له : إن الحقوق كثيرة . فقال له : كأي أعرفك . ألم تكن أبرص
يقدرك الناس فقيرا فأعطاك الله ؟ فقال : لقد ورثت المكابر عن كابر ،
فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا ، فرد
مثل صارده عليه لهذا
عليه هذا ، فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأعمى في صورته فقال : رجل مسكين وابن السبيل وتقطعت
به الجبال في سفره فلا يبلغ اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي رد عليك
بصرك شاة أتبلغ بها في سفرى . فقال : قد كنت أعمى فرد الله
علي بصرى وفقيرا فقد أغنانى فخذ ماشئت فوالله لا أجهدك ^(١) اليوم
بشيء أخذته لله ، فقال : أمسك مالك فانما ابتليتكم فقد رضي الله عنك
وسخط على صاحبك .

وكقوم سبأ الذين من الله عليهم بنعم وافرة في بلادهم
فاتسعت أرزاقهم وزروعهم وشارهم حتى كانوا في عيش رغيد وأماكن آمنة . وقرى
متواصلة متقاربة مع كثرة أشجارها وشارها فكان المسافر لا يحتاج إلى
حمل زاد وماء فحيثما حل ونزل وجد الماء والشار . فبطروا هذه النعمة

(١) أى لا أشق عليك في رد شيء تطلبه مني أو تأخذه . فتح البارى

وكفروا بمن أسداها إليهم ، وبالتالي آثروا الذى هو أدنى على الذى هو
خير كما فعل بنو إسرائيل حينما طلبوا البصل والعدس وغيرها من
الأطعمة التي هي أقل لذة من المن والسلوى . فكذا قوم سبأ طلبوا
من الله أن يباعد بين قراهم ويفصل بين عمرانهم ، فعجل الله لهم الاجابة
بتخريب تلك القرى وتعرضهم للسخط والعذاب وجعلهم أحدوثة للناس
يتعجبون من أحوالهم ويعتبرون بعاقبتهم ومثالهم وذلك ما أخبر به سبحانه
في قوله * لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا
من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم
سيل العرم وبدلناهم بجننتهم جنتين نواتي أكل خبط وأثل وشسى*
من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور وجعلنا
بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقد رنا فيها السير سيروا
فيها ليالي وأياما آمنين . فقالوا رنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم
(١)
فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور*
فحينما بطروا النعمة فقدوها وحرموا من التمتع بها ، شأنهم
شأن أى جحود كنود . وفي ذلك أيضا دلالة واضحة وآيات عظيمة
لمن كان كبير الصبر عن الشهوات ودواعي الهوى ، وعلى مشاق الطاعات
صبور في الملهمات شكور على النعم .

وهكذا نرى من خلال تلك النماذج أن كفران النعم وغمط الفضل
لصاحبه الذي أسدى تلك النعم بأن يعتمد الانسان نكرانها ويدعى ظلما
وبهتاناً أن تحصيل المال من عنده فقط وبناءً على مقدراته وخبرته وفطنته
ويحدد المصدر الذي من عليه بذلك . وبالتالي يبخل بما أوجب صاحب
النعمة عليه من حقوق للأقارب والضعفاء والفقراء والساكين وغير ذلك من أوجه
البر والاحسان فيقسمو قلبه ولا يتفرق بالضعفاء فيكرمهم بما يصلون به إلى
حاجاتهم . نرى ذلك كله سببا في الحرمان من التمتع بالنعم .

وفي الجانب الآخر نرى المثل الأعلى والقذوة المثلى في الاعتراف
بالحق لأهله يظهر في الرجل الأعمى الذي تقدم بيان موقفه ، ويظهر فيما
قام به الصديق رضي الله عنه حينما دعى للانفاق والتصدق ضمن جمع من
الصحابه ، وذلك فيما أخرجه الحاكم في مستدركه من حديث عمر بن الخطاب
رضي الله عنه يقول : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما أن نتصدق
فوافق ذلك ما لا عندي فقلت : اليوم أسبق أبا بكر ، إن سبقته يوما فجئنت
بنصف مالي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك ؟
فقلت : مثله . وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال : يا أبا بكر ، ما أبقيت
لأهلك ؟ فقال : أبقيت لهم الله ورسوله . قلت : لا أسابقك الى شيء

أبدا . (١)

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه وقال على شرط مسلم وأقره الذهبي ،

هذا ما ظهر لي من حيث الابتلاء بالمال وجودا ، وأما الابتلاء به من حيث العدم فينتج عنه أمران إما الصبر ، وذلك باظهار الرضا بالاعتماد على الله من خلال الايمان بأن البسط والقبض هولله وحده يعطي من يشاء ويحرم من يشاء . وبالتالي يتمنى الشيء الحسن بحيث لو كان له لا يمثل فيه أمر الله يصرفه فيما يرضى الله * وهذه النظرة عندما يفقد الانسان المال يكون قد سلك طريق النجاة .

وإما الجزع وذلك بأن يتورط المبتلى بفقد المال فيما لا يليق بأهل الدين والمروءة ، ولا يبالي بسبب فاقته وحاجته على أي حرام وشب ولا في أي حالة تورط ويمد عينيه الى أصحاب المال الذين نزل بهم السي أسخس الدركات فيتمنى مثل ما لهم من الأموال وما فعلوه فيها من انحرافات عن الأمر ووقوع في المنهيات . فهذا الصنف بنظرته تلك أخطأ مواطن الفلاح ووقع في بؤرة الخسران ، تلكم معان قررتها انطلاقا من قوله تعالى ﴿ لتبلون في أموالكم ﴾ (١) وقوله تعالى ﴿ ولتبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأفئس والثمرات ﴾ (٢) وقوله تعالى ﴿ فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقد ر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلا ﴾ (٣) .

(١) سورة آل عمران آية ١٨٦ .

(٢) سورة البقرة آية ١٥٥ .

(٣) سورة الفجر آية ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف الذى بين فيه منازل المبتلين بوجود المال أو يفقده وذلك أن نوعا من المبتلين أعطى مالا فصرفه حيث أمره الله وهو بذلك بلغ منزلة عالية في النجاح . ونوعا أعطى مالا وصرفه حيث نهاه الله ومنع حقوقه . وهو بذلك نزل إلى أخس المنازل . ونوعا ليس له مال بل ابتلى بالفقر لكن تمنى أن لو كان له مال لفعل فيه ما فعل الرجل الصالح فله منزلته بمثل أجره ولو لم يفعل .

ونوعا رابعا مبتلى بالفقر لكن تمنى أن لو كان له مال لفعل فيه مثل ما فعل صاحب المنزلة السفلى . يقول صلى الله عليه وسلم " وأحدثكم حديثا فاحفظوه فقال : إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقي ربه ويصل رحمه ويعلم لله فيه حقا ، فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه مالا يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقا فهو بأخبث المنازل . وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علم فهو يقول : لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء " (١)

هذا وإذا كان القول قد بلغ بنا إلى بيان كيفية الابتلاء بالمال وجودا وعندما ، فقد يتبادر إلى ذهن الإنسان سؤال فلماذا لم يكن الناس متساويين

(١) أخرجه الترمذى في سننه من حديث أبي كيشة الأناورى وقال حسن

صحيح . انظر شرح المباركفورى للسنن ج٦/٦١٦-٦١٧ .

في هذا الباب ولماذا يعطى الكافر أو العاصي وتيسر لهما سبيل الجمع وقد يحرم المؤمن من ذلك وهو الذي أحسن الخلافة في الأرض وأحسن التصرف فيما لديه ولو كان يسيرا ؟

للاجابة على ذلك أقول : اقتضت حكمة الباري عز وجل أن تكون الحياة في دار الابتلاء مبنية على الاختلاف والتفاضل في العيش والسرور والقوة والضعف وذلك أنه من المشاهد والمحسوس أن الناس متفاوتون فسي كثير من القضايا ومنها تفاوتهم في الكسب من حيث الغناء أو الفقر .

ذلك أن الاختلاف والتباين سبب للائتلاف والتوافق بين الناس فيما يسعدهم إذ أن ظاهرة الاختلاف سبب في اتمام قضاء الحوائج والمصالح بين الناس حتى ينال كل واحد من الأجر والمنفعة ما يحتاجه من أساسيات الحياة وذلك ليتعاش الناس ويتراقدوا فيصل الجميع إلى قضاء مصالحهم التي تقوم عليها الحياة فلو تساوى الناس جميعا لضاعمت مصالحهم ولسد باب الاستعانة فيما بينهم ، والإنسان في حاجة إلى غيره ليكمل ما يحتاجه من متطلبات استمرار حياته ويقائه والله خلقه كذلك . ولئلا يستمر في الطغيان أيضا بالمال والبغى بالقوة ، لأن الإنسان ديدنه الطغيان إذ استغنى كما أخبر العليم الخبير * كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى * (١) ومعنى ذلك أن التباين والاختلاف طريق للائتلاف بحيث يعين الناس بعضهم بعضا فيما يحتاجون إليه . والا فبالنظر لما

(١) سورة العلق آية ٦ ، ٧ .

ينتظر الكافر من عذاب مقيم ألم ولما يناله من تمتع من زخارف الدنيا
الفانية التي من حقارتها أنها لا تزن جناح بعوضة عند الله كما أخبر
الصادق المصدوق * لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما
سقى منها كافرا شربة ماء. (١)

حالهم تلك بالنسبة لما ينتظر الموت من من نعيم سرمدي ومن
كل ما تشتهيهِ النفس وتلذ الأعين لا تساوي شيئا يذكر ، يوء يوء
هذا ما أخرجه مسلم (٢) بسنده من حديث أنس بن مالك قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوء تى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار
يوم القيامة فيصبغ (٣) في النار صبغة ثم يقال يا ابن آدم هل رأيت خيرا
قط ؟ هل مريك نعيم قط ؟ فيقول : لا . والله يا رب . ويوء تى
بأشد الناس بوءا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة
فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بوءا قط ؟ هل مريك شدة قط ؟
فيقول : لا والله يا رب ما مر بي بوء س ولا رأيت شدة قط ، وما جاء
في قوله عز من قائل * نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا
ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة
ربك خير ما يجمعون ، ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر
بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا
وسررا عليها يتكفون وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة
عند ربك للمتقين * (٤) ، والآية الكريمة بصدور بيان حقارة الدنيا وهوانها

(١) أخرجه الترمذى بسنده من حديث مسعر بن سعد قال : صحيح غريب

من هذا الوجه ، السنن بشرحها تحفة الأحوزى ، الزهد ج ٦ / ٦١١

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، صفات القيامة ج ١٧ / ص ١٤٩

(٣) أى يغمس الثوب في الصبغ . كتاب النهاية ج ٣ / مادة صبغ .

(٤) سورة الزخرف آية ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ .

على الله ولذلك لو جعلها الله خاصة بالكفار من حيث التمتع بها ما استفادوا منها شيئاً لغنائها وزوالها ، ولكن لما علم الله أن الناس يفتنون بها ويميلون للتمتع بزخارفها سخرها لهم جميعاً والا لسلك الناس كلهم سبيل الكفر يضاف لذلك أن ما ينتظر الكفار من عذاب سحيق لا يقاس بتمتع الدنيا لا من قريب ولا من بعيد ثم إن عملية الابتلاء تقتضي أن تكون الحركة مبنية على التواصل بين الناس والاختلاف هذا فقير وهذا غني ، ومذلك يظهر من يشكر حينما تكون حاله منعمة ومن يصبر حينما يضطر لشيء لا يستطيع الوصول إليه . فاختلف الأحوال اختبار للناس بعضهم ببعض الأغنياء مبتلون بالفقر من حيث ازدرأوه هم وذلك لما يرى الأغنياء أن لهم المنزلة عليهم من حيث إنهم أغنياء فينعونهم حقوقهم التي لهم عليهم أو من حيث نظرتهم إلى الفقير بالمساواة ، بمعنى أنه لا فضل لإنسان على إنسان إلا بالعمل الصالح . والفقراء أيضاً مبتلون بالأغنياء من حيث الصبر هل يصبر الفقير على حاله ويحتسب بروء يته فيرى أن العطاء من عند الله وحده وأن له وحده المشيئة في البسط والقبض أو يحسدون الأغنياء على ما أتاهم الله من فضله . يقول عز وجل ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ (١) .

ويقول عز من قائل ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع

بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب

وإنه لغفور رحيم ﴾ (٢) .

(١) سورة الأنعام آية ٥٣ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٦٥ .

فاختلاف الأحوال من خلال النظرة السابقة يعد حكمة بالغة ،
فقد قدر ذلك لقضاء مصالح الناس كل بحسب حاله وحاجته ، وانطلاقاً من
ذلك المعنى قد يعطى الله المال للعاصي والكافر فيمدّهم بجميع أصناف
الحياة وما يشتهون من الملذات ، وذلك أن الانسان حينما لا يبهتدى الى
الحق تكبراً وعناداً قد يئده الله بالمال استدراجاً ومكراً به كما جاء في
قوله عز وجل * أيعسبون أنما نمدّهم به من مال وبيننا نسارع لهم
في الخيرات بل لا يشعرون * (١) وقوله جل وعلا * فلما نسوا ما ذكروا
به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة
فإنهم مبلسون * (٢)

يوضح هذا المعنى ما أخرجه أحمد في مسنده (٣) حيث قال
حدثنا عبدالله ثنا أبي ثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين بن سعد عن حرمة
ابن عمران التجيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال " إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب
فانما هو استدراج ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم * فلما نسوا ما ذكروا
به - الى - مبلسون * .

(١) سورة المؤمن آية ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) سورة الأنعام آية ٤٤ .

(٣) كتاب السنن ج ٤ / ص ١٤٥ نشر دار صادر بيروت رواه مذكورون
في الثقات الا رشيد بن ضعفة في التقريب والحديث ذكره
السيوطي في الجامع الصغير وحسنه ولم يعلق عليه المناوي بشيء .
راجع الجامع الصغير بشرحه فيض القدير ج ١ / ٣٥٤ .

فهذا دليل على أن الله يستدرج هذا الصنف بتواتر النعم
الدنيوية عليهم فيظهر لهم الاحسان في الدنيا ما يغيب عنهم ويستتر
عنهم من عذاب الآخرة فيظنون أنه راض عنهم وهو تعالى قد حتم عليهم
العذاب وقرب منهم الخذلان أنه سبحانه قد لا يعطى الكافر ولا العاصي
وذلك لمصلحة التذكير والتفكير في طريق الحق عليهم يرجعون الى حظيرة
الصلاح مثل ما جاء في قوله عز وجل ﴿ ولوناهم بالحسنات والسيئات
لعلهم يرجعون ﴾ (١) وفي قوله تعالى في شأن المنافقين ﴿ أولايرون
أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ (٢)
فالآية الكريمة تنكر على المنافقين عدم رجوعهم عن غدهم وعدم اتعاضهم
بما يتقلبون فيه من اختبارات تجعل العاقل يقف عند حصولها مفكرا مما
سيؤدى به إلى الايمان بالله الطالك للموجودات كلها. ولذلك فله
أن يقسم النعمة والبلاء كما يشاء بحكمته لا كما يشاء سواء بهواه. وهذا
المعنى أيضا يجعل العاقل يكف عما هو فيه من ضلال وغواية. (٣) وقد
يعطى الصالحين حتى يتمكنوا من الاستمرار في العمل الصالح ونشره
بين العالمين وقد لا يستطيعون ذلك لولم يبسط عليهم في الرزق
وبالتالي لما حصلوا على درجة الشاكرين ليستحقوا بها الثواب. وقد قال
صلى الله عليه وسلم " نعم المال الصالح للرجل الصالح " (٤) . وقد

-
- (١) سورة الاعراف آية ١٦٨ .
(٢) سورة التوبة آية ١٢٦ .
(٣) راجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٢ / ٣٠٣ نشر مكتبة التراث القاهرة .
(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه وقال
صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي ج ٢ / ص ٢ كتاب البيوع .

لا يعطى الصالح فيحرمه منه وذلك ليظهر صبره ومدى ثقته بربه ورضاه بحكمه فيه فيصل أيضا بذلك الى ثواب عظيم ، و خلاصة القول إن اختلاف مراتب الناس في المال من حيث البسط أو الضيق لم يكن مبنيا من أجل أن هذا يعطى المال اكراما له ، وذاك يمنع إهانة له بل الأمر في الحالين للابتلاء ، وهذا يعطينا أن ظاهرة الفقر والغنى لا تعطى الانسان قيمة أو تخفضه منزلة وإنما القيمة للعمل الصالح وبالذى قد تم تقريره وتوضيحه في كيفية الابتلاء بالمال أكون قد وضحت معنى الفتنة بالمال في قوله تعالى ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾ (١) وقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ، واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ (٢) ويبقى توضيح الجانب الثاني في الآيتين الكريمتين من حيث الابتلاء بالولد .

مبحث الابتلاء بالولد :

لا شك أن الولد جعله الله زينة في الحياة الدنيا كالمال وذلك لكي تستمر الخلافة في الأرض إلى أن يشاء الله وليكون الانسان قد أدى واجب الخلافة كما يجب أن يؤدي فلا بد من اعداده ، فيجب على الآباء تربية الأولاد تربية تجعلهم يتحملون الخلافة على حال تسعد

(١) سورة التغابن آية ١٥ .

(٢) سورة الأنفال ٢٧/٢٨ .

البشرية سواء كان اعداد الأولاد ماديا أو روحيا وهذا يجعل الابتلاء بالأولاد من أثقل ما تحمله الانسان من أمانة وذلك يظهر في ثلاثة جوانب :

١ - جانب الرغبة في إسعاد الأب ولده ماديا إذ من المسلم به أن حب الأولاد في قلوب الآباء فطري . ومن هنا يحرصون على أن يكون أولادهم في عيش رغد يبذلون قصارى جهدهم وكل ما في مقدورهم من كسب وعطاء ومساعدة بالأموال والوقت لتحصيل ما يكون سببا في إسعادهم وقد يكون حبهم موديا الى اقتراف المعاصي وتضييع الفرائض وربما باشر الوالد الحرام لأجل ولده كغصب مال الغير فيطمع ولده الحرام فيؤدى به الى سبيل العصيان والكفران أو البخل بما فرض الله عليه من مال في سبيل ابقاء الثروة للولد فلا يخرج ما أوجب الله عليه من زكاة في ماله وغيرها من حقوق ثابتة . وحينئذ بهذه النظرة يكون الولد عدوا من حيث افراط الوالد في حبه كما جاء في القول الكريم ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾ (١) يقول مجاهد في معنى هذه الآية (٢) يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه فلا يستطيع مع حبه إلا أن يطيعه . وجاء عن ابن عباس فيما أخرجه الترمذى (٣)

(١) سورة التخابين آية ١٤ .

(٢) ابن كثير ج٤ / ٣٧٦ نشر دار التراث القاهرة .

(٣) سنن الترمذى بشرحها تحفة الأحمدي ج٩ / ٢٢٣ كتاب

وقال حسن صحيح لما سأله رجل عند هذه الآية قال : فهو لا رجال أسلموا من مكة ، فأرادوا أن يأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا الناس قد فقهوا في الدين فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله هذه الآية * وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم * (١) وذلك أن الانسان قد يضعف عن أداء الواجب بسبب حب الولد لما في نفس الأب من عمق في العطف عليه وإلى درجة إيثار ولده على نفسه ولذلك جاء التنبيه الكريم تحذيرا للانسان من الوقوع في موطن الخسران يقول سبحانه لا يأبىها الذين آمنوا لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * (٢) ويدخل في هذا الجانب ابتلاء الانسان أيضا بالمفاضلة بين أولاده بناء على حبه لأحدهما أكثر من الآخر فيخسه بالهبات والعطايا . ويحرم الآخرين وذلك ما حذر منه المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما رواه النعمان بن بشير أنه قال : نحلني (٣) أبي نحلا فقالت أمي - عمرة بنت رواحة - لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه ليشهده على صدقتي فقال : أكل ولدك نحلت مثله ؟ قال : لا . قال : اتقوا الله واعدلوا فسي أولادكم - وقال - : إني لا أشهد على جور . قال : فرجع أبي فرد تلك

(١) سورة التغابن آية ١٤ .

(٢) سورة المنافقون آية ٩ .

(٣) يقال : نحله ينحله نحلا بالضم أى أعطاه . النهاية لابن الأثير

ج ٢٩ / ٥ : نحل .

(١) الصدقة.

٢ - جانب إسماعيل الولد روحياً . وفيه يبتلئ الانسان بأنه يجب عليه أخذ ولده بالعقائد والآداب الإسلامية حتى يستأنس بها وينشأ عليها ليسهل عليه تقبلها عندما يشب ويكبر . وهذا يحصل ابتداءً ببذل الجهد في تلقينه ما يستطيع حفظه من القرآن الكريم حتى إذا عاقل بالغ الأب جهده في تعليمه الضروري من علوم الدين وترويضه على العبادات كالصلاة التي ورد بخصوصها الحضر عليها في قوله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الحاكم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : " مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين ، وفرقوا بينهم في المضاجع " (٢) وفيما رواه الترمذى من حديث سيرة (٣) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " علموا الصبي الصلاة ابن سبع سنين واضربوه عليها ابن عشر " (٤) وذلك ليتمرن على الصلاة التي هي عماد

-
- (١) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وقال حسن صحيح مع اختلاف في الألفاظ ، انظر صحيح البخارى بشرح فتح البارى ج ٥/٢١١ كتاب الهبات نشر دار المعرفة وصحيح مسلم بشرحه للنووى ج ١١/٦٧ نشر احياء دار التراث العربى ، وسنن الترمذى بشرحها تحفة الأحوزى ج ٤/٦٠٨ . الأحكام .
- (٢) أخرجه في مستدركه وسكت عنه والذهبي أيضا سكت عنه الا أن المعروف أن حديث عمرو بن شعيب حسنه العلماء . يقول الذهبي : ولسنا نقول بأن حديثه من أعلى أقسام الصحيح بل هو من قبيل الحسن . كتاب ميزان الاعتدال ج ٣/٢٦٨ .
- (٣) هو بفتح أوله وسكون الموحدة ابن معبد الجهني له صحبة توفي في خلافة معاوية . انظر التقريب ج ١/٢٨٣ .
- (٤) سنن الترمذى بشرح تحفة الأحوزى وقال حسن صحيح . المواقيت ج ٢/٤٤٥ .

الدين كله لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة وليتربى فيه الجانب الكبير من الاعراض عن المعاصي وترك المواقف فكم من أبناء تشبعوا بالالحاد فأنكروا وجود الخالق بينما لم يعلموا أو يلقنوا شيئا من الايمان والاسلام فأشربت قلوبهم الاحاد في سن تقبل كل غرس ، ولما أينعت أفكارهم كانت قلوبهم قد ران عليها دنن المعاصي والأوزار فيصعب رجوعها الى حظيرة الايمان الذي لا يسعد الانسان الا به . ثم اذا بلغ الولد بعد ذلك وجب على أبيه الحرص على تعليه معرفة البارئ جل وعلا من خلال الأدلة التي نصبت للوصول الى معرفة الله كي يجنبه السقوط في بوءة الاحاد أو الشرك . فحيدره مبينا له صدق الأنبياء فيما يبلغونه عن الله . ووجوب اعتقاد نسخ رسالة الاسلام التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم لجميع الرسالات السابقة فكل من سلك سبيلا غير سبيل الاسلام باء بالخسران والتحسر ، كما قال عز وجل * ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين * (١) وهكذا حينما يجنب الانسان ولده الوقوع فيما يؤدى به الى الخسارة ويسلك به سبيل الهدى والرشاد وبذلك يحفظه ويقيه من النار ، فاذا أمره بترك المعاصي وحضه على فعل الطاعات يكون قد نجح الأب في الابتلاء بالولد حيث ألقى ما عليه من تبعات ثقيلة ومسئوليات تحملها ، وحينما تسبب في وجود الولد أصبح لازما بل واجبا عليه أن يحول بينه وبين الشقاء بتعليه أبواب

(١) سورة آل عمران آية ٨٥ .

الخير والآداب ووقايته من الشر والخيبة في العقبى وذلك ما نبه إليه القرآن الكريم ودعا المؤمن إلى الالتزام به في الآية الكريمة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (١) وهو أيضا ما أخبر به المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحديث الجامع المتفق عليه من رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما «^{ألا}لكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام الأعظم الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسئولة عنهم وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه ألا فلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» (٢) الأب اذن ممتحن فيما رزق من ولد برعايتهم ماديا وروحيا كما هو جلي من خلال ما عرضته مبينا مدلا عليه بالقرآن والسنة .

٣ - جانب الابتلاء بفقد الولد سواء بالعقم أو بالموت أو بتنوع

الاعطاء بحيث يرزق ولدا أنثى ويحرم من الولد الذكر (٣) وقد كانوا في الجاهلية يدفنون البنات وهن أحياء والذي لم يرتكب هذا الجرم العظيم منهم يتوارى عن القوم ويتركها على قيد الحياة لكن على حالة فيها الإهمال وعدم القيام بحقوقهن كما أخبر سبحانه في قوله :

(١) سورة التحريم آية ٦ .

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه كتاب الاحكام باب قول الله ﴿أطيعوا

الله وأطيعوا الرسول﴾ فتح البارى ج١٣/ص ١١١ دارالمعرفة بيروت .
(٣) وقد حدثني من أثق به أن أستاذا في الشريعة أخذته البكاء حزنا لما بشر بميلاد بنت منه .

* واذا بشر أحدهم بالأُنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون * (١)

فالذى يجب على الانسان العاقل هو التسليم في هذه الأحوال والاعتقاد بأن الله الخالق الحكيم هو الذى يقسم النعم وهو الذى يبتلى بالمكروهات ولذلك من وصل لهذه الدرجة من الايمان يرى فقدته للولد بالموت أو بالعقم هو بمحض إرادة الله الحكيم حيث هو المتفرد بالخلق بناءً على مشيئته - سبحانه - لا على مشيئة الانسان ولذلك يجب عليه التفويض لله حينما لا يرزق بولد البتة أو يرزق بما لا تهواه نفسه.. فعليه تجنب الكفران والجزع ، لأن الله المتفرد بالخلق والذى له في ذلك الكمال والحكمة ما يفعله هو الصواب والأرفق بالانسان ، والانسان أيضاً حينما يدخل في حظيرة الايمان يمتاز عن غيره ممن لم يدخل فيها بحيث لا تصه النار وذلك لما يصبر عند فقدته للولد ويحتسب ذلك لله كما أخبر صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يموت أحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتسه النار الا تحلة القسم (٢).

(١) سورة النحل آية ٥٩ .

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه بشرح فتح البارى كتاب الايمان باب قول الله تعالى "وأقسم بالله جهنم بما فيها" ج١١١/٥٤١ نشر دار المعرفة ، وقوله " تحلة " بفتح المثناة

من فوق وتشديد اللام تحليلها أى لا تصه النار الا مسة يسيرة مثه تحلة المقسم الحالف والاشارة بذلك الى قوله تعالى * وان منكم الا واردها * انظر النهاية لابن الأثير ج١/٢٩٤ مادة "حلل".

ويخطيء الانسان حينما يجزع لما يحرم من نعمة الولد أو يعطى ما لا يريد هو من أولاد ، لأنه لا يرى ما هو الاصلح له . ان العليم القدير الذي قدر الأشياء وجعل لها موازين هو أيضا الذي يخص بعض الناس بالاناث وبعضهم بالذكور وبعضهم بمن عليه بالولد ذكرانا واناثا ويحرم بعضا آخرين من كليهما فهو العليم القدير وناس آخرون يبتليهم بموت الولد بعد أن رزقهم إياهم ، فلا دخل للطبائع أو الأجناس في الحرمان من ذلك أو الاعطاء بل هو محض مشيئة العليم الخبير كما قال عز وجل ﴿ لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير ﴾ (١) والمقصود أن الله جعل أحوال العباد من حيث المن عليهم بالأولاد مختلفة بناء على مقتضى مشيئته سبحانه فيهب لبعض إما صنف واحد من ذكر أو أنثى أو الصنفين جميعا ويعقم آخرين . وذلك لعلمه بالأشياء وما فيها من المصالح . وإن قدرته نافذة في تكوين الأشياء كيف شاء وأراد ، ومن هنا قد يخص بعض عباده بالأولاد البنات ابتلاء لهم ، يود هذا قوله صلى الله عليه وسلم " من ابتلى من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار " (٢) يقول النووي " انما سماه ابتلاء لأن الناس يكرهونهن في العادة " . (٣)

-
- (١) سورة الشورى آية ٤٩ ، ٥٠ .
(٢) أخرجه البخارى في صحيحه من حديث عدى ومسلم في صحيحه من حديث عائشة انظر صحيح البخارى بشرحه فتح البارى كتاب الزكاة باب " اتقوا النار ولو بشق تمرة " ج ٣ / ٢٨٣ وانظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٦ / ١٧٩ باب فضل الاحسان الى البنات .
(٣) كتاب شرح النووى ج ١٦ / ١٧٩ .

الفصل الرابع

الابتلاء بالمصائب

توطئة :

وبعد ، فقد اتضح لدينا معنى وصفة الابتلاء بالمال والولد والحكمة من ذلك. ولا يخفى أن الابتلاء بهما امتحان بالنعم ، والانسان لا ينفك عن التغير والتقلب ، فهو مبتلى مرة بالخير ومرة بالشر وذلك مصداق قوله تعالى ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون ﴾ (١) . فالانسان إذن كما هو مبتلى بالنعم مبتلى أيضا بالمصائب الأمر الذي دعا الى عقد فصل لبيان الابتلاء بها والحكمة منها وبناء على ذلك أقول :

بدءا كما هي العادة التي درجت عليها في هذه الرسالة يلزمنا التعرض لمعنى الكلمة التي ينطلق منها ما يتعلق بعنوان الفصل من معان . فالمصائب جمع مصيبة ، والمصيبة شرعا : الأمر المكروه ينزل بالانسان وهي مأخوذة لغة : من الرمية بالسهم ثم استعملت في كل نازلة . فالمصيبة الشدة النازلة من النوائب . نجد هذا المفهوم فيما صرح به صاحب المفردات (٢) حيث قال : " والمصيبة أصلها في الرمية ثم اختصت بالنائبة نحو ﴿ أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ﴾ (٣) ونحو ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان ﴾ (٤) وقوله ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ (٥) وأصاب جاء في الخير والشر قال تعالى

(١) سورة الانبياء آية ٣٥ .

(٢) ص ٢٨٨ مادة : صوب .

(٣) سورة آل عمران آية ١٦٥ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٦٦ .

(٥) سورة الشورى آية ٣٠ .

﴿ إن تصبك حسنة تسوء هم وإن تصبك مصيبة ﴾ (١) * ولئن أصابكم
فضل من الله ﴿ (٢) ، وهذا المعنى في الحالين مأخوذ من الصوب أي المطر،
وذلك في الاصابة بالخير ومن الرمية بالسهم في الاصابة بالشر . انتهى
بالمعنى .

ويراد ف لفظ المصيبة في المعنى السيئة . وذلك أنه كما يطلق

لفظ الحسنة على النعم يطلق لفظ السيئة على المصائب كما جاء في قوله
(٣)

تعالى ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ .

وبصدر بيان هذا الترادف يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : ﴿ إن

المراد هنا بالحسنات والسيئات النعم والمصائب كما في قوله تعالى

﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون ﴾ (٤) أي امتحناهم

واختبرناهم بالسراء والضراء . (٥)

﴿ إن معنى المصيبة والسيئة في الشرع هو ما يصيب الانسان

من مكروهات وهي لا تخرج عن الاصابة : إما في النفس أو المال ، أو

الأقارب . (٦)

(١) سورة التوبة آية . ٥ تكلمة الآية ﴿ يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل

ويتولوا وهم فرحون ﴾ .

(٢) سورة النساء آية ٧٣ تكلمة الآية ﴿ ليقولن كأن لم يكن بينكم

وبينه مودة يلبيتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما ﴾ .

(٣) سورة النساء آية ٧٩ .

(٤) سورة الاعراف آية ١٦٨ .

(٥) كتاب الفتاوى لابن تيمية ج ٨ / ٢٣٩ الطبعة الاولى وكتاب

الحسنة والسيئة له أيضا ص ٢١ ، ٢٢ ، ط / المدني ، القاهرة .

(٦) انظر التفسير الكبير للرازي ج ٤ / ١٦٦ ، ١٦٧ . وانظر تفسير

القرآن العظيم لابن كثير ج ١ / ١٩٧ . وانظر الفصل لابن حزم

ج ٣ / ٢٠٨ ، ط / دار عكاظ للنشر جدة .

أ - ففي النفس :

١ - يكون ذلك بالتعرض لأنواع الأمراض والأوجاع أو

الإصابة بما يتسبب في إزهاق الأرواح :

أ - أما فسي المواطنن التي شرع فييهما
ذلك كالصبر على الجود بالنفس في سبيل عقيدة الإسلام كما وقع لأصحاب

الأخدود فيما قصه علينا القرآن الكريم لتثبيت المؤمن على ما هم عليه

من الإيمان وتصبيرهم على أذية الكفار وتذكيرهم بما جرى لمن تقدمهم

من التعذيب لأهل الإيمان وصبرهم على ذلك حتى يأمنوا بهم ويصبروا على

ما كانوا يلقون من قومهم ويعلمون أن قومهم الذين يؤذونهم مثل أولئك

في كونهم ملعونين مطرودين ، كما قال عز وجل ﴿ قتل أصحاب الأخدود

النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين

شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤذوا بالله العزيز الحميد الذي له ملك

السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ﴾ (١) . وقد اختلف

المفسرون في تعيين أصحاب الأخدود من هم (٢) ، والحقيقة أن تعيينهم

أو الوقوف على الحقيقي من صفة خبرهم ليس فيه كبير فائدة أو زيادة معنى

يتعلق بما أنا بصدده من ضرب نماذج للصبر على الأذية في سبيل الله

(١) سورة البروج آية ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير فقد استعرض ما يقال

في تعيين أصحاب هذه القصة ج٤ / ٩٣ ، نشر دار التراث

القاهرة والتفسير الكبير للرازي ، ١٦٦ / ج٣ / ص ١١٨ .

وهكذا فأصحاب الأخدود^(١) هم قوم موء منون صدقوا بما جاءهم من عند الله وأبوا الرجوع عما تيقنوا به من إيمان فعمد إليهم أعداؤهم بالقهر والتسلط فحفروا حفرا وأضرموا فيها النيران العظيمة ذات اللهب المرتفع من ككرة ما أفرطوا في جمعه من حطب سعروا به تلك النار فلما لم يجاروهم على ما أرادوا منهم قذفوهم في تلك الحفرة الملتهبة بالنار وليس لهم ذنب ارتكبه أو جرم اقترفوه إلا أنهم قالوا ربنا الله الذي يملك كل شيء ففتنوهم عن دينهم لكفهم لم يستسلموا أو يضعفوا بل اختاروا لفح النار ولهبها على نعيم الدنيا وزخارفها ففازوا بالنعيم المقيم في جنّة الخلد . وخسر أعداؤهم بايعاد الله لهم بالخلود في النار شأن أي باغ أو طاغ حينما يقف بالمرصاد لأوليائه الله فيمنعهم من تبليغ نور رب العالمين لعباده فتحق عليه كلمة العذاب مصداقا لقوله تعالى *

﴿ إن الذين فتنوا المؤمنة والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾^(٢) وحريق جهنم لا كحريق الدنيا بل هو عذاب موء بد لا تفقد معه الحياة كما قال تعالى *

﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ﴾^(٣) وإضافة إلى أن ما يعذبون به بلغ الغاية القصوى في الإيلام والضرر كما يوحي بذلك صيغة المبالغة فعيل .

(١) الأخدود هو الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق ، والجمع أخاديد ومنه خد الإنسان ، يقال تخدد وجه الرجل إذا صارت فيه أخاديد من جراح كما قال طرفة :
ووجه كأن الشمس حلت رداها عليه نقي اللون لم يتخدد
المصباح المنير ص ١٩٨ نشر دار الكتاب العلمية ببيروت
وإنما تحكّم القرآن للقرطبي ج ٢٨٧/١٩٨ نشر دار الكتاب القاهرة .

(٢) سورة البروج آية ١٠ . (٣) سورة فاطر آية ٣٦ .

ب - أو يكون ازهاق الروح الانسانية في سبيل عرض من أعراض

الدنيا كما وقع في قصة قابيل مع أخيه هابيل حيث قتل أحدهما الآخر حسدا على ما ناله من مال على قول ، أو على ما تبين أنه أحق به منه بخصوص امرأة كل واحد منهما يريد الزواج منها على قول آخر (١) وعلى كل فقد اتفقا على أن يقدم كل منهما قربانا فمن قبل منه فهو أحق بالشيء المتنازع عليه فتقبل من أحدهما دون الآخر ، فلم يرض الذي لم يقبل منه بما خرجت عليه القرعة فقتل أخاه رغم أن المقتول لم يكن حريصا على قتل من أزهاق روحه كما جاء في قوله عز وجل والذي بين فيه عاقبة البغي والحسد * واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إن قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لاقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين لكن بسطت إلي يديك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لاقتلك إنني أخاف الله رب العالمين إنني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين * (٢)

٢ - أو يحصل ذلك بما يصاب به الانسان من مخاوف عندما

تحيط به الشدائد فيظهر أصحاب القلوب الثابتة على المبدؤ بالصبر وتحمل المشاق وينكشف الذين يصابون بالجزع والريب في معتقدتهم عندما تحل بساحاتهم البلايا كما يظهر ذلك جليا في غزوة تبوك حينما لقي المؤمنون

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢/٤١ ، نشر مكتبة دار

التراث - القاهرة .

(٢) سورة المائدة آية ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ .

ما لقوه من شدة في الأمر في سنة مجدية وحر شديد وعسر من الزاد والماء حتى لقد كان الرجلان يشقان التمرة بينهما وحتى كان بعضهم يرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم كما أخبر سبحانه وتعالى ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كان يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ﴾ (١).

كما ازداد أمر المنافقين كسفا ووضوحا بتخلفهم في هذه الغزوة وقد ابتلى فيها أيضا ثلاثة (٢) من المسلمين عندما تخلفوا عنها فأصيبوا بالخوف والضيقة والرعب عند محنة الاعتذار بعد رجوع النبي صلى الله عليه وسلم ولكنهم لم يلتسوا عذرا مقبولا ينجون به أنفسهم من العقاب بالعفو الموءت بل صدقوا رسول الله واعترفوا بالتقصير وبأنه لا عذر لهم وليس لهم الا عفو الله ورحمته وتوبته عليهم ، فتركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر الله يحكم فيهم بما شاء ونهى الناس عن كلامهم أو الاختلاط بهم حتى يفصل الله في شأنهم كما روى عن كعب قوله : " إنه لم يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قط غير غزوتين : غزوة العسرة وغزوة بدر قال : فأجمعت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى ، وكان قلما يقدم من سفر سافره إلا ضحى ، وكان يبدأ بالمسجد فيركع ركعتين ، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم

(١) سورة التوبة آية ١١٧ .

(٢) هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع ، وهلال بن مرة .

عن كلامي وكلام صاحبي ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا فاجتنب
الناس كلامنا فليثت كذلك حتى طال على الأمر وما من شيء أهم الي من
أن أموت فلا يصلي علي النبي صلى الله عليه وسلم أو يموت رسول الله
صلى الله عليه وسلم فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمني أحد ولا يصلي
علي فأنزل الله توبتنا علي نبيه صلى الله عليه وسلم حين بقي الثلث الأخير
من الليل ورسول الله عند أم سلمة ، وكانت أم سلمة محسنة في شأنني
ومعينة في أمري فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تيب علي كعب قالت
أفلا أرسل اليه فأبشره ؟ قال إن أ يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر
الليلة . حتى اذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر أذن بتوبة
الله علينا^(١) امتحن هوء لاء الثلاثة بالثبات علي الصدق في القول فأقروا
بأنهم لم يكن لهم عذر حينما تخلفوا بل كانوا في يسر وقوة فتاب
الله عليهم كما في قوله تعالى * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت
عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله
إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم .^(٢)

٣ - أو يكون ذلك بالازدراء بالانسان كالكذب عليه فيما

تتأذى به النفس من مخاوف وشدائد من الفعل أو القول :

١ - كما وقع لموسى مع بني اسرائيل حينما أعابوا عليه التستر فكان

لا يفتسل إلا مختفياً عن الأبصار . فقالوا : ما يفعل هذا الا لعيب

(١) انظر صحيح البخارى بشرحه فتح البارى كتاب التفسير ج٨ / ٣٤٢ ،
٣٤٣ .

(٢) سورة التوبة آية ١١٨ .

في جسده من برص أو أدرة كما جاء في صحيح البخارى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم * إن موسى كان رجلا حيا ستيرا لا يرى من جلده شي * استحياء منه فأذاه من آذاه من بني اسرائيل فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة^(١) وإما آفة وأن الله أراد أن يبرئه ما قالوا لموسى فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل الى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى الى ملاء من بني اسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله عز وجل وأبراه ما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله إن بالحجر لندبا^(٢) من اثر ضربه ثلاثا أو أربعاً أو خمساً فذلك قوله تعالى * يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله ما قالوا وكان عند الله وجيبها *^(٣) والآية نزلت بسبب ما قيل في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم مما قد يتأذى به ما فاه به المنافقون بخصوص ما أحل الله له من تزويج زينب بنت جحش التي طلقها زيد دعى النبي صلى الله عليه وسلم وذلك أن زيدا جاء يشتكي منها حيث كانت تفخر على زيد بشرفها ويسمع منها ما يكره فجاء رضي الله تعالى عنه يوماً الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

(١) الادرة بضم الهمزة وسكون الدال نغخة في الخصية . انظر كتاب

النهاية لابن الأثير ج ١ / ٣١٠ .

(٢) الندب يفتح النون والدال أثر الجرح فشبه به أثر الضرب في

الحجر . كتاب النهاية لابن الأثير ج ٥ / ٣٤٠ .

(٣) سورة الأحزاب آية : ٦٩ .

يا رسول الله إن زينب قد اشتد علي لسانها وأنا أريد أن أطلقها ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " أمسك عليك زوجك " وقد سبق أن أوحى الى النبي صلى الله عليه وسلم بزواجه منها ^(١) وذلك ما جاء في قوله عز وجل ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَا زَوْجَهَا لَكُمْ أَنْ تَنْكِحُوا مَا كَانُوا يَنْكِحُونَ وَأُولَئِكَ أَطْرَافُ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ بَيِّنَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) والقصة وإن كان الابتلاء فيها واضحا حيث ابتلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم بزواجه حليلة متبنيه سابقا كما ابتلى فيها زيد بطلاقه لزينب فالأمر المستفاد أولا : هو نسخ تحريم زوجة المتبني ولذلك أوحى الله الى النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوج زينب اذا طلقها زيد لكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبادر لذلك مخافة الطعن من الأعداء فعوتب . غير أنه يبقى هناك تساؤل مفاده كيف أن الرسول يعلم أنه سيتزوج زينب وأن زيدا سيفارقها ومع ذلك يأمر زيدا بامساكها ؟ يقول ابن العربي ^(٣) في هذا الصدر ما ملخص معناه وقع ذلك لاقامة الحجبة ولمعرفة العاقبة بدليل أن الله قد يأمر العبد بالايان وهو يعلم أنه لا يؤمن فليس في مخالفة متعلق المعلوم العلم ما يمنع من الأمر به عقلا وحكما .

(١) أحكام القرآن لابن العربي ج٣ / ١٥٣١ الطبعة الأولى الحلبية .

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(٣) أحكام القرآن ج٣ / ١٥٣٢ الطبعة الأولى الحلبية .

٢ - وكما وقع لمريم البتول التي أذاها قومها باتتها مهم لها بالبغاء
حينما جاء تـينبي الله عيسى وكتيمه بدون أب وهي التي شهد الله لها
بالتحصين في قوله * ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من
روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين * (١) وهي
التي أيضا تقبلها ربها بقبول حسن وأنبأها نباتا حسنا فنشأت في بني
اسرائيل نشأة عظيمة فكانت عابدة ناسكة منقطعة لعبادة ربها وهي
التي تساءلت ان بشرها الملائكة بعيسى ابنها أنى يكون لها غلام
ولم يمسسها بشر ولم تكن بغيا فتعجبت من وقوع هذا وعلى أى صفة
يوجد منها غلام ولا زوج لها وليست من اللواتي يتصور منهن الفجور
وهي التي تعوذت بالله من ارتكاب الفجور عندما بدا لها جبريل في
صورة بشر أثناء خلوتها. كما أخبر عز وجل في قوله * واذكر في
الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا
فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت أنى أعوذ بالرحمان منك
إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربك لا أهاب لك غلاما زكيا قالت أنسى
يكون لي غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ، قال كذلك قال ربك هو علي
هين ولنجعلناه آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا * (٢)

خلق الله عيسى بدون أب وخلق آدم بدون أب ولا أم وخلق
حواء من ذكر بدون أم وخلق باقي الأناسي من أم وأب ذلك للدلالة

(١) سورة التحريم آية ١٢ .

(٢) سورة مريم آية ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

وكما وقع لأم الموء منين في قصة الافك التي افترى فيها المنافقون على

عائشة رضي الله عنها وهي الحصان الرزان كما قال حسان بن ثابت :

حصان رزان ما تزن برميبة (١)
وتصبح غرثي من لحوم الغوافل

حليلة خير الناس دينا ومنهيا نبي الهدى ذى المكرمات الفواضل

عقيلة حسي من لوى بن غالب كرام المساعي مجدهم غير زائل

مهذبة قد طيب الله خيمها (٢)
وطهرها من كل سوء وباطل

وملخص ذلك أن أم الموء منين عائشة رضي الله عنها كانت القرعة

من نصيبها في مصاحبة النبي صلى الله عليه وسلم حينما قصد غزوة بني

المصطلق إذ جرت العادة أن يقرع بين نساءه لمصاحبة احداهن

له أثناء سفره للغزو وحدث أن ذهبت أم الموء منين وهي في معسكر الفزرو

للبحث عن عقد سقط منها عند خروجها للخلاء وهي في هذه الحال ارتحل

الجيش من مقر اقامته فاصطحب القوم معهم هودج أم الموء منين ولم

يدروا خلوا الهودج منها لأنها كانت خفيفة الجسم وحديثة السن ، فلما

رجعت من مهمة البحث عن العقد إذا بها تفاجأ برحيل القوم فاستقرت

في منزلها الذي كانت فيه . وكان الصحابي الجليل صفوان بن المعطل

تأخر من وراء القوم للنظر في محلة الجيش لكيلا يبقون وراءهم متاعاً من

الأمّعة التي يحملونها معهم ، فلما راقب صفوان رضي الله عنه الأماكن

(١) معناه أنها رضي الله عنها ليس من عاداتها أكل لحوم أخواتها
من النساء الفافلات لأن غرث من كذا معناه جاع . انظر: كتاب

النهاية لابن الأثير ج ٣ / ٣٥٣ والابيات من بحر الطويل .
(٢) من تخيمت الريح الطيبة في الثوب إذ عيقت به . انظر القاموس

التي كان الجيش معسكرا فيها يفاجأ بسو | ح فاذا هو أم المو منين رضي
الله عنها وأرضاها عائشة . قد غلبها النوم ، وكان صفوان يعرفها قبل
الحجاب فوقف يسترجع حتى استيقظت أم المو منين وأشار عليها بامتطاء
راحلته وساق الراحلة حتى وصل مكان إقامة الجيش ، ولما رآهما المنافقون
أشاعوا ما أشاعوا ، وتقسم أم المو منين فتقول " والله ما كلمني كلمة
ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه " ، ولما سمعت أم المو منين الخبر
تذرعت بالصبر وقالت قولتها الخالدة : " والله ما أجد لكم مثلا إلا قول
أبي يوسف * فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون * " وابتلي
صلى الله عليه وسلم أيضا فكان موقفه أن ظن بأهله خيرا حيث وقف
على الخبر وقال : " يا معشر المسلمين من يعذرني (١) من رجل قد بلغني
أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا ، ولقد نكروا
رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي الا معي " (٢)
وهكذا نرى في هذه القصة أن الابتلاء بين أمر المنافقين حيث إنهم في
تربص دائم في انتهاز الفرص التي يجدون منها منفذا يوه زون منه رسول
الله والمو منين معه ولما كشف أمرهم هذا نزل قرآن في شأن أم المو منين
يسبري ساحتها ما أرجف به المنافقون ويجعل نظاما خالدا للمحافظة
على أعراض المو منين فيما يتعلق بقضية القذف وفيما يتعلق بجعل

(١) ينصفني منه ويلومه على فعله وينحى عليه باللائمة . انظر كتاب المصباح

المنير ص ٤٧٣ .

(٢) القصة بطولها في صحيح البخاري بشرح فتح الباري ج ٨ / ٤٥٢ ،

٤٥٣ ، ٤٥٤ باب بلولا إن سمعته قلم ما يكون لنا أن نتكلم

بهذا * .

حد تثبت به تهمة الانسان الذي هو بىء الذمة في الاصل قال عز وجل * ان الذين جاءوا بالافك عصابة منك لا تحسبوه سرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم لولا ان سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم إن تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به من علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ولولا ان سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم * (١)

وفي هذه القصة أيضا تظهر لنا الفوائد التي يجنيها الانسان فيما يبتلى به كما قال عز وجل * وان الذين جاءوا بالافك عصابة منكم لا تحسبوه سرا لكم بل هو خير لكم * وإضافة الى ما نالته أم المؤمنات من ثواب عظيم بفضل صبرها على ما قيل فيها من افتراء وبهتان ، وزيادة في تكريم الله لها أن انزل في تبرئتها قرآن يتلى دائما وأبدا ما زادها رفعة في درجاتها كما اعترفت هي بذلك الفضل فقالت : "والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيا يتلى " .

نستفيد أيضا من ذلك أن الاسلام جعل لعرض الانسان حصنا

حصينا ولكرامته شأنا عظيما ، فالموء من أوالموء مئة بريثان مما يخذش كرامتهما

ومنزلتهما ، فمن حاول مس عرض/ ^{موء من} بدون اثبات دليل قاطع يجب أن ينال

عقوبة جاءت خالدة في كتاب الله بنص قاطع في قوله عزوجل : ﴿والذين

يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا

لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ﴿ (١)

ب - وفي المال بذهابه وزواله بالقحط والجذب اللذين ينتج عنهما

الابتلاء بالجوع والنقص في الثمار والزروع أوالابتلاء من حيث كسب

المال وانفاقه وقد سبق بيان ذلك في الفصل قبل هذا .

ج - وفي الأقرباء والأصحاب بفقدهم كما ورد في الحديث عن أبي موسى

الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : " اذا مات ولد

العبد قال الله تعالى للملائكة أقبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم ، فيقول :

أقبضتم شرة قلبه ؟ فيقولون : نعم ، فيقول الله تعالى : ماذا قال عبدي ؟

فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدي بيتا

في الجنة وسموه بيت الحمد " . (٢)

ويلاحظ من هذا التقسيم أن ما يصاب به الانسان من مكروهات

قد يكون وقوعه من قبل الله عزوجل بغير فعل فاعل وذلك

(١) سورة النور آية ٤ .

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه وحسنه ، انظر كتاب الاحوذى ج٤ / ١٠١ تحفة

كتاب الجنائز باب فضل المصيبة . نشر المكتبة السلفية .

كالصواعق المرسله والجوائح المدمرة التي تصيب الزروع وهلاك الأنعام
وموت الأعداء . وقد تكون بسبب العباد وان كانت واقعة بالأمر الكوني
فيما بينهم كالعمل على إتلاف مال الغير مما ينجم عنه الإصابة بالفقر
وذلك كالسرقة أو الاحراق أو تسميم انسان لآخر قصد اذايته في جسمه
وصحته وعافيته . ومن عظيم الابتلاء أيضا ما يلحق المؤمن من سماع
الأذى الكثير كالشتم والسب من أعداء الدين . نجد هذه المعاني
مجموعة في القول الكريم * ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من
الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة
قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة
وأولئك هم المهتدون * (١)

وفي قوله تعالى * لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من
الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا
وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور * (٢)

فآيات الكريما تقرر أن كل مضره تصل الانسان هي مصيبة مبتلى
بها سواء في النفس أو الأهل أو المال جلت أو صغرت . وإلا أن الناس
فيما يصابون به من حيث العاقبة مختلفون ، بناء على اختلافهم في اتباع
الحق ، وذلك باختلافهم في التمسك بالهدى أو الضلال .

(١) سورة البقرة آية ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٨٦ .

أ - المؤمن من يتحرك في أمور حياته بناءً على اعتقاده وتمسكه بقواعده
الايان ولذلك يرى تعرضه للمصائب هو من أجل أمرين :

أولهما : إما لخروجه عن المنهج الاياني الذي ارتضاه لنفسه ،
وبناءً عليه فما يصيبه ينظر إليه على أنه رحمة من الله به حيث جعله
له سبباً أو ان شئت فقل جعل له مخرجاً مما وقع فيه من مخالفات تستلزم
عذاباً أشق في دار الجزاء فأبدله الله بما يتعرض له من مصائب في الدنيا
وهي بهذا المعنى تكون تكفيراً للذنوب ان هو قبلها برضا . ودليل هذا
قوله تعالى * ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة
فمن نفسك * (١) وما قررت من معنى مستدلاً عليه بهذه الآية الكريمة

هو الذي نحا إليه البيضاوي في تفسيره للآية الكريمة حيث قال بخصوص
قوله تعالى * فمن نفسك * مانصه : " لأنها السبب فيها لاستجلابها بالمعاصي"
نوه يد هذا المعنى بما أخرجه ابن ماجه بسنده من حديث ثوبان
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يزيد في العمر إلا البر
ولا يرد القدر إلا الدعاء " وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه" (٢)

وبما أخرجه مسلم في شأن قوله تعالى * من يعمل سوءاً يجز به
ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً * (٤) من حديث أبي هريرة حيث
قال : " لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وبلغت منهم ماشاء

الله تعالى فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " سدوا
وقاربوا فلن في كل ما أصاب المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها" .
(٥)

-
- (١) سورة النساء آية ٧٩ .
(٢) انظر تفسيره مع حاشية الشهاب ج ٣ / ١٥٨ نشر دار صادر .
(٣) سنن ابن ماجه كتاب الفتن ج ٢ / ٣٨٥ ط / الأ ولي بتحقيق الأعظمي
وحسنه في مصباح الزجاجة انظر منه ج ٤ / ١٨٢ ط / الأ ولي بيروت .
(٤) سورة النساء آية ١٢٣ .
(٥) صحيح مسلم بشرحه النووي - باب ثواب المؤمن من فيما يصيبه ج ١٦ / ١٣٠ .

وما رواه أيضا أبو موسى الأشعري حيث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو ما دونها الا بذنب وما يغفوا الله تعالى عنه أكثر " (١) هذا أولا .

وثانيا : الموت من حيث تقدير الشرور ووقوعها ينطلق من معنى قوله عز وجل * ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن تبراها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور * (٢)

فالموت من حينما ينظر في هذه الآية يجد أن ما يصيب الانسان من بلايا هو مكتوب ومقدر قبل أن يخلق الله الانسان وأيضا ما يصيبه هو أسرع على الله عز وجل في ايجاده وحينئذ الموت من لا يحزن على ما فاتته ولا يفرح بالحاصل له لا أدراكه أن كل ما على الأرض مقدر ، فلا يحزن لفوات محبوب أو حصول مكروه . وأيضا لا يفرح بما أوتي لكي يوطن نفسه اذا فارقه ، لأن الله الخالق المالك له أن يمتحن عباده بما شاء سواء أكان ذلك من الأشياء التي يكون وقعها عليهم خفيفا أو ثقيلا وله أن يبلى وأخبارهم كيف أراد حسب مشيئته المطلقة له أن يظهر أسرارهم بما يبتليهم به من مكاره أو مسار و لله في ذلك الحكمة البالغة فلكل زمان مصلحة تليق به ، ولكل زمان شكل من المحسن التي تظهر حقائق أهله وانطلاقا من هذه / فلا يفخر الموت من بما أعطاه الله من نعم ولا يبطر

(١) أخرجه الترمذى في جامعه وقال هذا حديث غريب لا نعرفه الا من

هذا الوجه . كتاب التفسير ، تحفة الأحمدي ج ٩ / ١٢٩ .

(٢) سورة الحديد آية ٢٢ ، ٢٣ .

ولا يتكبر على غيره من الناس لأن معتقده أن تلك النعم مصدرها من فضل الله عليه وليست من عنده ولا من علمه بل هي من عند الله وقدرته وحكمته ولذلك يسلك سبيل الشكر عند حصول النعمة ، وسبيل الصبر عند حلول النعمة . إذا كان اعتقاده كذلك وهو أن الكل حاصل بالأمر الكوني ، فلا يمكن أبداً أن يحدث خيراً أو شرّاً بقدرته الله وأمره وإذا تيقن السوء من أن المصائب مكتوبة وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه هان عليه وقع المصائب وخفت عليه محاملها . ومن هنا لا ينبغي للإنسان أن يتساءل عما هو غيب عنه ولم يكلف بتبعاته وبالتالي ليس مسئولا عما يقع من هذا الطريق وإنما المسئول عنه هو الأمر الشرعي (١) ومن هنا كان على المؤمن أن يلتزم بما أمر به شرعاً فلا يخرج عنه . من أجل ذلك ينطلق المؤمن من بناء على الأمر الذي يتعلق به نجاحه في الاختبار فلا يسيطر من شدة فرحه بالنعم ولا يتسخط إذا حلت بساحته النقم ؛ لأن الكل واقع بأمر الله المبين في قوله عز وجل ﴿ قل كل من عند الله ﴾ (٢) وفي هذا المعنى يقول العلامة الألويسي ما نصه : " وقوع الأولى - الحسنة - منه تعالى بالذات تفضلاً ، ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلى بها عقوبة " (٣) . وقد قال الغزالي في كتابه : ميزان العمل (٤) من حيث بيان موقف الإنسان مما يصيبه . ذلكم أن ما يصيب الإنسان لا يخلو

-
- (١) وفي هذا المعنى أضواء البيان للشنقيطي ج ٣ / ص ١٠ ، ط / الثانية . ١٤٠٠ هـ .
- (٢) سورة النساء آية ٧٨ .
- (٣) كتاب روح المعاني م ٢ / ج ٥ / ٨٨ نشر دار الفكر بيروت .
- (٤) ص ٣٩٠ ط / الأولى المعارف مصر .

إما أن يكون شيئاً قد وجب وجوده عموماً كالموت فلا ينجونه أحد كما قال عز وجل ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾^(١) فهذا علاجه غير ممكن قطعاً .
وإما أن يكون من الجائزات وهو قسمان : لا يمكن رفعه كالموت قبل الهزم وكلا الأمرين الحزن فيهما وعدم الرضا بهما لا يليق بالإنسان العاقل فكيف بالمؤمن . وإن كان الممكن مما استطاع رفعه كعلاج الأمراض ، فينبغي معالجة ذلك بالتعقل والرضا . والمرء بعد ما يفعله لدفع البلاء بأن يجتهد في ذلك لا يلوم نفسه إذا لم يندفع البلاء بل يسكن خاطره لا سيما المؤمن من - حينئذ فموقفه خاص بحديث يتلقى ذلك كله بالصبر والرضا بقضاء الله ويسأله اللطف والعافية ولا يخوض في مسألة القدر المغيب عنه بل يلتزم بالأمر والنهي الشرعيين .
إنتهى بمعناه وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً في هذا الصدد فمن نظر إلى الحقيقة القدرية وأعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد كان مشابهاً للمشركين ومن نظر إلى الأمر والنهي وكذب بالقضاء والقدر كان مشابهاً للمجوسيين ، ومن آمن بهذا وبهذه فإنه أحسن حمد الله تعالى وإذا أساء استغفره وعلم أن ذلك بقضاء الله وقدره فهو ممن المؤمن . فان آدم - عليه السلام - لما أذنب تاب فاجتبه ربه وهداه ، وإبليس أصروا واحتج فلعننه الله وأقصاه . فمن تاب كان آدمياً ومن أصروا احتج بالقدر كان إبليسياً .^(٢) إن ذنبا فإذن يبغي للإنسان النظر فيه هو

(١) سورة آل عمران آية ١٨٥ والانبيا آية ٣٥ .

(٢) الفتاوى ج ٨ / ٦٤ ط / الأولى ١٣٨١ مطابع الرياض .

الأسباب المؤدية الى التعرض لتلك المصائب الواقعة بأمر الله . إذا
أدركنا هذا المعنى نجد أن ما يتعرض له الانسان من بلاء إما أن يكون
جزاء لما اقترفته يده بخروجه عن لوازم الايمان كخالفه أمر أو ارتكاب
نهي فيتحول حال الانسان من السلامة إلى البلاء إذ المساس بواجبات
الايمان يجعل الانسان في مكان يستحق فيه العقوبة فلا آمن لمن
يرتكب المعاصي ويتعدى الحدود من حلول المصائب به نتيجة فعله
المخالف لقواعد الايمان يظهر ذلك جليا في قول القرآن الكريم * ظهر
الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا
لعلهم يرجعون * (١) ، وقوله سبحانه * وما أصابكم من مصيبة فبما
كسبت أيديكم ويعفو عن كثير * (٢) وقوله عز وجل * ولو أن أهل القرى
آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم
بما كانوا يكسبون * (٣)

من خلال هذه الايات الكريمة ندرك أن الاخلال بالواجب
الايماني يؤدى الى العقوبة سواء الخاصة منها أو العامة كما وقع لكثير
من القرى الظالمة مثل ما جاء في قوله عز وجل * وإذا أردنا أن نهلك قرية
أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ، وكم أهلكتنا
(٤)
من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا *

-
- (١) سورة الروم آية ٤١ .
(٢) سورة الشورى آية ٣٠ .
(٣) سورة الأعراف آية ٩٦ .
(٤) سورة الاسراء آية ١٦ ، ١٧ .

إنّ فالمعاصي سبب في إصابة الانسان بالنوائب وذلك للتكفير والاعتبار
وبالتالي لاثارة الانتباه لمن يريد أن ينحو نحواً أولئك فيسلك طريقهم
فيصاب بمثل ما أصيبوا به ، هذا في جانب المصائب العامة . وهناك
جانب خاص بالفرد فقد تحمل المصيبة بشخص أو أشخاص معدودين
وذلك للعقاب أيضا كحلول الأُمراض الممكن علاجها ، إلا أن أحوال المؤمن
جميعها كلها خير فما يحل به من مصائب هو على أية حال خير له
وعاقبته غفران الذنوب أو رفع الدرجة والمثوبة الحسنی ، وإنما عليه فالموءمن
بصير سميع فهمشي في نور الله على صراط مستقيم في الدنيا والاخرة حتى
يستقر به الحال في دار السعادة الأبدية ، نجد هذا الوعد الصادق في
قوله صلى الله عليه وسلم : "عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس
ذاك لأحد إلا للمؤمن من إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته
ضراء صبر فكان خيرا له" (١) وفي قوله صلى الله عليه وسلم : " ما
يصيب المسلم من نصب (٢) ولا وصب (٣) ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم
حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها" (٤) وفي قوله صلى الله
عليه وسلم : " إن الله قال إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة" (٥)

-
- (١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث صهيب . انظر كتاب شرح النووي
له ج ١٢٥/١٨ الزهد .
- (٢) هو يفتح التون والصاد التعب . يقال نصب ينصب من باب طرب
تعب . كتاب النهاية مادة : نصب . ج ٥/٦٢ .
- (٣) الوصب دوام الوجع ولزومه . كتاب النهاية . وصب ج ٥/١٩٠ .
- (٤) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة انظره بشرحه
فتح الباري كتاب المرض ج ١٠ ص ١٠٣ . باب ما جاء في كفارة
المرض .
- (٥) أخرجه البخاري في صحيحه انظره بشرحه فتح الباري ج ١٠/١١٦
كتاب المرض باب فضل من ذهب بصره .

في هذه النصوص الصحيحة دلالة واضحة على أن المصائب بالنسبة للمؤمن كقارة لذنوبه وبالرضى يوم جر على ذلك ومن لم يرض بما أصيب به فقد تراكم عليه البلاء مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم : " إن أعظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط (١) .

وهذا يعطينا : أولا : أن البلاء والمصائب بالنسبة للمؤمن هي من كرم الله عليه حيث تكفربها ذنوبه في هذه الدنيا مما يلاقيه من تلك الآلام وما يجده من حواجز تمنعه ما قد يسعد به في الدنيا ويحرم بها لذات الحياة التي يتمتع بها غيره ، فالمعاصي وإن سبب من أسباب حلول البلاء بساحة الانسان .

ثانيا : وأما أن يبلغ المؤمن بما يصيبه من بلاء درجة عليا فيعطى من الثواب ما يوازي تلك المصائب إن رضي وصبر واسترجع كما جاء في القول الكرهم : * وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون * (٢) . ذلك أن المؤمن حينما يترقى أو يصل الى درجة عليا من الايمان يشتد عليه البلاء للترقى في المثوبة ، فالذين بلغوا درجة قصوى من الايمان تقسوا المحن عليهم فكلما صعد

(١) أخرجه الترمذى في جامعه من حديث أنس وحسنه ، انظر كتاب

تحفة الأحوذى ج٧٢/٧٧ نشر المكتبة السلفية .

(٢) سورة البقرة آية ٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

الانسان في سلم الايمان وترقى في درجات الكمال الروحي كلما تراكمت عليه الاختبارات ليظهر صدقه في ذلك ومن هنا نرى الصفة من الخلق أكثر الناس بلاء وفي مقدمتهم الأنبياء كما يأتي توضيح ذلك. هذا فيما يتعلق بما يخص الموت من فما يصيبه من بلايا وبيان موقفه من ذلك.

أما الكافر فهو بكفره قد ابتعد عن السعادة إذ لا سعادة بدون إيمان والفترة شاهدة بذلك والسلوك قد أقر ما شهدت به الفترة ومن هنا فحال الكافر فيما يصيبه من شرور هي بمنأى عن حال الموتى من لأنه أعمى وأصم، في ظلمات يمشي لا خروج له منها بل هو يتيه في غميه وضلاله في الدنيا والاخرة حتى يفضي به ذلك إلى النار دار الشقاء السرمدي ، ومن هنا لما كان ينتظره عذاب مستقر كان تعرضه للمصائب نادرا بالنسبة لما يصيب الذين ترقوا في درجات الايمان . ويكفي الكافر مصيبة أنه شبيه بالحيوان حينما اختار الكفر كما جاء في قوله عز وجل ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ (١) ، والآية الكريمة تدل على أن الكافر يعطي حظه من نعم زائل ، نعم لا مقارنة بينه وبين ما ينتظر الموتى من من النعيم المقيم ومن الثواب العظيم على ما يصيبه من بلاء في هذه الدنيا في نفسه وماله ، وأما الكافر فقليل ما يصاب بالالام المادية وإن وقع له شيء من ذلك لم يكفر عنه شيئا من سيئاته بل يأتي بها يوم القيامة كاملة ، فلأن الموتى من لم يفقد شيئا في الحقيقة ، والكافر هو الخاسر ، يبين هذه الحقيقة

قول المصطفى صلى الله عليه وسلم " مثل الموء من كمثل الخامة (١) من
الزرع من حيث أتتها الريح كفاتها (٢) فاذا اعتدلت تكفاً (٣) بالبلاء
والفاجر كالأرزة (٤) صاء معتدلة حتى يقصمها الله اذا شاء ، وفي
رواية أخرى قال صلى الله عليه وسلم : " مثل الموء من كالخامة من
الزرع تفيو ها الريح مرة وتعديلها مرة ، ومثل المناق كالارزة حتى
يكون انجعافها (٥) مرة واحدة " . (٦)

وهذا معناه أن الكافر قد تيسر له الاسباب التي تجعله يتمتع
في الدنيا بما يشاء ولا يصاب بالبلاء إلا نادرا وربما إذا أصيب بشيء
منه يكون انتقاما كما إذا تجاوز الحد وأضر بغيره أو بما قد يكون سببا في
إلحاق الضرر بأهل الايمان كإرادة طمس الايمان بالكلية في مكان ما فيمنع
بما قد يهلكه ، أو يصاب بما تسبب فيه من هلاك لنفسه فيردعه بينما
يتعسر الأمر عليه في دار المعاد بحيث يهلكه الله أشد الهلاك فيقصمه

-
- (١) هي الطاقة الغضة اللينة من الزرع . النهاية ج٢/ ٨٩ ، خوم .
(٢) أي أمالتها . انظر الفتح لابن حجر ج . ١ / ١٠٣ كتاب المرضى .
(٣) مضارع حذفته منه تا . المضارعة كما قال ابن مالك .
وما بتاء ين ابتدى قد يقتصر فيه على تا كتبين العبر
ومعنى تكفاً مال . انظر الفتح نفس المصدر السابق .
(٤) يسكون الرء وتحمها شجر الأرزة وهو شجر معروف . وقيل
هو الصنوبر . النهاية لابن الاثير ج١/ ٣٨ مادة : أرز .
(٥) معناها انقلعها . انظر النهاية لابن الاثير ج١ / ٢٧٦ جعف .
وانظر الفتح لابن حجر ج . ١ / ص ١٠٧ كتاب المرضى .
(٦) أخرج الروائين البخارى في صحيحه من حديث كعب بن مالك
، بشرحه الفتح لابن حجر ج . ١ / ١٠٣ كتاب المرضى .

بما لا يقاء له معه فيؤخذ أخذاً أليماً كما قال عز وجل ﴿ ولوترى إن يتوفى
الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذاقوا عذاب الحريق
ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ (١)
ثم إن الكافر فاقد للاطمئنان مصاب بالاضطراب الفكري والحركي
ويضحى جزوعاً عندما يصاب بالآلام ، لأنه أسامياً يجهل اتجاهه وسيره في
الحياة وبالتالي تراه يخرج بين الفينة والفينة للاجابة على سوءالات
تخطر على باله ولا يستطيع الاجابة عنها ولن يستطيع إلا من خلال الاسلام
وإلا سيصاب دوماً بظلام في قلبه . نجد هذه الحقيقة في القول الكريم
﴿ ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يوء من باله يهد ﴾ (٢) قلبه ﴿ (٣)
وذلك أن الايمان فيه راحة للقلب واستكانة للنفس . والكافر يفقد ذلك
لخلو قلبه من الايمان فهو في قلق ينازعه وفي اضطراب يثيره وحسناً يقع
في مصيبة لا يدرى مصدرها ولا من اخترعها وأنشأها ، لأنه لما فقد
عقيدة الايمان الذي يربطه بربه ويجعله قوى الاعتقاد عصامي الموقف
مطمئن البال عند النوازل لما فقد تلك العقيدة لم يهدأ قلبه ولن
يستريح باله حتى يوءى به ذلك الى انهيار عصبي مما يسببه زيادة
نزول المصائب به وحلول النكبات عليه والعيان باله ولم يستقر مبدوءه .

(١) سورة الأنفال آية ٥٠ ، ٥١ .

(٢) وقرأ عمرو بن دينار ومالك بن دينار يهدأ بسكون الهمزة ورفع
قلبه على الفاعلية بحيث يصير المعنى يطمئن قلبه ويسكن بآيانه ،
ولا يكون فيه اضطراب . انظر البحر المحيط لأبي حيان ج ٨ / ٢٧٩ ط / الثانية .

(٣) سورة التغابن آية ١١ .

ما يفقد معه الاطمئنان عندما يصاب بالضراء بل يهبط إلى درك الجزع والتسخط ، فيزداد غواية كلما أصيب برزية في نفس أو مال أو ولد . وهكذا قد وضع الفرق بين موقف المؤمن وموقف الكافر ، وبعد هذا فالإنسان بتعرضه مرة للحسنات ومرة للسيئات وكلاهما من عند الله خلقا وإيجادا ، ألا يريد سوء ال ، مفاده : أليس من الأفضل للإنسان أن لا يصاب بهذه الآلام وأن تكون رحلته في هذه الدار مليئة دوما بالمسرات والمفرحات؟ لتوضيح الاجابة عن ذلك أقول :

من المتفق عليه لدى جميع النحل الاسلامية أن الله حكيم وعادل وأن له الملكية المطلقة . وأن الانسان متصف بالعبودية لله فهو أولا وأخيرا عبد لله لا يستطيع الخروج عند أمر الله الكوني . ثم إن الانسان أمام هذه الحقيقة المتفق عليها يكبح وفق نظام اختاره الله المالك ، نظام شاءت إرادته سبحانه أن يكون مسار الانسان فيه مسلسلا بأسباب وقدرة محددة لا تتقدم عن وقتها ولا تتأخر ، أعني تحرك الانسان في ذلك النظام المقنن المرسوم يكون مربوطا بنتيجة ما يفعله الانسان وهي الأسباب التي تنشأ عنها المسببات ، فما يجده في دنياه من شر يلاحقه هوناته عن تحركه في موطن حذره الشارع الحكيم من قربه . وإن كان الشر خلقا وإيجادا هو من عند الله ، إلا أن الله حذر الانسان من الوقوع في أسبابه ، صحيح أن الآلام خلقا وإيجادا هي مثل كل ما خلقه الله من الأشياء الضارة أو النافعة . بدليل قوله

تعالى ﴿ والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾^(١) ، ولكن استحقاق الانسان للمصائب هو بناء على تحركه وعلى ما ارتكبه وتسبب فيه . وهذا عدل ولطف ، وإلا لما ظهر لأصحاب الفضل والامثال مقام ، وبالتالي لو وقع ما ينافي الحكمة وما هو الا لطف بالانسان^(٢) ولذلك لا ينبغي للانسان وهو العبد المملوك لله أن يتجراً ويقول : يجب على الله فعل الأصلاح بالانسان . ويعجب بالانسان من أهل الاعتزال حينما يلهجون بلفظ الوجوب على الله بفعل كذا . أليس في هذا خروج عن مقام العبودية . أليس أن الله قال ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾^(٣) وقال ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾^(٤) .

وبعد هذا ، فماذا عسى يجد الباحث عند أولئك الذين أساءوا

الأدب بالخروج عن المنهج السليم في معالجة قضية ما يسر به الانسان وما يحزنه من مكروهات حيث أوجبوا على الله رعاية الأصلاح بالانسان . حتما سيواجه بباب مفلق إما أن يصل بك الى الجرأة بمجاوزة حسد و العبودية فيوجب على منشئه من العدم ما لم يكن واجبا عليه أصلاً ،

(١) سورة المائدة آية ١٧ .

(٢) انظر فصل الابتلاء بالخير والشر مطلقا فقد ذكر فيه جانباً مما

يتعلق بالحكمة من الابتلاء بهما .

(٣) سورة هود آية ١٠٧ .

(٤) سورة القصص آية ٦٨ .

ولما أن يقف بك دون إجابة ويترك في مائة لا حدود لها وذلك حينما يصل بك بعض من أوجب على الله رعاية الأصلاح الى أن الله لا يقدر أن يفعل للعبد أصلاح ما فعل به ألا ترى أن في هذا نسبة العجز المحال على الله الذي له القدرة المطلقة . وحينما تجد من احتج على من أوجب على الله فعل الأصلاح بما قد يوهم الظلم للخلق، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، يقضية من مات صغيرا وآخرا مات كبيرا ، فاحتج الكبير الذي حُـق عليه العذاب بفعله بأنه لومات صغيرا لما استحق النار ، والصغير احتج على من ارتفعت درجته بطاعته بأنه لوبقي حتى بلغ لارتفعت درجته ألا ترى أن في هذا مغالطة وتجاوز الانسان صفة العبودية ؟ ولذلك يمكن القول بأن هذا الافتراض مرفوض عقلا من وجهين في نظري .

أولا : لأنه يؤدى الى افتراضات لا نهاية لها وذلك محال عقلا بحيث يستدعى ذلك افتراضات تتجاوز ما يستطيع الانسان ادراكه لأن الصغير من يدرسه أنه سيسلك طريق الكفر لوبقي ؟ ، والكبير لومات صغيرا لاحتج بما احتج به الصغير من أنه لوبقي لارتفعت درجته ، ولذلك فان الله عزوجل لم يجعل قصر الأجل أو طول مربوطا بسعادة الانسان أو علو درجاته في تلك السعادة ، أو مربوطا بشقاءه أيضا في علم الانسان ، اذن ليس طول الأجل متعلقا بكفر زيد أو ايمان عمرو بدليل أنه ليس كل من كبريات مؤمنا . أو مات كافرا بل هناك من آمن وهناك من كفر وبدليل أنه ليس لدينا نص قاطع على أن كل من مات صغيرا

يدخل الجنة بدون ميزان الأعمال بل الذى ثبت أن الأطفال هم من الذين سيتمحنون في عرصات القيامة (١) يوم يد ذلك ما رواه البخارى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يقول : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن زرارى المشركين ، فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين (٢) . إذن العمل هو الميزان لسعادة الانسان ، وهذا يبطل الاحتجاج بأن الصغير لوبيقى حتى يكبر لنال درجات عليا أو احتجاج الكبير الكافر لومات صغيرا لما استحق النار .

ثانيا : قائل هذا الافتراض غفى نظره وغفل عما خلق له أصلا وذلك أن الذى لا جدال فيه ولا يستطيع أن ينكره أحد أن الله له التصرف المطلق في ملكه وشاء أن يخلق الانسان للابتلاء . والابتلاء مبني على عدة جوانب يقتضيها اجراؤه ، مثلا موت الصبي يبتلى به بحيث يظهر من يصبر من أبويه ويحتسب ويستسلم لربه فيستحق المثوبة بذلك ومن يجزع فيستحق العقاب بتسخطه وعدم رضائه بفعل ربه ، أو يبتلى به من حيث قد يتسبب في كفران أبويه بحبهما له فيسلكون مسلك الكفر بسببه لوبيقى حيا كما جاء في قصة الغلام الذى قتله الخضر حيث يقول سبحانه * وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا * (٣) نقل عن قتادة قوله (٤) : قد فرح به أبواه

-
- (١) انظر الفتح عند سابع الأقوال في المسألة ج٣/٢٤٦ ، وانظر كتاب ايثار الحق على الخلق لابن الوزير ص ٣٤٠ .
- (٢) انظر صحيحه بشرحه فتح البارى ، الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين ج٣/٢٤٥ .
- (٣) سورة الكهف آية ٨٠ .
- (٤) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣/٩٨ نشر مكتبة التراث القاهرة .

حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولوبيقي لكان فيه هلاكهما فليرض امرؤ بقضاء
الله . وبهذا الذى بينته بطلت تلك الافتراضات .

وجملة القول أن ما يصيب الانسان من آلام له فيها مصالح جمة
قد أدركنا منها ما أدركنا وخفي علينا منها ما خفي ، وما يظهر من تلك
المصالح أن ما يصاب به الانسان من آلام قد تكون تكفيرا لما قد ارتكبه
من مخالفات للمنهج الذى التزمه فتطهر نفسه ويغسل قلبه مما قد علق
به من أدران المعاصي كالحسد والكبر والغمط بظلم العبيد فيرتدع
عن ذلك بما قد يصيبه من آلام حسية كالأُمراض الجسدية ، أو معنوية
كالإصابة بضيق الرزق وضاع المال وما أشبه ذلك . والانسان المؤمن
بأن المصائب من تدبير الحكيم العليم وأنه لا مفرله عنها يتضرع الى
الله عندما تنزل به أية مصيبة فيظهر بتضرعه ذلك عبوديته لله ربه
ذى العزة والجبروت فيصل بذلك الى الترقى في درجات الكمال . وهذا
يعطينا حقيقة هي أن المصائب تسهل الوصول الى النعيم الخالد فني
الملكوت الأعلى وسبيل لنيل الجزاء الأوفى في الجنة وذلك أنه حينما
يتصور الانسان مصابه بهذا الشكل من أنه طريق لتنقية ضميره وتهذيب
نفسه من الرواسب المادية يكون مصابه سلما للترقى في الخير وذلك يظهر
في أن الغالب بما يصاب به الانسان يكون منبها له ومحذرا لإياه خلال
مساره الذى يتحرك فيه . فلربما كان مذهبه في الحياة معوجا وسلوكه غير
سليم من حيث لا يدري ، أو يدري لكنه غير مبال وذلك نتيجة لما قد

يطراً على القلب بعض من الغفلة الطفيفة التي تنقشع بأدنى شيء من الانتباه ، فإذا لم يبلغ درجة الختم والطبع فقد تدفعه المصائب إلى مراجعة تحركه والنظر فيه فيتغير مساره ، وحينئذ ينجو بمصائب الدنيا من خسران الآخرة ، وشتان ما بين طبيعة الدارين في المصاب ويكفي أن مصاب الآخرة ينسي أهل النعيم لذاتهم التي كانوا يتمتعون بها في الدنيا ، كما أن النعيم في الآخرة ينسي كل ما حل به من مصاب كما جاء في الدنيا في الحديث الصحيح الذي مر تخريجه (١) وبدليل ما جاء في القرآن الكريم * ولعذاب الآخرة أشد وأبقى * (٢) ومثله من النصوص كثيرة إلا أنني في هذا البحث لست بصدور تعداد أوصاف ما أعدّه الله من أنواع العذاب الأليم في عالم الآخرة . وإنما المقصود عندي أنه بالمصائب قد يندم الانسان ، ويدرك مسئوليته فينهض لتدارك الموقف ويبحث عن أسباب الغفلة ومسالك الخطأ ليتجنبها ويعود إلى الرشد والصواب .

وهكذا كلما يصاب المؤمن بما يؤلمه يندفع لمراجعة تحركاته الشهوانية وصولاته الشريرة فيكبح جماح ذلك بتفكيره العادل ، وذلك أن المصائب حينما تأخذ من الانسان مأخذ الحبيطة والاتعاظ تكون نعمة وتنقلب سعادة ، ومن هنا لا ينبغي للانسان العاقل أن يجزع

(١) انظر ص ١٦٣ هامش (٢) .

(٢) سورة طه آية ١٢٧ .

من المصائب بل الواجب عليه أخذ التجربة منها وجعلها درسا يصلح به ما مضى من أخطاء في تحركه ، يوء يد هذا أن الانسان الذى تعرض للمرض والمرارة والأسى يختلف تماما عن لم يذق ساعة مرارة ولا آلام مصاب واحد ، فلولا الشرور لما عرف للخيرات قدرها إذ لا يتبين الانسان العافية ويقدرها قدرها إلا إذا مسه وجع أو ضر أو دهمه فزع كما قال أبو تمام (١).

والحادثات وإن أصابك بوء سها فهو الذى أنبأك كيف نعيمها وبدليل أننا نرى ونسمع التشكي من المبتلى بكثرة وقليل ما نجد الشكر من المعافى ، فالمصائب اذن حينما ننظر في عواقبها وما ينتج عنها من منافع نجدها لطفا من الله بعباده رغم أن الانسان الموء من ما تصيبه مصيبة ويحتسبها إلا كان له الأجر ، ويضاف لذلك أنه كما سبق ، لولا المصائب لطفى الانسان وتكبر وفسق ، كما قال عز وجل * ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ، إنه بعباده خبير بصير * (٢) ، وقوله سبحانه * ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون حتى إذا فتحنا عليهم بابا نازا عذاب شديد اذ ا هم فيسه ملبسون * (٣) فلو كان الانسان - باستمرار يتقلب في النعيم لما صلح شأن الانسانية وفوق كل هذا فان المصائب هي المحك الذى يتميز به

(١) من بحر الكامل .

(٢) سورة الشورى آية ٢٧ .

(٣) سورة الموء منون آية ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .

أهل الايمان من أهل الكفر وأهل الصبر من أهل الجزع ، فهذا التعمين
والانفصال لا يتم الا بالابتلاء بالمصائب كما قال عز وجل * أم حسبتم
أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين *
(١)
وهذا قد باننا لدينا الحكمة من المصائب وبالتالي ثبت عندنا أن المصائب
علاج للأمراض القلبية التي تعلق بالانسان المستخلف في هذه الأرض
وذلك حينما يخرج عن قواعد الخلافة المنوطة به يتعرض للمصائب عليه
يستقيم ويرجع الى سواء السبيل . وأن ما يناله من مكروهات وشدائد ترفع
به درجاته في مثل ما يلقاه الدعاة من أهل الكفر والكبر والطغيان الذين
يحاربون الله في دينه وشرعه وينفقون كل ما يملكون ويسخرون جميع ما
أوتوا من قوة ليصدوا عن سبيل الله .

(١) سورة آل عمران آية ١٤٢ .

الباب الثالث

الابتلاء في طريق الدعوة الى الله

ويشتمل على الفصول التالية :

الفصل الأول : ابتلاء الأُنبيا وأتباعهم

الفصل الثاني : ابتلاء الأُمم المدعوة قبل الاجابة

الفصل الثالث : ابتلاء الأُمم المدعوة بعد الاجابة

توطئة :

قد علمنا في الباب السابق أن الانسان مبتلى بالخير والشر،
والخير شامل لجميع النعم التي أساسها في الدنيا الطاعة والانقياد لرب
العباد سواء فيما هو معنى كتوحيد الله أو مادي فيما هو شامل للمال
والولد حيث جعلهما الله طريقا للابتلاء بالنعم المادية، والشر شامل
لجميع النقم والمصائب التي أعظمها الكفر بالنعمة فيما هو معنى والتي
لا تخرج فيما هو مادي عن أن تكون ضرا في النفس والمال والأهل، وعلمنا
أن طريق الابتلاء بهما هو ما شرعه الله من تكليف إذ هي التي تبين
نجاح الانسان من حيث امتثاله للأمر واجتنابه للنواهي . وهي الميدان الذي
يظهر فيه العمل الحسن من العمل السيء ، وذلك مقتضى الابتلاء . والتكليف
كما سبق ضروري للانسان ، والاهتداء الى ما هو ضروري لا بد فيه من سلوك
طريق سليم يركن إليه موقنا بالنجاة فيه ، وبالتالي يجد فيه الاجابة
عما قد يتساءل عنه انطلاقا من عقله وفكره . لا سيما أن الانسان حمل أمانة
الخلافة ، فلا بد من طريق يدرك فيه كيفية معالجة مسئولية الخلافة التي
هي العلم والعمل والبناء والتعمير مع ارتباط الانسان بالملكوت الأعلى
بحيث لا يصرفه العمل في الحياة الدنيا عن التعلق بالدار الآخرة بل
يحسب لها الحساب الكبير فيكون تحركه في دار الخلافة من أجل دار
الجزاء . فالانسان إذن - والحالة هذه - هو في حاجة الى من يهديه
إلى الطريق السوي وهم الأنبياء عليهم السلام فلنتعرف على دعواتهم
ومواقف أممهم منهم وما في ذلك من ألوان الابتلاء الذي نجحوا فيه فكان
لهم نصر الله المبين .

الفصل الأول

ابتلاء الأنبياء وأتباعهم

قلت الانسان في حاجة الى من يهديه إلى الطريق المستقيم وليس ذلك إلا من طريق رسل من البشر حيث تثبت بالتجربة أن الانسان بعقله فقط لا يهتدى الى ما هو صواب وحسي في دار الدنيا كما أنه لا يستطيع التمييز أو الوقوف على معالم دار الجزاء بحيث لا يدرك طبيعة الحياة فيها ولا كيفية الجزاء الواقع فيها ولا صفة الثواب وغير ذلك مما يتعلق بعالمها . ولذلك نرى أنه كلما خلت فترة من الرسل كلما انصرف الانسان وهبط عن التكريم الذي خصه الله به دون كثير من خلقه إذ لا يخلو المجتمع الانساني من مقومات الفضائل التي يسعد بها الانسان والركائز التي يقوم اليها استقراره ، وذلك أن الله شاءت إرادته أن تكون راحة الانسان وسعادته في مقومات لا يخلو منها عصر الا تعرض للشقاء وذلك جلي في أنه لا بد من ارتباط حياة الانسان بتلك المقومات كالصدق والعدل والأمانة وما شابه ذلك وكل ما يتم فيه سير الانسان مع أخيه الانسان فبالأمانة تحقق المصلحة لكل فرد في ذاته أو مع غيره . وهذا يجعل الانسان في حاجة لتلقي تلك المقومات ممن هو خبير بأمر الانسان فيما يسعده ويصلح شأنه . ولم يكن هذا الخبير العليم بما يصلح شأن الانسان إلا الله وحده واجب الوجود والانسان لا يستطيع إدراك صفات واجب الوجود أو الأحكام الشرعية بعقله فقط كما قرر ذلك صاحب مراقبي السعود حيث قال :

والحكم ما به يجيء الشرع وأصل كل ما يضر المنع

يقول شارحه ما نصه : (١) " يعني أن الحكم التجيزي هو ما جاء به الشرع أى البعثة فلا حكم تجيزيا يتعلق بنا قبل البعثة لأحد من الرسل " وأقول : صحيح أن الانسان مضطر إلى الايمان بقوة فوق قوته وإلى أن هناك منشأ للكون يجب أن تكون له جميع صفات الكمال لكنه لا يستطيع إدراك المسائل المفصلة في حق واجب الوجود فيما يخص ذاته وصفاته وأفعاله وغير ذلك ما هو مختص بالألوهية إلا بالوحي. والانسان أمام هذا العجز وحتى فيما يصلح به استقراره ذاته هو في حاجة كما قلت لمن يهديه إلى ما هو حق وصدق وحسن له في معاشه ومآله والى نور يستطيع عن طريقه الثبات والاستقرار في القول والعمل ما يؤدى به في النهاية الى النجاح ، يقول سبحانه * يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما * (٢) ويقول أيضا * فلما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * (٣) ، ويقول عز من قائل * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسول وكان الله عزيزا حكيم * (٤) ويقول سبحانه * ولو أننا هلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى * (٥) فهذه الآيات الكريمة تدل على أن الانسان

(١) نشر البنود للشنقيطي ج١/ ٢٨ ط / فضالة : المغرب .

(٢) سورة النساء آية ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٣) سورة طه آية ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٤) سورة النساء آية ١٦٥ .

(٥) سورة طه آية ١٣٤ .

في حاجة الى رسل من البشر يرشدونه الى طريق الهدى ، ولذلك أفحم القرآن الكريم الذين جاءوا الى الرسول وطلبوا منه إنزال الملائكة ليخاطبوهم بدون واسطة بشر ، وهذا شيء غير ممكن بالنسبة لخصائص الانسان وذلك أنه لو كان الرسول ملكا لما استطاع مخاطبة الانسان العادى الذى لم يعد للتلقى من الملك إلا إذا تحول إنسانا ، فوجب كون الرسول بشرا يوء يد هذا قوله تعالى * وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون * (١)

يضاف لذلك أن الله لو جعل الرسل المبلغين للعامة من البشر ملائكة لحق الهلاك وعجل للمعاندين الذين لم يستجيبوا من اللحظة الأولى وبالتالى لما استمر الوحي يهديهم الى الحق ويدلهم عليه فترة طويلة في بعض الأمم تقرب من الفسنة ، تلك حقيقة بينها القرآن الكريم للذين استكبروا وعتوا وطلبوا نزول الملائكة حينما قال عز وجل * وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين * (٢) وهذا يعطينا أن ارسال الرسل من نعم الله على البشرية لا سيما المومنين منهم كما قال عز وجل * لقد من الله على المومنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلل مبين * (٣)

(١) سورة الأنعام آية ٨ ، ٩ .

(٢) سورة الفرقان آية ٢١ ، ٢٢ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٦٤ .

إذن ارسال الرسل لاصلاح البشرية ضرورة لهم تقتضيها طبيعتهم
 وفطرتهم خصوصا لما ثبت عجز عقل الانسان عن إدراك ما يوافق حاجاته
 الروحية والمادية وذلك خلافا لأهل الاعتزال كما مر معنا (١) بل العقل
 لم يستطع من أول وهلة أهبط فيها أبو البشر آدم عليه السلام إلى عالم
 الأرض لم يستطع الاهتداء إلى ما ينتفع به في حياته من الوسائل التي تمكنه
 من البقاء لولا تعلقه من لدن خالقه ، فقد علمه الله وألهمه معرفة ذوات الأشياء
 وأسمائها وخواصها ومعارفها كالحرث والحصاد والطحن وحراسة المواشى
 واتخاذ الأشياء منها كالفرش والارهان وكاستخراج المعادن وصنع الأواني
 منها الى غير ذلك من جميع أصول العلم وقوانين الصناعات وتفصيل آلاتها
 وكيفيات استعمالاتها فما كان للانسان أن يدرك ذلك لولا التعليم كما قال
 عز وجل * وعلم آدم الاسماء كلها * (٢) ، هذا فيما هو مادي ومحسوس
 وفيما هو ضرورة لبقاء الانسان ، فما بالك بما هو ضروري في تكريمه وتمييزه
 عن غيره من الخلق من تشريعات لا يمكن أن تصدر موافقة لمصالح الانسان
 إلا من لدن العليم الخبير ولا يهتدى الانسان إلى تلك التشريعات إلا عن
 طريق الإخبار من تلقاها عن الله من البشر وهم الرسل الذين لهم صفات
 خاصة هيئوا بها للتلقي ، وذلك أن الله جعل لأتاس قوة وقدرة على
 التلقي من الملائكة الذين يجب الايمان بهم بل الايمان بهم ركن من

(١) لرى ١٣٠ من فصل الابتلاء بالتكليف .

(٢) سورة البقرة آية ٣١ .

أركان الدين ، وهذا المعنى يعطينا أنه لا بد من إنسان يبلغ للناس ما يصلحون به مآلهم ومعادهم ، حتى لا يكون لهم حجة على ربهم كما قال عز وجل ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾ (١) إذن إرسال الرسل للناس لطف من الله ورحمة بالعباد لأنهم في حاجة إلى مبعوث يدلهم على ما لا يمكن التوصل إليه بالعقل ما هم في حاجة إليه ولا سبيل إليه إلا عن طريق إرسال الرسل . وهكذا في هذا الصدر أرسل الله رسلا اختارهم وتولى تهيئتهم لأن النبوة واختصهم برحمته ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير ﴾ (٢) ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (٣) فاختيار أناس للقيام بأمر الرسالة إذن هو لله العليم الخبير فهو وحده الذي يجتبي للرسالة من علم أنه يصلح لها كما أنه أعلم بالمكان الذي يضعها فيه فاختيارهم ومن عليهم بالحكمة والعصمة والأفضلية على من سواهم عن سائر البشر وأيدهم بما لا يدع مجالاً للريب في صدقهم فيما يبلغونه للناس من ربهم من آيات باهرة ومعجزات ظاهرة لا يكفر بعد مجيئها إلا المستكبرون .

ميث مأخذ
معنى النبوة
والنبي مأخوذ إما من النبأ وهو الخبر لأنه مخبر عن الله تعالى
وإما من النبوة وهو الارتفاع ، لأن الأنبياء هم صفوة الخلق وأعلاهم
شأناً . وهو أيضا إما فعيل بمعنى فاعل بدليل قوله تعالى

(١) سورة النساء آية ١٦٥ .

(٢) سورة الحج آية ٢٥ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٢٤ .

* نبي* عبادى أنى أنا الففور الرحيم * (١) وإما بمعنى مفعول بدليل قوله تعالى * نبأني العليم الخبير * (٢) والمعنيان صح اطلاقهما على النبي لأنه مخبر بكسر الباء عن الله ومخبر بفتح الباء من عند الله . وهو أيضا مهموز إن كان من النبأ ويدون همز إن كان من النبوة . وفي هذا الصدر يقول صاحب المفردات (٣) ما مفاده أن النبي يقال بالهمز وبغيره وهو أبلغ بدليل أنه ليس كل منبى* رفيع القدر والمحل . إن النبي انسان اختاره الله بحكمة من بين البشر للتلقى والاعلام بما قد لا تدركه العقول ولا يخلو إما أن يوء مر بتبليخ ما تلقاه عن الله أولم يوء مر ، فان أمر فهو نبي مرسل مع مراعاة ما يأتي من تحقيق في ذلك . والرسول مأخوذ من الانبعث والامتداد لأن الرسول مبعوث من قبل الله عز وجل للتوجيه والارشاد كما جاء في مقاييس اللغة (٤) وفي القاموس "والارسال أيضا التوجيه وبه فسر إرسال الله عز وجل أنبياءه عليهم السلام كأنه وجه إليهم أن أئذروا عبادى" (٥) وفي المفردات أيضا : "أصل الرسل الانبعث على التوءدة فيقال ناقة مرسله سهلة السير ، وإيل مراسيل منبعثة انبعثا سهلا ومنه الرسول المبعث ، وهذا يعطينا أن الرسول هو الانسان الذى يحمل بيانا بعد التلقى وانبيائه به ليوء ديه لغيره للارشاد وللإصلاح كما أنه يعطينا الفرق بين مدلول كلمة

(١) سورة الحجر آية ٤٩ .

(٢) سورة التحريم آية ٣ وانظر هذا المعنى في كتاب النهاية مادة

نبأ ج ٥ / ٤٠٣ .

(٣) ص ٤٨٢ ط / الحلبيية .

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج ٢ / ٣٩٢ مادة أرسل ، ط / الثانية ١٣٩ هـ .

(٥) القاموس الفيروزى بآدى فصل الرأ من باب السلام ج ٢ / ٣٤٤ نشر مكتبة الحياة بيروت .

(٦) كتاب المفردات للأصفهاني ص ١٩٥ مادة رسل ط / الحلبيية .

النبي والرسول . فمادة النبوة ليس فيها أكثر من الاخبار والاعلام بخلاف
مادة الرسالة تدل على أن هناك تلقيا وتبليغا لأن المرسل يلزم أن يكون
معه شيء مرسل به ، وهو ما أخبر به وتلقاه . وهذا يعطينا أيضا أن كل
رسول نبي حيث إنه أخبر وأمر بتبليغ ما أخبر به وهو الارسال ، وليس كل
نبي رسولا نظرا لأن النبي قد لا يؤمر بالتبليغ ، وهذا المعنى هو الذى
درج عليه أكثر العلماء في الفرق بين النبي والرسول وفي أن الرسول
أخص من النبي .

يقول ابن أبي العزفي شرحه للطحاوية (١) ، وقد ذكروا فروقا
بين النبي والرسول ، وأحسنها أن من نبأه الله بخير السماء إن أمره أن
يبلغ غيره فهو نبي رسول وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبي وليس
برسول . فالرسول أخص من النبي فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا
وهذا المعنى يخالفه ما حققه العلامة الألوسى في تفسيره لقوله تعالى
* وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فسي
أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آيئته والله عليم حكيم * (٢)
فالأية ظاهرة في أن النبي أيضا مرسل وهذا ما لاحظناه الألوسى إذ قال
ما نصه : " فلا بد لتحقيق المقابلة أن يراد بالرسول من بعث بشرع
جديد وبالنبي من بعث لتقرير شرع من قبله - الى أن قال - أو يراد نحو
ذلك ما تحصل به المقابلة مع تعلق الارسال بهما " . (٣) هذا ويضئ

(١) ص ١١٠ ط/ الأولى .

(٢) سورة الحج آية ٥٢ .

(٣) كتاب روح المعاني م ٦ / ج ١٧ / ص ١٧٢ .

الطحاوي قائلا : ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها ، فالنبوة جزء من الرسالة إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف الرسل فانهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم بل الأمر بالعكس . فالرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها .

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية في كتابه النبوات (١) ، فالنبي هو الذي ينبئه الله وهو نبيء بما أنبأه الله به ، فان أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول . وأيا ما كان الأمر في التفرقة بينهما فلا إشكال ، إنما الذي يهمننا في هذا البحث أن النبوة الزام وتكليف للقيام بالرسالة التي هي طائفة من التشريعات والقواعد والقوانين يوء ديهها الحامل لها والقائم بها الى غيره وكلاهما - النبي والرسول - قد أعلمه الله بما لا يستطيع العقل درايته من حيث معرفة الله أسماء وصفاته أو من حيث أوامر الله الى الخلاق بما فيه مصالحهم وفوزهم وفلاحهم .

ولما كان لأمر الرسالة والنبوة شأن عظيم بحيث إن القيام بها يتطلب تحمل وقع الآلام الشديدة والصبر الدائم على أذى الخلاق المدعوة وهذه الصفات تكتسب بالتربية والمراس والتكوين اللائق بحمل العبء الذي سيواجهه النبي ممن يدعوهم ، وبالتالي فالرسل يعدون لمواجهة الشدائد التي تقابلهم من قبل الناس . وقد تكون بداية الصراع من الأهل والولد والأقارب والعشيرة والقبيلة . لما كانوا كذلك فهم في حاجة الى ما يوطن

(١) ص ٢٨١ الطبعة الأولى وانظر تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ج٦ / ٣٠٥ نشر دار صادر بيروت .

أقدامهم ويطمئن نفوسهم والاختبار بالشدائد موطن تصقل فيه القلوب
فتضيء وتصفو به النفوس فتسمو وترق به الطباع فتعلو: إن كلما اشتد
البلاء على المؤمن كلما بلغ شأوا بعيدا في تلك الأخلق الرفيعة
وتأهل للاتصال بالملكوت الأعلى اتصالا مباشرا . ومن هنا كان للأنبياء
والرسل النصيب الأكبر في الاختبار بالشدائد وهم القدوة الحسنة
في ذلك لغيرهم من الخلق ولئلا يعتقد فيهم أحدا
الخروج عن الصفة البشرية أو نطاق العبودية . ولما كان الأمر كذلك
اقتضت حكمة الله أن يكون الأنبياء أكمل البشر في الخلق فأحاطهم برعايته
وتولى تأديبهم وتربيتهم فكانوا مثلا في المعاني يقتدى بهم ومصابيح
تستضيء الانسانية بنورهم ، نوء يد ما قلناه بالحديث الشريف الذي رواه
الترمذي من طريق مصعب بن سعد عن أبيه قال قلت : يا رسول الله ،
أي الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الأئمة ، فالأئمة يبتلون الرجل
على حسب دينه فان كان في دينه صلابة اشتد بلاءه ، وإن كان في دينه
رقة ابتلى على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي
على الأرض وما عليه خطيئة (١) وبما رواه ابن ماجه (٢) من حديث أبي
سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم
وهو يوعك (٣) فوضعت يدي عليه ، فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف

-
- (١) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح ، جامع الترمذي شرح المباركفوري
كتاب الزهد باب الصبر على البلاء ج٧٨/٧٨ .
(٢) سنن ابن ماجه بتحقيق الأعمش أبواب الفتن باب الصبر على
البلاء ج٢٨٦/٣٨٦ وقال البوصيري هذا اسناد صحيح رجاله
ثقات . كتاب مصباح الزجاجة ص ١٨٨ .
(٣) أي مصاب بالحمى انظر كتاب النهاية لابن الأثير ج٥/٢٠٧٠
مادة وعك .

فقلت : يا رسول الله ما أشدها عليك ؟ قال : إنا كذلك يضعف لنا
البلاء ويضعف لنا الأجر . قلت : يا رسول الله ، أى الناس أشد
بلاء ؟ قال : الأنبياء . قلت : يا رسول الله ثم من ؟ قال : ثم
الصالحون إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة
وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء . وأنا فسي
بحشى هذا سأعرض لبيان طريقة إعداد الأنبياء لخوض تلك الصراعات
بما ابتلوا به ، وسواء كان الذى ابتلوا به من باب التكليف أو من باب
المصائب الحسية أو المعنوية ، وسواء كانت في الجسد أو في النفس
حيث قص القرآن الكريم علينا صور بعض ما حدث للأنبياء والرسل
والتي فيها بيان أعدادهم بالمشاق التي استمرت تصيبهم ووصف ضروب
من الهلايا قد جرت على الكثير منهم ولازمتهم حتى انتقلوا الى جوار ربهم

مبحث دعوات الأنبياء واحدة

وقبل البدء في استعراض مواطن الابتلاء الذى تعرض له اولئك
الصفوة من بين الناس ، يجدر بنا القول بأن الأنبياء في طريقهم الذى
سلكوه ، وهدفهم الذى اشتركوا فيه موحدون غرضهم واحد ودعوتهم
واحدة وملتهم واحدة كما قرر ذلك القرآن الكريم في غير ما آية
فهم جميعا بصدور تبليغ شرع الله الذى قصرت عقول البشر عن إدراكه
ابتداءً من دعوتهم إلى توحيد الله عندما انحرف العباد عن ذلك الأصل .
وانتهاءً بتبصيرهم بما يصلح حياتهم ما سنه الله من شرائع تختلف حسب
حاجة الناس في الظروف الزمانية والمكانية إلى أن اكتمل البناء الاسلامي

كما أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك فيما يرويه البخارى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين .^(١) فاكتمل البناء بإرسال أفضل الخلق للناس كافة فكانت رسالته عامة لجميع البشر صالحة لكل زمان ومكان الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، تتسم بالمرونة في أصولها والشمول في فروعها ، نستدل لذلك بكل اطمئنان من القرآن الكريم في قوله عز من قائل * وان أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ، ليستل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما *^(٢) . وقوله تعالى * شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب *^(٣) وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون *^(٤) .

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ج٦/٥٥٨ ، المناقب باب خاتم النبيين .

(٢) سورة الأحزاب آية ٧ ، ٨ .

(٣) سورة الشورى آية ١٣ .

(٤) سورة الأنبياء آية ٢٥ .

وقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم : " الأنبياء اخوة

لعلات (١) أمهاتهم شتى ودينهم واحد " . (٢)

فهذه الآيات والحديث الشريف ، كلها بينت وحدة منهج

الأنبياء ، وأن رسالتهم ذات هدف موحد حيث أخذ الله عليهم العهود
والمواثيق في إقامة شرع الله وتبليغ رسالته فكان نهجهم في إقامة البنیان
الاسلامي مسلسلا متصلا ينبع من مشكاة واحدة ، فكلما قضى رسول فترته

اللازمة حسب المكان والزمان كلما خلفه آخر يكمل ما بقي الى الخاتمة

العامه فهم مشتركون في الدعوة إلى الاسلام ، فاللاحق منهم مصدق للسابق

ومناصره ، وشاهد لمن صدق به ، وعلى من كذب به كما قال عز وجل

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ

رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْتِنَنَّهُمْ بِهِ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ مُكْرِمِينَ ﴾

ذلك إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴿ (٣)

فالآية الكريمة تقر بجلاء على أن الرسل في ارتباط دائم

فيما يبلغون من رسالات لتوحيد الله متعاقدون جميعا على الوفاء فيما

أخذ عليهم فهم في دعوتهم متفقون إلا أنهم فيما يلاقونه من امتحان

خاص قد تنوعت أشكاله وتعددت مضاربه كانوا متفاوتين . وعلى قدر

ضخامة المشقة يعظم الثواب والجزاء . صحيح أنهم اشتركوا جميعا في أنهم

(١) أولاد العلات الأخوة أبوهم واحد وأمهم مختلفات .

والمراد من الحديث الشريف أن الأنبياء إيمانهم واحد وشرائعهم

مختلفة . انظر النهاية لابن الأثير ج٣ / ٣٩١ . وانظر فتح الباري

ج٤٨٩ / ٦٤

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري من رواية أبي هريرة رضي الله عنه

في كتاب الأنبياء . فتح الباري ج٦ / ٤٧٨ .

(٣) سورة آل عمران آية ٨١ .

لحقهم الأذى من أقوامهم وأنهم في غالب الأمر يقابلونهم بالنكران
والجحود وصحيح أن الابتلاء سمة بارزة في حياة كل منهم غير أنهم
اختلفوا في لون ما يلقونه من صنوف ذلك الابتلاء ، فآدم أبوالبشر وأول
نبي كما جاء في الخبر من حديث أبي أمامة رضي الله عنه : " أن رجلاً
قال : يا رسول الله أنبي كان آدم ؟ قال : نعم معلم مكم ، قال :
كم بينه وبين نوح ؟ قال : عشرة قرون . قال : كم بين نوح
وابراهيم ؟ قال : عشرة قرون ، قالوا : يا رسول الله ، كم كانت الرسل ؟
قال : ثلاثمائة وخمسة عشرة جما غفيرا " (١)

ابتلاء الله بالأمر التكميلية ، وهذا في نظري يدل على أن صنوف
الامتحان الذي يتعرض له الانسان متأصلة من الابتلاء بالتكليف ، يوء يد
هذا ما جاء من التحذير الإلهي والذي جاء فيه الخطاب لبني آدم عوما
حيث قال العليم الخبير * يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج
أبويكم من الجنة * (٢) ، فالتكليف كما هو معلوم إما منظم لشهوات
النفس البشرية ، وإما لمحض الابتلاء كما مر بيانه .

مبحث ابتلاء آدم : وآدم عليه الصلاة والسلام كلف لمحض الابتلاء حيث أكرمه
الله بالدخول إلى جنة فيها نعيم مقيم بدون تعب .

فأمره عزوجل بأن لا يأكل هو وزوجه من شجرة لا ندرى من أي
الأشجار هي وليس في تعيينها كبير فائدة كما قال ذلك بعض المفسرين .

(١) أخرجه الحاكم في مستدرکه وقال صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي

كتاب التفسير ج٢/٢٦٢ .

(٢) سورة الأعراف آية ٢٧ .

وإنما الفائدة في الآيات الكريمة التي ذكرها الله عز وجل / حذر آدم من الأكل منها وجعله ظلما وغواية بل حذره من الاقتراب منها دع عنك الأكل منها وذلك مبالغة في الزجر عن الأكل منها ، فيأتي دور إبليس عليه لعائن الله ، وتحصل الكارثة المرة فينسى آدم عليه السلام ويوسوس له الشيطان مقسما على أنه من الناصحين له وأنه يريد له ولزوجه الخلد فأزلهما بإلحاحه وتماديه في الفرور بهما بأن الخلد في الأكل من الشجرة ، وآدم إنسان مجبول على حب الخلد ، الأمر الذي اتخذه إبليس طريقا لاضلال آدم وابعاده عن طريق السعادة بدون المرور من مرحلة الشقاء فجاءه من باب الشهوة ، وغلبه وزوجه ، فأقدا على مخالفة الأمر الإلهي نسيانا دون روية ، ونظر في عاقبة الأمر فوق ما كان سببا في الهبوط إلى دار الشقاء وعالم الفساد حيث سلب آدم ما تفضل الله به عليه من نعمة الراحة والاستقرار بانزاله إلى دار الابتلاء وذلك بعد أن تاب آدم وحواء واعترفا بما ارتكبا من ظلم بمخالفة الأمر الإلهي كما قال عز وجل ﴿ وقلنا يٰٓآدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كنا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم ﴾ (١) والمراد بالكلمات في قوله تعالى ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ هي قول آدم كما حكى القرآن الكريم ﴿ قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ وهو المنقول عن ابن عباس . (٢)

(١) سورة البقرة آية ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ .
(٢) روح المعاني للإمام ج/١ ص ٢٣٧ .

وكما قال عزوجل * وَيَتَّادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكَلَا
من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما
الشيطان ليهبدي لهما ما وري عنهما من سوءتهما ، وقال ما نهاكما ربكما
ملكين أو تكونا
عن هذه الشجرة إلا أن تكونا/من الخالدين . وقاسمهما إني لكما من
الناصحين ، فدلاهما بفرور ، فلما ذاقا الشجرة يدت لهما سوءتهما وطفقا
يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداها ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة
وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ، قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر
لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين قال اهبطوا بعضهم لبعض عدو ولكم
في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * (١) وقال عزوجل * ولقد عهدنا
إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما . وإن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم
فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يتَّادِمُ إن هذا عدوك ولزوجك فلا
يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنتك لا تظمأ
فيها ولا تضحى ، فوسوس إليه الشيطان ، قال يتَّادِمُ هل أدلك على
شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوءتهما وطفقا
يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه
فتاب عليه وهدى * (٢)

وعلى أثر هذه الواقعة المرة بين الله لآدم ولذريته من بعده

أن عداوة إبليس وذريته متأصلة ومستمرة لبني آدم حتى يوم القيامة

(١) سورة الأعراف آية ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة طه آية ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ .

فحذرهم من تكرير التجربة الأولى وهي إغواء الشيطان لأبي البشر آدم حيث اتبعه فخر ما كان فيه من نعيم مقيم وجنة خلد لا يظماً فيها ولا يضحى ولا يجوع فيها ولا يعرى فبين الله للإنسان أن أمامه في هذه الحياة طريقين : طريق الهدى التي تودي إلى الأمان من الخسران لمن التزمه واتبعه ، وطريق الضلال الذي يسلك بصاحبه إلى بؤرة الهلاك والخسران وسوء العقبى في الآخرة فيظل بذلك يتخبط في درك الشقاء ، فالهدى والضلال إذن محوران في مسيرة الإنسان يبطل من خلالهما تلك قضية أرشد الله إليها الإنسان اثر خسارته في التجربة الأولى وذلك حتى لا يتكرر منه الظلم لنفسه فيفسر النعيم الذي في تلك الجنة مرة أخرى ، ومن وسوسة العدو الأول الشيطان أيضا ، ذلك ما نتلوه في القول الكريم * قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآيتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * (١) وقوله سبحانه

* يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءتهما إنه يريكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون * (٢) وفي قوله عز وجل

* قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ، فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيمة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت

(١) سورة البقرة آية ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) سورة الأعراف آية ٢٧ .

بصيرا قال كذلك أتتك آيتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك
نجزي من أسرف ولم يوء من آيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى * (١)
فمن خلال هذه الآيات الكريمة نرى أن الهدى والضلال هما المعيار
لمنزلة الانسان في هذه الحياة ، فأى أمة فضجت في الفكر والتعقل يجب
أن يكون تحركها ووجهتها منطلقين من نظرتها الى القضيتين اللتين
أعلن الله عنهما حينما أنزل آدم لخوض معركة الحياة فوق هذه البسيطة
وهما الضلال والهدى ، لأن أتباع الشيطان الذى حذر الله الانسان من
إغوائه وأخبره بأن العداوة بينهما مستمرة ضلال . فالاعراض عن
هذا التحذير سيؤدى بالانسان لا محالة الى الخسران الذى هو ثمرة
الضلال ، ذلك الخسران الذى ينتهي بالانسان الى الخلود في النار
بعد ما يميز بين أهل الهدى وأهل الضلال ، ثم يأتي بعد ذلك التبيكيت
والتفريع من الله عز وجل للذين أعرضوا عما حذرهم من الوقوع فيه وهو
اتباع الشيطان الذى أدى بهم الى الخلود في الهاوية وذلك ما نجده صريحا
في قوله جل من قائل * ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان
إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا
كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ، هذه جهنم التي كنتم توعدون اصلوها اليوم
بما كنتم تكفرون * (٢)

(١) سورة طه آية ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) سورة يس آية ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .

كما أن اتباع الهدى الذى هو شرع الله عقيدة وعملا شمرته السعادة وذلك للذين لم توه ثرفيهم نزغات الشيطان بل هم في اتصال مستمر بربهم كما قال عزوجل * إن الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون * (١) فهم دائما يعيشون طوال حياتهم الدنيوية على يقظة وحذر من عدوهم ابليس اللعين لا يذيين بربهم ملتجئين اليه .

وهكذا يتضح لنا أن الابتلاء في قصة آدم يعطينا :

أ - أن الشيطان عدو للانسان وأن متابعتة سبب في الخسران وأن مخالفته تجلب الفوز والنجاة للانسان .

ب - أن الهدى والضلال أمران يجب النظر إليهما في الفكر الانساني بأنهما أصلان في مسيرة حياة كل امرئ ، بمعنى أن الرحلة الانسانية في الحياة الدنيا لا يمكن أن يحالفها النجاح من حيث انتصارها على العدو الشيطان إلا إذا انطلقت في ذلك التحرك وهي على بصيرة وعلم منهما وايمان بمقتضياتهما وأن حياته الأخروية رهينة بوجهته وسلوكه في سبيل أحدهما .

ج - أن الانسان اذا أخفق في الابتلاء أحيانا فمن كرم الله عليه أنه أعطاه فرسا وهياً له مسالك النجاة حتى يخرج من ورطته ويسترد رشده . وحينما يقع في خطر الضلال ينظر فيما وقع فيه فان رجوع إلى محور الهدى غفر له ما وقع فيه من خطأ وفتحت له الأبواب

(١) سورة الاعراف آية ٢٠١ .

ليستدرك ما فاتته من مخالفة في منهج الهدى وإن لم يرجع فمصيره مصير
الخاسرين كما سبق بيانه آنفاً والانسان في أول نشأته على هذه الأرض
ظل فترة غير قصيرة من الزمن محافظاً على العهد والميثاق فكان الناس
على الفطرة السليمة والوجهة القويمة في مخالفة الشيطان عدوهم وهم
على هذا إلى عهد نوح فاختلف الناس في الحق والهدى وضلوا عن
سواء السبيل وانحرفوا عن الفطرة فاختر الله الرسل إلى العباد
ليبينوا للناس جميع ما اختلفوا فيه من الحق والهدى واستهلكت بداية
قافلة الرسل بإرسال نوح عليه السلام الذي اصطفاه الله للرجوع بالناس
وإلى طريق الهدى كما قال عز وجل * إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل
إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع
عليم * (١) فنوح كان تالياً لآدم في الاختيار، فأرسله الله إلى قومه
ومكث يدعوهم تسعمائة وخمسين سنة وهي فترة لم نخبر بأطول منها
في حياة أي نبي مما قص الله علينا * ودعوة استغرقت ألف سنة الا خمسين
جديرة بأن تكون فترة لا ابتلاء نوح عليه الصلاة والسلام وذلك ما يظهر
في أنه استثل أمر الله وثابر مدة طويلة مع قومه فلم ييئس ولم يتضجر
رغم مجادلتهم له دهرًا طويلًا بحيث سلك معهم سبيل الاقتناع بالحجج
الواضحة وانذرهم الوقوع في العقاب ورجبهم في الأجر والثواب فلم
تضعف قناته أو يلين الحق في جانبه . فأعرضوا وقابلوا ذلك كله
بالاستكبار والعناد والتهديد بالرجم والقتل كل ذلك ولم يشن عزمه

(١) سورة آل عمران آية : ٣٣ ، ٣٤ .

بل ناضلهم وصابرهم متجلدا في الليل والنهار والسر والعلانية يقارعهم
الحجة بالحجة حتى أخبره العليم الحكيم بعدم إيمان قومه ، وأمره
بصنع سفينة النجاة من العذاب المنتظر كما قال عز وجل ﴿ وأوحى
إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا
يفعلون واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم
مفروقون ﴾ . (١)

بحث ابتلاء نوح بولده ؛ وبعد تلك الفترة الطويلة التي قاسى فيها نوح مرارة المكابرة
ونكران الحق الواضح ، نجد أن نوحا عليه الصلاة والسلام يمر مرة أخرى
بامتحان ولاء عظيم يأخذ بصميم الفؤاد - فقلما يثبت فيه الانسان .
امتحان من جهة الولد ، امتحان في حشاشة قلبه ، ولب عاطفته فما كان
يسلم من بلا يا قومه حتى ابتلي في ابنه كما ابتلي من قبل في امرأته
فكان مصيرها الفرق . وذلك أنه يرى الفرق قد أحاط بفلذة كبده
فغلبته العاطفة الأبوية واتجه الى الله مستغيثا طالبا النجاة لابنه
ظانا أنه من أهله بناء على الرابطة النسبية ، وما كان يدري أوزهل عن
الحقيقة التي بنيت عليها الروابط في سنة الله الحقة ، رابطة العقيدة
التي هي العماد في كل رابطة ، فلا قيمة لأى علاقة إلا على ركيزة
العقيدة . وهكذا نرى أن نوحا عليه الصلاة والسلام كادت العاطفة
الأبوية توقعه في الخطأ حيث نادى ربه لينجي ابنه الذي حاد عن
الصواب وسلك سبيل الكفر وتنكب عن طريق التوحيد فحقت عليه كلمة

العذاب مع من قد حقت عليهم ولذلك حذر الله نوحاً أن يقع في الخطأ فوعظه بأن ابنه ليس من أهله الذين وعده بانجائهم معه في السفينة لأنه كفر ووجد نعمة الله وعانده ، فقد عصا أباه حين ناداه ليركب معه في سفينة الايمان فامتنع وأبى وفر إلى الجبل ظاناً أنه سينجيه من الهلاك ويعصمه من الماء فكان من المفرقين . كما قال عز وجل * ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ، قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسئلني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب إني أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين * (١)

فالآية الكريمة تخبرنا بمياً نوحاً نادى ربه طمعا في نجاة ابنه لا سيما أن الله وعده بانجاء أهله في قوله : * قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل * (٢) فنوح أمام العاطفة الأبوية زهل عن الاستثناء ولذلك نبهه الكريم الى أنه ليس من أهله . وليس المقصود بنفي الأهلية نفسي البنوة النسبية ، لأن السياق يناقض هذا الزعم وذلك أن نوحاً في تضرعه إلى الله رجاءً أن يعلم حال ابنه * فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق * فيلاحظ أن نوحاً ذكر البنوة ثم الأهلية فكان النفي في الرد الكريم منصبا على الأهلية فقط . ولو كان المقصود نفي النسب بينهما

(١) سورة هود آية ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) سورة هود آية ٤٠ .

لكان النفي الالهي منصبا على البتوة أيضا وقبل ذلك أثبت السياق الكريم البتوة التي نادى نوح ابنه بها حيث يقول العليم الخبير : * ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * (١) فقله عزوجل : * ونادى نوح ابنه * فيه اثبات البتوة للمنادى من قبل الله العليم. وهذا يوءد كد أن الأهلية المنفية في السياق الكريم أهلية العقيدة والحزب . فابن نوح سلك حزب الكفر فكان من أهله الذين سبق عليهم القول ، ولذلك ما يعزى للحسن البصرى وغيره من نفي البتوة باطل وغير لائق بمقام النبوة والقول بأنه ابن زنى أخذا من قوله تعالى * انه عمل غير صالح * أخذ رده علماء التفسير (٢) بما لا مجال للشك في بطلانه وفساده فالضمير يرجع الى ابن نوح بناء على معنى أن سلوكه طريق الكفر عمل فاسد . يوءد هذا المعنى قراءة ابن عباس وعلي وعائشة رضي الله عنهم (٣) عمل بصيغة الماضي ونصب غير . فالقول في معنى * إنه عمل غير صالح * إنه كان ابن زنى بعيد جدا از معناه على حذف مضاف أى ن وعمل كقول الخنساء :

(٤)
ترتع ما رتعت حتى اذا ادكرت فانما هي اقبال وادبار
أى ذات إقبال وادبار . فالذى يجب المصير إليه أنه كان ابن نوح لكن عمله غير صالح وعقيدته فاسدة ، فنوح عليه السلام - اذن - ابتلي من جهتين .

(١) سورة هود آية ٤٢ .

(٢) جامع القرطبي ج٦/٩٦ وانظر ابن كثير ج٢/٤٤٨ .

(٣) البحر المحيط لابي حيان ج٥/٢٢٩ الطبعة الثانية .

(٤) ديوان الخنساء ص ٤٨ نشر دار بيروت للطباعة والنشر .

١ - ابتلي بطول المدة التي قاسى فيها مع قومه مرارة العناد والاستكبار إلى درجة أن قومه ملوا من دعوته إياهم كما جاء في قول الله عز وجل ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ (١). مكث يتحمل صلفهم واعراضهم ألف سنة إلا خمسين عاماً كما جاء في قوله عز وجل ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجيناه وأصحاب السفينة . وجعلناها آية للعالمين ﴾ (٢).

٢ - وابتلي بفقد ولده حتى كان أن يقع في الخطأ بدافع الشفقة الأبوية لولا أن الله أدركه برحمته فبين له العلاقة التي ينبغي النظر إليها والتي هي الميزان في التعامل والصلة والقرابة هي علاقة الاعتقاد لا علاقة النسب فلا عبرة بها إذا اختلفت الاتجاهات العقيدية حتى ولو بين الوالد والولد .

وبعد التعرف على مواقف نوح عليه الصلاة والسلام فيما ابتلي به نتبعه ببيان مواطن الابتلاء في حياة أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام وذلك لأن الله لما ذكر اصطفاء نوح أتبعه بذكر اصطفاء الله إبراهيم كما في قوله عز وجل ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ (٣).

(١) سورة هود آية ٣٢ .

(٢) سورة العنكبوت آية ١٤ ، ١٥ .

(٣) سورة آل عمران آية ٣٣ .

وابراهيم عليه الصلاة والسلام قد جزم القرآن الكريم بوفائه وتوفيته
 فيما ابتلي به من تكاليف حيث يقول عز وجل ﴿ وابراهيم الذي وفى ﴾ (١)
 ويقول جل من قائل ﴿ وان ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ (٢) وفى
 هاتين الايتين وقع الاعلان صراحة بالشهادة لابراهيم على قيامه بالتكاليف
 التي ابتلى بها ما جعله في مقام الامامة للناس . فالمراد بالكلمات في
 الآية الكريمة التكاليف باتفاق المفسرين الا أنهم اختلفوا في تحديدها
 غير أن المتأمل حينما ينظر في تلك الأقوال يجدها لا تخرج عد كونها
 أوامرونواه كرواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال الاسلام ثلاثون
 سقماً وما ابتلى بهذا الذين أحد فقام به كله غير ابراهيم ابتلى بالاسلام
 فأتمه فكتب الله له الجراءة فقال ﴿ وابراهيم الذي وفى ﴾ (٣) وكالقول
 بأنها مناسك الحج وغير ذلك ما استعرضه الامام ابن جرير وهي كلها كما
 قلت : لا تخرج عن كونها أوامرونواه ولا دليل يستند عليه في
 تخصيص بعض الأمر دون بعض (٤) والذي يعنيننا أن ابراهيم عليه
 السلام ابتلي كما أخبر الله عز وجل ونجح في ذلك بحيث أتم ما أمر به
 بل وفاه . ويكفي ابراهيم عليه السلام في علو المقام وشرف الخصال والتميز
 فيما بينه وبين الأقران ما تعرض له من تضحيات جسام في النفس والولد
 والوالد والأهل بحيث انتهى المطاف بقومه الى الاستكبار والفرور

(١) سورة النجم آية ٣٧ .

(٢) سورة البقرة آية ١٢٤ .

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه وقال صحيح الاسناد وأقره الذهبي
 ج٢/٥٥٢ كتاب التاريخ .

(٤) انظر تفسير ابن جرير بتحقيق محمود محمد شاكر ج٣/٨ ط/دار
 المعارف مصر .

بعد أن أخرجهم بالحجة والبرهان وسفه أعلامهم وحطم أصنامهم لاظهار
بطلان دعاويهم أن يلتجئوا الى القوة المبنية على الظلم والكبر والبطش
واتباع الهوى . فأجمعوا على احراق ابراهيم عليه الصلاة والسلام . وهنا
يشتد البلاء على أبي الانبياء فنجده أصلب عودا وأخلص طلبا وأرحب صدرا .
فحينما قضى ابراهيم مضاجعهم وزلزل مراكزهم سارعوا بجمعهم المسمى
الاتيان بالحطب فأضرموا نارا عظيمة عظم حقدهم المتأجج في صدورهم
ظنا منهم أن القضاء على ابراهيم سيتم في احراقه ، وهكذا رموه في نار
استعر لهيبها فلم يستطيعوا الاقتراب منها ليرموه بأيديهم فاضطروا لرميه
فيها بالمنجنيق (١) وهو يردد قوله " حسبنا الله ونعم الوكيل " كما
جاء في حديث ابن عباس قال : " كان آخر قول ابراهيم حين القي في
النار " حسبي الله ونعم الوكيل " (٢) . ويأتي المدد من عند الله
فيأمر النار أن تكون بردا وسلاما عليه مما جعل أعداءه يخسرون حيث إن
نارهم قد خبت وصارأوارها رمادا وحرها عليه بردا وسلاما ونجى
الله رسوله وخليفه ابراهيم الى الأرض المباركة وانتهى الأمر بهزيمتهم
فرد الله كيدهم بعد أن غلبهم وأفحمهم بالحجج القاطعة كما قص الله
علينا في قوله عز وجل * قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين
قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم
الآخسرين ، ونجيناه ولوطا الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين * (٣)

(١) هو آلة ترمى بها الأشياء والقائم عليها يسمى جانق وهو الذى

يرمى بها . انظر كتاب النهاية ج١/٣٠٧ .

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه انظره بشرحه فتح البارى ج٨/٢٢٩
كتاب التفسير .

(٣) سورة الانبياء آية ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ .

وفي قوله عز وجل ﴿ قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في السحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأ سفلين ﴾ (١) ، وفي قوله عز وجل ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوهم أو حرقوهم فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ . (٢)

وينجو ابراهيم من كيد أعدائه الذين نصبوا له العداوة من أجل أنه بين لهم الحق ودعاهم الى الاستمسك به . وفي ثبات ابراهيم وصبره قدوة للمؤمنين الذين يلاقون من أعدائهم صنوف الأذى وأنواع المكر ، فلم يجزع وهو مأخوذ لالقاءه في النار بل كان في أعلى درجة من التوكل على الله وفي أجل وأصدق صورة من الثقة بالله الذي من التجأ اليه مخلصا نصره لا محالة .

ويخرج عليه الصلاة والسلام من محنته هذه منتصرا ضاربا أروع مثل في الجود بالنفس في سبيل العقيدة الحققة ، غير أن العظماء ما يفتأون يتنقلون بين المحن فما يخرج خيرهم من محنة حتى يلاقي أخرى وذلك ليظهروا في أعلى صور الايمان ويزدادوا كمالا وترقيا في الطاعة والانقياد لرب العالمين وها هو ابراهيم عليه السلام يدخل مرة أخرى في تضحية تأخذ من أعماق قلبه وحشاشة كبده فما طوى صفحة التضحية بالنفس في سبيل اقامة الحق حتى بدأ صفحة جديدة يبطل من خلالها بالتضحية بفلذة كبده فيومر مناما بذبح ولده اسماعيل الوحيد وذلك بعد أن ابتلى بتركه وأمه في بلد قفر لانيات به ولا شجر ولا ماء

(١) سورة الصافات آية ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) سورة العنكبوت آية ٢٤ .

ولا أنيس مستسلما لقضاء الله ومتوكلا على الله في حفظهما ومن توكل على الله لن يضيعه أبدا وحفظ الله لابراهيم زوجته وولده فكان يزورهما بين الفينة والفينة حتى أمر بذيح وحيد ، ومتى أمر بذلك حينما كبر وهرم وأصبح في أمس الحاجة الى فريده ، فمن ذا الذى يتحمل هذا الأمر العظيم * إن هذا لهوالبلاء المبين * حقيقة المحنة عظيمة ، وهي تأتي الانسان على قدر منزلته فيمتحن المرء على قدر ايمانه في العمق والاخلاص . فالأمر بذيح الولد الوحيد أمر يزلزل الأطوار الراسية ويبلغ بالقلوب الحناجر . وابراهيم عليه الصلاة والسلام نراه وهو في هذا الموقف يبوح بما لا تتحمله الجبال لابنه الوحيد * يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين * (١) نعم استسلم ابراهيم الأب وسلم اسماعيل الابن نفسه ، كل ذلك في ثبات واطمئنان ويتناول ابراهيم عليه الصلاة والسلام الذبح بنفسه فيمر بالسكين على قفا ابنه . انه الابتلاء العظيم الذى كشف عن علو منزلة ابراهيم الذى شهد له القرآن بأنه أمة * إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين * (٢) . وفي حينها تأتي رحمة الله فتدرك الأب والابن فيفدى الابن ويجزى الأب على امثاله ببقاء ابنه الوحيد وتمضى سنة الاضحية للعبارة في الامتثال والأخذ بطريق الايمان ، ويخرج أبوالأنبياء عليه الصلاة والسلام من محنة تلومحنة في ثبات وعزم يذران الجبال تلين وتنهد . وذلك ما نلتوه

(١) سورة الصافات آية ١٠٢ .

(٢) سورة النحل آية ١٢٠ .

في القول الكريم * وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ، رب هب لي من
الصالحين ، فبشرناه بسلام حلیم ، فلما بلغ معه السعی قال يا بني إني
أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر
ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ونادىنا
أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا
لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه في الآخرين ، سلام
على إبراهيم ، كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين * (١)

يبر إبراهيم - كما صورت لنا الايات الكريمة - من أصعب الاختيارات
في حياة الانسان فأخلص مؤدبا ما كلف به في غير تلكه أو تتردد بل
استسلم لأمر الله وانقاد لطاعته فتجاوز فترة المحنة بنجاح وهذا يوضح
لنا معنى من معان الابتلاء من حيث الحكمة فعينها فازابراهيم ونجح
وظهرت قمة ثباته وعمق صبره في انقياده واستسلامه المطلق ينقلب
البلاء رحمة والشدة رخاء وهذا يثبت لكل مؤمن يصدق في ايمانه
ويستسلم لأمر ربه ، فهو وعد من الله لجميع عباد ربه المؤمنين
* كذلك نجزي المحسنين *

بحث ابتلاء يعقوب وبعد نجاح ابراهيم أبي الأنبياء ، نرى الامتحانات تتوالى

في سلسلة آل ابراهيم ، اسماعيل الذبيح الذي وصفه القرآن الكريم بالحلم
حيث قال عز وجل * فبشرناه بسلام حلیم * (٢) ويعقوب حفيده الذي

ابتلى يفقد ولديه وهما أعز أولاده عليه يتذرع بالصبر الجميل غير

(١) سورة الصافات آية ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،

١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ،

(٢) سورة الصافات آية ١٠١

متشكك ولا جزوع بل لم ييئس من رجوعهما اليه حيث كان يظن أن أبناءه
كذبوا عليه كما يظهر في قوله عز وجل * وجاءوا على قميصه بدم كذب
قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ^(١) *
قال ذلك عند فقد ليوست وعند فقد لأخيه فلم يقتنع بما قالوه له من
أمر العزيز وظن أنهم صنعوا به مثل صنيعهم بيوسف فيقول كما جاء
في قول الله عز وجل * قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى
الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم ^(٢) * ورغم ذلك
فقد بكى سنين طويلة حزنا على فقد ابنه يوسف حتى ابيضت عيناه من
الحزن وهو كظيم لكنه لم ييئس من رحمة الله بما حل به من شدة
وحزن بل يأمر أبناءه بالبحث والتحسس من أخويهما كما قال عز وجل
* يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ،
إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ^(٣) * . وبين الله على
يعقوب بعودة أبناءه اليه كما كان يرجو . يعودون اليه وقد امتحن حقة
من الزمن بما جعله من الأنبياء الطاهرين . والأبرار المحسنين فجمع
الله شمله مع أبناءه بعدما ضرب المثل الأعلى في الصبر على السلا والأ
وفي الايمان بالقضاء والقدر ومن كان كذلك هانت عليه الشدائد ولانت
في طريقه الصعاب وبالتالي تبوأ المسكنة العليا في زمرة المحسنين
يقول الله عز وجل * فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال
ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ^(٤) * . ويمضى الابتلاء متواليا في آل
ابراهيم فبعد استعراض صبر يعقوب على ما لاقاه من حزن وكمد في فقد

(٢) سورة يوسف آية ٨٣ .

(٤) سورة يوسف آية ٩٩ .

(١) سورة يوسف آية ١٨ .

(٣) سورة يوسف آية ٨٢ .

ابنه يوسف وأخيه ننظر فيما تلقاه يوسف في ذاته وما امتحن به في مخالفة شهوات نفسه مما أصابه من مكر زوجة العزيز، تحمل يوسف عليه الصلاة والسلام القسط الأكبر من الشدائد والاختبارات من بين هذه السلسلة كيف لا وقد وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : " الكريم بين الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم " (١) فهذا التكريم لم يجمع لغير يوسف فهو نبي بن نبي بن نبي بن نبي ، وكلما تأصل الانسان في الفضائل كلما كانت الاختبارات أشد وأبلغ ، فيوسف عليه الصلاة والسلام من الله عليه بالثبات في مواقف تدل على سموه في الفضيلة وعلى صفاء عنصره في الكمال . فيها هو عليه الصلاة والسلام في بداية طفولته يتمنن بقساوة اخوته من باب الحقد والاحن ، فأقرب الناس اليه يجمعون على القائه في غياهب الجب فيلتقط ويباع قننا كما جاء في قوله عز وجل * إِنْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحِبُّنَا إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ، اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين ، قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غياهب الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين * (٢) . وفي قوله تعالى * وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يبشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون ، وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين * (٣) .

(١) أخرجه البخارى في صحيحه بشرحه فتح البارى من حديث عبد الله

ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فتح البارى ج٨/٣٦١ كتاب النفيس باب ويتم نعمته عليك .

(٢) سورة يوسف آية ٨ ، ٩ ، ١٠ .

(٣) سورة يوسف آية ١٩ ، ٢٠ .

ويقضي الله ليوسف من يكرمه ويحسن إليه فاشتراه عزيز القوم وجعله في مكانة الاحترام ووصى أهله بأن لا يزجر ولا يضام فأكرمه الله من حيث أريد به الشر وتبوءه مكانا عاليا/أريد به الالهانة والذل وهذا يعطينا أن الله حينما يريد أن يجعل للإنسان مكانة خاصة لا يستطيع العبد أن يمنعها أو يحجزها عن صاحبها لأن الله القاهر فوق عباده اذا أراد شيئا فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف فهو الغالب على كل شيء وذلك ما حصل لنبي الله يوسف كما أخبر سبحانه في قوله : * وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ، وكذلك نجزي المحسنين * (١)

ولم يكد نبي الله يوسف ينجو من محنة الجب حتى دخل في محنة الاختبار من باب الشهوة فيدعى مراودا من قبل سيدته التي لها عليه الأمر والنهي . امرأة ذات منصب وطاعة من جهة صاحب السلطة في المجتمع فسلطت عليه جميع ما تملك من وسائل القهر لينصاع لمطالبها بل ألبت عليه نسوة أشرف القوم كما قال عز وجل * فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت أخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم قالت فذلك الذي لمتني فيه ، ولقد

(٢) راودته عن نفسه فاستعصم ، ولكن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين *

وهو لاء النساء هن الأخرىات يبتلى بهن يوسف عليه السلام ويدعونه لتلبية طلب سيدته وقد سبق أن جعلته في موقف جميع دواعي ارتكاب المعصية ميسرة فيه غلقت الأبواب وأسدلت الأستار وخلت الأماكن إلا منهما كما قال عز وجل ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ﴾ (١) . وهنا يتجلى موقف يوسف عليه الصلاة والسلام ، موقف كان صلبا تجاه تلك المكيدة حقيقة لا يمكن لأحد أن ينكر أن يوسف بشر قد تميل نفسه بناء على طبيعته البشرية ، يقول ابن قتيبة : (٢) " وهم نبي الله صلى الله عليه وسلم هما عارضا بعد طول المراودة ، وعند حدوث الشهوة التي أتى أكثر الأنبياء في هفواتهم منها " اذن لا مانع من أنه قد يفكر في الميل إليها وهو المملوك المحاط بكل ما يجعله في موقف الضعف . نعم قد تميل نفس النبي ميلا طبيعيا كأي انسان الا أن الأنبياء قد أحاطهم الله بالعصمة فلا يقعون في معصية عن عمد وهذه الحقيقة يشير إليها قوله عز وجل ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن ربنا برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ (٣) . فيوسف عليه السلام لما تيقن قبح الفاحشة وعاقبة التمرد والعصيان لاء وأمر الله ازداد صلابة أمام الاغراء ، رغم ما كان فيه من ضعف مادي كما أنه قوى على مخالفة الشيطان أمام اصرار المرأة على الإيقاع به في شرك كيدها : يوه يد هذا أنه عندما فر منها مزقت

(١) سورة يوسف آية ٢٣ .

(٢) تأويل مشكل القرآن لعبدالله بن مسلم بن قتيبة ص ٤٠٤ ، نشر دار التراث القاهرة .

(٣) سورة يوسف آية ٢٤ .

ثوبه كما جاء في قوله عز وجل * واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وأغنيا
سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن
أو عذاب أليم * (١) وهذا الموقف يدل على بطلان ما يقال إنه جلس
بين شعبها الأربع وغير ذلك من الأقوال التي لا صحة لها والتي تخالف
النص القرآني الصريح في بيان مواقف يوسف من محنته فامرأة العزيز
نفسها وصفته بقولها " فاستعصم " يقول الزمخشري في كشافه (٢) :
الاستعصام بناءً مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ كأنه في عصمة
وهو يجتهد في الاستزادة منها، كما أن الله شهد ليوسف بأنه من عباده
المخلصين . وأيضا امرأة العزيز تعترف بأنه من الصادقين وأنها هي
التي راودته كما شهدت صويحباتها اللواتي قطعن أيديهن لما رأينه
ببراءته من سوءه وذلك ما أخبر الله عز وجل به حيث قال * قال ما خطبكن
إن راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت
امرأة العزيز الآن حصح الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين * (٣)
وهذا كله يدل صراحة على براءة يوسف وعصمته من أن يقع في شيء من ذلك .
صحيح قد يميل انطلاقا من طبيعته البشرية ميلا قلبيا ويؤيد هذا قوله
في دعائه * وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين * (٤)

(١) سورة يوسف آية ٢٥ .

(٢) ج٢ / ٢٥٤ نشر دار المعرفة الرياض .

(٣) سورة يوسف آية ٥١ .

(٤) سورة يوسف آية ٣٣ .

فالإنسان إذن في طبيعته البشرية ضعيف أمام المغريات إذا لم يتذرع بالخوف من الله ممثلاً لشرع الله ، ويوسف عليه الصلاة والسلام بشر قد يميل ميلاً قلبياً وهذا ما نرتضيه في تفسير قوله عز وجل ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ فهمه بها من حيث ميله لها إنما هو بمقتضى الطبيعة البشرية وهنا تمكن صعوبة الامتحان وتظهر المنزلة العليا لمن لم يقع في المخالفة رغم دواعي ذلك نفسياً ومادياً . وهذا لا ينافي العصمة ، بل العمدية في اجراء الابتلاء كون الإنسان في داخله دوافع اللذات كغريزة ميل الرجل الى المرأة ومن ثم تظهر مواقف الصادقين الذين يكبحون غرائزهم النائرة فيعصمون ميولهم الجارفة كما أنه في مقابل ذلك ينكشف هبوط النفوس الضعيفة بالخضوع لأن هوائهم المرديّة ، ويوسف الصديق عليه الصلاة والسلام يخرج من محنته هذه منتصراً مؤيداً من قبل شهادة صبي في المهدي كما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال تكلم أربعة وهم صفار هذا - إشارة الى ولد ماشطة ابنة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج ، وعيسى بن مريم عليه السلام (١) يخرج منتصراً بعد أن اتهمته امرأة العزيز بارادة السوء ببيت العزيز كما قال عز وجل ﴿ قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾ (٢)

(١) أخرجه الحاكم في مستدرکه وصححه وأقره الذهبي . كتاب التفسير

(٢) سورة يوسف آية ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

ومعد بيان الحق وافتضاح الكذب في دعاوى امرأة العزيز أبت
إلا أن تستمر في كيدها ليوسف مؤكدة أنه إن لم يلب رغبتها فسيهان
ويذل ويسجن ، وأمام تهديدها بالسجن له يعلن يوسف طالبا العصمة
من الله بأن السجن أحب إليه مما دعت إليه ، اختار - عليه الصلاة والسلام -
السجن بكل ما فيه من أصناف المحن والعذاب والضيق والاهانة والقهر
يختاره مقرا على قصر منيف وعيش رغيد ، ذلك ما نقرؤه في قوله عز وجل :
* قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن
أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن
إنه هو السميع العليم ، ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى
حين * (١) . وحينما عرفوا براءته وتأكدوا منها بالأدلة وظهروا لهم
صدقه في عفته ونزاهته سجنوه بإيهاما للناس بأنه راودها وحفاظا على
سمعة العزيز . وهكذا في داخل السجن تتوالى نعم الله على يوسف
بأن أكرمه بنزول الوحي وتأويل الرؤيا كما أخبر سبحانه في قوله :
* قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأناكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما

ما علمني ربي فاني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون
واتبعتم ملة آباءى إبراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك
من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * (٢)
فلبت في السجن بضع سنين وهو يبلغ دعوة الله ، وحينما أراد الله
إخراجه من السجن جاءت رؤيا الملك المنامية فلم يجد لها
تأويلا إلا عند يوسف ، ولذلك لما علم الملك بمنزلة يوسف في العلم
والحكمة اللتين من الله عليه بهما استخلصه لنفسه وبوأه مكانة قوية

(١) سورة يوسف آية ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) سورة يوسف آية ٣٧ ، ٣٨ .

وجعله آميناً على شئون دولته وعلى خزائن الأرض كي يسوس اقتصاد
قوت القوم لنزاهته واستمساكه بتعاليم دينه وبمحافظة على عرض
من أسدى إليه المعروف نال عليه الصلاة والسلام كذلك بصبره ووقت
الشدة وقساوة الاختبار . وتلك عاقبة الصابرين ، نصر في الدنيا بعلو
المكانة والتمكين في الأرض واکرام بالنعيم المقيم في الآخرة وذلك ما نلتوه
في قوله عز وجل ﴿ وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسى ، فلما كلمه
قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ، قال اجعلني على خزائن الأرض إني
حفيظ عليم ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوا منها حيث يشاء نصيب
برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولا جراً الآخرة خير للذين آمنوا
وكانوا يتقون ﴾ (١) .

وهكذا يتبوا يوسف مكاناً عالياً جعل أخوته الذين آذوه حسداً
وبغضاً يلتجئون إليه وهم فقراء يائسون طالبين نواله معترفين بخطيئاتهم .
والكريم يوسف عليه الصلاة والسلام قابل مكرهم بالحلم والصفح بل قابلهم
بالإكرام والعفو الجميل كما قص علينا في القول الكريم ﴿ فلما دخلوا عليه
قالوا يا أيها العزيز منا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف الكيل وصدق
علينا ، إن الله يجزى المتصدقين ، قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه
إن أنتم جاهلون قالوا أنك لانت يوسف ، قال أنا يوسف . وهذا أخي
قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ، قالوا
تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ، قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر
الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ (٢) .

(١) سورة يوسف آية ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ .
(٢) سورة يوسف آية ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ .

لقد كان يوسف في خلقه كريما حيث قد بلغ أسمى درجة من
الايان بالقضاء ، والصبر على اللاءوا ، فترك حظه من التشفي حين قدر
عليه . وصفح عن زلات اخوانه بكرمه وحلمه . وتجاوز الابتلاء في أقسى
صوره فبعد ما ابتلي بالشدائد والمكاره يبتلى بالمفوعند المقدرة وهذا
يكشف عن نفس كريمة هيئت لتحمل المسئولية ، مسئولية الاصلاح والرعاية
وذلك أنه انتصر على الشهوات التي هي منطلق الخسران في الدنيا
واللاخرة

مبحث ابتلاء نبي الله موسى

يأتي بعد يوسف من سلالة يعقوب ، موسى عليهم الصلاة والسلام ،
حيث ذكره الله تاليا ليوسف في قوله * ويوسف وموسى (١) فيدخل
هو الآخر غمار المحن منذ أن كان صغيرا ، فمنذ أول نشأته يجعل في
صندوق ويرمى في البحر ليتم تقويض بيت الجبروت والطفيان من داخله
ومن حيث كان يحذر فرعون وملأوه فيأتي الأمر الكريم الى أم موسى بالقائه
في البحر وتبتلى هي الأخرى بالصبر على فقد ولدها وعلى يديها ولكن
الثقة بالله العليم والايان به ربا والهـا بجعل المحن هيئة لينة
على المؤمن حيث وعدها الله عز وجل برد ابنها اليها وجعله رسولا ،
وهكذا يلقي موسى في اليم ليأخذه عدو الله الطاغية - فرعون - ليتربى
في بيته ان ألقى الله محبته في قلب زوجة فرعون وينجو موسى برعاية
الله ويرجع الى أمه فترضعه ويترعرع في حجر أمه بعد أن رفض المراضع
اللاتي تقدمت لرضاعته ، وتنجح هي بصبرها وايانها القوى وثقتها
الخالصة في وعد الله وذلك ما أخبر به سبحانه في قوله : * وأوحينا

إلى أم موسى أن أرضعها فإذا خفت عليه فألقه في اليم ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إنا فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقال امرأت فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فردناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿١﴾

وفي رد موسى إلى أمه بعد أن ألقته في البحر أكبر تأس للمؤمنين فإذا أخلص في إيمانه وتوكل على خالقه ومولاه الذي قد أخذ بناصية كل شيء كفاه ، ومن هنا أيضا نتأكد أن جماعة المؤمنين حينما يعتمدون على الله في قوتهم ويحسنون العمل في إيمانهم لن تستطيع أي قوة أن تغلبهم مهما بلغت من تسلط وعتو . وهكذا رد الله موسى إلى أمه واشتد عوده ^{سأ} ومن الله عليه بالحكمة . لكنه يتعرض للامتحان من جديد وذلك تهيئة للنبوة واعداداً لحمل الرسالة . وفي مطلع ذلك يبتلئ من باب الدفاع عن الحق ومقاومة الظلم وهي مهمة لا يقوم بها إلا عصامي لا تأخذه في الحق لومة لائم . وذلك أن بني إسرائيل كانوا يعيشون تحت طغيان فرعون في الذل والهوان حتى أكرمهم الله بموسى فيستغيث

به أحدهم ليعينه على رفع الظلم عنه من قبل فرد من حاشية فرعون الذى يعيش موسى في بيته ، ويتمتع بنواله فلا يشبث موسى عليه السلام كون المستفحات عليه من حاشية فرعون مربيه ومسدى المعروف اليه بل يشرع لانقاذ المظلوم فيقع ما لم يكن في الحسبان وما لم يدر في خلداه بحيث مات المعتدى بضربة واحدة قضت عليه ، وساعتها يدرك موسى الخطأ الذى وقع من غير قصد فيجعله ظلما ويلتجئ الى الله متضرعا مستجيرا طالبا المغفرة فيغفر الله له ويستجيب دعوته ، وتكرر الحادثة أمام موسى مرة أخرى فيندفع موسى ليرد العدوان وليدحر الظلم الذى كان سائدا في المجتمع ، وبعدها يتكشف أمر موسى للطاغية فيتطلبه بعد أن فرهاربا يترقب خبر القوم وذلك ما قصه الله في كتابه العزيز حيث قال :

﴿ ولما بلغ أشده واستوى أتيناها حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستفاه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ، قال رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (١)

فخرج موسى فارا بنفسه من بطش فرعون وملائه لكنه ما لبث أن ولج في اختبار جديد ومحن متتالية حيث صار مطاردا وحيدا في البرارى والقفار متطلعا الى ربه طالبا منه الحماية من القوم الظالمين ، والرماية ما يخافه في رحلته بعيدا عن مجتمع الظلم والتعدى راجيا أن يجد الطريق الذى

يسلكه لينجو من مؤامرة في عون وملائه فواصل طاويا الليلي والأيام يسد
رقبه بما تيسر من البقل وورق الشجر كما نقل عن ابن عباس قوله
* سار موسى من مصر الى مدين ليس له طعام الا البقل وورق الشجر. (١)

وذلك ما أخبر به سبحانه في قوله * فخرج منها خائفا يترقب قال رب
نجني من القوم الظالمين ، ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني
سواء السبيل * . (٢)

ويواصل موسى طريقه وهو على تلك الحال صابرا معتمدا على الله
في محنته حتى صادف جماعة من الناس يسقون مواشيهم الا امرأتين تحبسان
غنهما لضعفهما ولثلا تختلطان مع الرجال، وهنا يقف موسى مرة أخرى الى
جانب الضعفاء ليعينهم على أخذ حقوقهم فتقدم وسقى للمرأتين غنهما
دون مقابل ، وانما هو النبيل وكرم النفس والدفاع عن الحق . فما هو
موسى رغم ما يعاني من وعناء السفر وخلوة البطن لا يبخل على الضعفاء
بمعروف وبالتالي لا يترك لمستبد بمصالح غيره مجالا لهضم الحقوق
مهما كلفه ذلك من تضحيات ، يتقدم موسى لاقرار الحق وهو مجهود
مطارد من قبل طاغية مصر كما أنه غريب عن قوم المرأتين ، كل ذلك لا
يشنيه عن نصره الحق كما جاء في القصة الكريم من قوله عز وجل * ولما
ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهما امرأتين
تزدان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير
فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب اني لما أنزلت الي من خير فقير * (٣)

-
- (١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ / ٣٨٣ نشر دار التراث القاهرة .
(٢) سورة القصص آية ٢١ ، ٢٢ .
(٣) سورة القصص آية ٢٣ ، ٢٤ .

ويعد ما أعان المرأتين لضعفهما وأدى لهما حقهما يلتجئ
الى الله رب العالمين طالبا منه تفريج الكرب عنه وتغيير حال الشدة
التي يعاني منها الى حال الاستقرار والايواء ، فيظهر موسى فقره لا لمخلوق
من الذين صادفهم عند السقي وهو في شدة بالغة وانما الى الركن
الركين والذي من التجأ اليه وجدده ونصره فهو نعم المولى ونعم النصير.
فيستجيب الله لعبده موسى ويهيئ له مكان العمل والاستقرار لينطلق من
هناك الى النعمة الكبرى والمنزلة العليا . منزلة النبوة والرسالة وينجونه
طغيان فرعون ومن ابتلاء الشدائد التي لاقاها أثناء رحلته وهو في ذلك
كله صابر محتسب يلجج الى ربه طالبا منه المدد مظهرا ضعفه وحاجته
الى الله خالقه ورازقه فيهديه الى الشيخ الصالح أبي المرأتين بحيث
دعاه ليكافئه على صنيعه مع ابنتيه العفيقتين الطاهرتين ويطمئنه بالنجاة
من فرعون وملائه كما أخبر سبحانه ﷻ فجاءته واحداهما تمشي على
استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه
وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﷻ (١)

وهكذا ينجو موسى من أعدائه . وينجح في ابتلاء الذي
تهيأ به للقيام بالمهمة العظمى ، مهمة الرسالة بالدعوة الى عبادة الله
الواحد الأحد فيعود إلى مصر رسولا إلى فرعون وملائه بكلمة الحق
كما سنبين ذلك في الفصل بعد هذا .

ويعد ، فقد رأينا فيما مضى معنا من استعراض لمراحل ابتلاء
بعض الأنبياء أن الجانب الأكبر في تلك الامتحانات كانت شدائد ومكروهات .

وسنعرض الآن لونا آخر وهو الابتلاء بالنعم ، وذلك ما سنلاحظه في سيرة نبي الله داود وابنه نبي الله سليمان ، حيث من الله عليهما بنعم وافرة ومزايا عظيمة من متع الحياة الدنيا ولذائذها فأعطاهما نعمة السلطنة والملك والحكمة والعلم .

فداود عليه السلام بالاضافة الى النبوة والملك أعطي تسخير الجمادات والحيوانات فكانت الجبال تردد معه التسبيح بما خلق الله فيها من قدرة على التعبير بذلك . والطير بلغتها ترجع معه حينما ينطلق داود بصوته مسبحا ومجددا لله خالقه . وهذه ميزة خاصة تجعل الكون يردد صوته بما فيه من جبال وطيور بما ميز الله به داود من صوت أصبح محط التشبيه لمن له صوت حسن في ترديد خاتمة الكتب المنزلة " الفرقان " كما ثبت في حديث النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال : " لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود " . (١)

مبحث ابتلاء نبي الله داود
ومن النعم التي من الله بها على داود وذكرها في سياق الامتتان عليه تليين الحديد له فكان يصنع منه الدروع . وهذه أيضا ميزة أخرى لم تعط لغيره ، فهذه نعم أعطيت لداود عليه السلام فكان ممن الشاكرين قولاً وعملاً بشهادة الحق جل وعلا بذلك له في كتابه الحكيم حيث قال سبحانه * واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب إننا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق والطير محشورة كل له أواب ، وشددنا

ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب * . (٢)

(١) أخرجه أحمد في مسنده من رواية عائشة ١٦٧/٦ وقال ابن كثير

في قصصه على شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه . قصص

القرآن لابن كثير ص ٤٨٦ .

(٢) سورة ص آية ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

وما جاء في الصحيح من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " أحب الصيام إلى الله صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه " . (١)

فداود إذ ن كان شاكراً بما ابتلى به من نعم بينها القرآن الكريم في قوله عز من قائل ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم ليحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ﴾ . (٢)

وفي قوله تعالى ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير . وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا اني بما تعملون بصير ﴾ . (٣)

في هذه الآيات يأتي الاخبار بأن الله قد أحاط داود بتلك المزايا الخيرة وكما سبق البيان أن داود عليه الصلاة والسلام كان شاكراً لكن الانسان مهما بلغ من العصمة والمحافظة على ابتغاء الحق هو معرض للنسيان وتلك طبيعة أي بشر ومن هنا يبتلى داود عليه السلام ليبقى معترفاً بالنقص البشري وليستمر في استمداد العون من الله فيما من به عليه من الحكمة وفصل الخطاب ، فجاءه الاختبار مرة ثانية في الحكم بين الرجلين الذين تسورا عليه المحراب فحكم بينهما غير أنه استعجل فسي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأنبياء ، باب أحب الصلاة إلى

الله . انظر فتح الباري ج ٦ / ٤٥٥ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) سورة سبأ آية ١٠ ، ١١ .

الحكم بمجرد سماع دعوى أحد الخصمين قبل استماعه للآخر وهذا احتمال في تفسير القصة ينبغى المسار إليه والاعراض عن تلك المقولات التي لا سند لها عن المعصوم صلى الله عليه وسلم بالاضافة الى أنها لا تليق بمقام النبوات ، والقول بالتوقف أيضا بعدم تفسير القصة كما ذهب الى أولويته الحافظ ابن كثير (١) مما لا نرتضيه ولا يتبغى التعويل عليه اذ القرآن عسري مفهوم ، والقصص سيق فيه لاخذ العبرة فحينما نسلك سبيل التوقف يضيع منا أخذ الموعدة والاقداء بالانبياء ، اذن صرف الآية عن ظاهرها ومفهومها شطط وطعن في عصمة الانبياء مما قد لا يرتكبه من هو أقل منهم درجة في الصلاح . والقول بالاقصاء على تلاوتها دون التفكير في معناها خروج عن المقصود بقصص القرآن اذ ما من قصة الا وقد سيقتم لغزى العظة والعبرة فبأى موجب يقتصر على تلاوتها فقط . وذهب صاحب الظلال الى القول بما سبق أن ارتضيته حيث يقول : والقصة كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلما صارخا مثيرا لا يحتمل التأويل ومن ثم اندفع داود يقضي على أثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة ولم يوجه الى الخصم الاخر حديثا ، ولم يطلب اليه بيانا ولم يسمع له حجة (٢) وذلك ما خاطب الله به نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وهل أتاك نبوءة الخصم إن تسوروا المحراب إن دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا الى سواء الصراط . إن

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ / ٣١ نشر دار التراث القاهرة .

(٢) كتاب ظلال القرآن للسيد قطب ج٧ / ٩٦ الطبعة السادسة .

هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها
وعزني في الخطاب لقد ظلمك بسوء ال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا
من الخلطاء ليسفى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب (١)
فالقول بأن المراد بالنعجة في الآية الكريمة هي المرأة ، لا
دليل عليه ثم ما الداعي لأن يعدل القرآن عن لفظ المرأة ويكنى عنها
بالنعجة وإن ورد لفظة النعجة في الشعر كناية عن المرأة فالمقصود
من ذلك التشبيه لا مجرد التسمية هذا أولا ..

وثانيا لو كان المقصود في الآية الكريمة العتاب عما يقال بأنه
عشق امرأة وأرسل زوجها للجهاد ليقتل وليتزوجها وغير ذلك ما هو
فطبع في حق غير الأنبياء لما كان اجراء الابتلاء بمرض جلسة محاكمة
ليأخذ نبي الله داود منها العبرة لا سيما حينما نجد أن يونس بن متى
ترك قومه لما لم يستجيبوا له وذهب مفاضيا يبتلى بادخاله فسي
الظلمات فيبنتلعه حوت في قاع البحر لمجرد أنه ذهب بدون إذن من ربه ،
فكيف يسا ينسب لداود .

ثالثا نجد أن أفضل الخلق محمد بن عبد الله صلى الله عليه
وسلم يأتي العتاب في جانبه من قبل الله عز وجل صريحا كما وقع
في أسارى بدر حيث استقر النبي صلى الله عليه وسلم على رأى من قال
بأخذ الفداء وذلك بعد أن استشار أصحابه ، فيقول عز وجل ﴿ ما كان

(١) سورة ص آية ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .

لنبي أن يكون له أسرى حتى يشغن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا
والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما
أخذتم عذاب عظيم * (١) وفي قضية ابن أم مكتوم حينما أعرض عنه
الرسول صلى الله عليه وسلم مقبلا على كبراء قريش طمعا في أن يوءمنوا
فتنزل الآيات المعاتبة التي تحمل وصف مقابلة النبي صلى الله عليه وسلم
لابن أم مكتوم * عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى
أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك
ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى * (٢) وفي
قضية أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها نزل قوله تعالى
* وإن تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق
الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن
تخشاه * (٣)

فكان العتاب صريحا وهذه الآيات الكريمة على مسائل لا تصل

من قريب ولا من بعيد الى وصف ما ينسب لنبي الله داود .

فالذى تطمئن النفس اليه أن داود عليه الصلاة والسلام ابتلى

فيما هو ذو مقدرة عليه حيث من الله عليه بفضل الخطاب ومع ذلك هو

بشر معرض للنقص فيخطيء في ذلك كما وقع في فصله بين المتخاصمين

فأسرع بإصدار الحكم قبل الاستماع الى المدعى عليه (٤) يوءم يد هذا

(١) سورة الأنفال آية ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) سورة عبس آية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .

(٣) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(٤) في هذا المعنى تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ج ٧ / ٣٠٧

نشر دار صادر بيروت ، وانظر أحكام القرآن للقرطبي فقد حسن

هذا المعنى ج ١٥ / ١٧٥ ، ١٧٨ نشر دار الكتاب القاهرة .

أيضا ما جاء في السياق الكريم بعد القصة * يا داود إنا جعلناك خليفة
في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله
(١)
إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب *

فآية الكريمة وثيقة الصلة بما قبلها إذ فيها خطاب لداود

بالنداء اثر الفراغ ما وقع بينه وبين الذين تحاكموا في مجلسه . وفيها
أمر بالحكم بالحق ما يدل على أن الذي صدر منه أو لا من قبيل ما وقع
له في الحكم بين الناس وهناك احتمال آخر ذهب إليه بعض المفسرين
هو أن فتنة داود في هذه القضية تكمن في احتجابه عنك الناس وتبته
وانقطاعه لعبادة ربه في المحراب وترك الفصل والحكم بين الناس من
أجل هذا كان العتاب من الله له . وهكذا يبتهل داود عليه الصلاة
والسلام من باب التنبيه والايقظ من الغفلة والنسيان اللذين هما
ملازمان للطبيعة البشرية ، فيدرك الخطأ ويستغفر ربه فيغفر له .

ومن النعم التي وهبها الله لداود عليه السلام أن رزقه سليمان

ابنا ورثه في الحكم والعلم بل فاق أباه فيما رزقه الله من الفهم
في القضاء * وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرت إذ نفشت فيه غنم
القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان ، وكلا اتينا حكما وعلما * (٢)

فآية الكريمة تبين ما من الله به على سليمان من فكر ثاقب ونظر صائب
وعقل واسع وذلك أنه لما ادعى صاحب الحرت أن الغنم أكلت الزرع حكم
له داود بأخذ الغنم مقابل ما أكلت من زرعه ، وساعتها تدخل سليمان

(١) سورة ص آية ٢٦ .

(٢)

وحكم بما هو أليق للجانبين بدون إجحاف فعلم باعطاء الغنم لصاحب
الحرث ينتفع بنتائجها مدة تنتهي بصلاح الحرث بأن يعود إلى ما كان
عليه قبل (١) وذلك برعاية صاحب الغنم الذي أكلت ماشيته المزروع .
فصارف بحكمته وما فهمه الله ، الأسهل والأحسن للمتخاصمين ، وهكذا
قالوا والله أعلم بصحة ذلك . وكذلك أعطى سليمان فيما أعطى من النعم
الملك الشامل للجن والانس والحيوان ، وتسخير الريح وتعليم منطق
الطير كما أخبر الله عز وجل فقال * ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره
إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين ، ومن الشياطين
من يفوضون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين * (٢) وقال
تعالى * ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر
ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا
نذقه من عذاب السعير * وقوله (٣) * فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء
حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفار هذا
عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب * (٤) فسليمان اذن وورث داود
في العلم والحكمة وفيما سخر الله له من نعم كما قال سبحانه * وورث سليمان
داود وقال يأيتها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ان هذا
لهو الفضل المبين ، وحشر لسليمان جنود من الجن والانس والطير فهم
يوزعون * (٥) فحكم الجن والانس ، وما قصة ملكة سبأ إلا دليل شاهد

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٣ / ١٨٦ نشر مكتبة دار

التراث القاهرة .

(٢) سورة الانبياء آية ٨١ ، ٨٢ .

(٣) سورة سبأ آية ١٢ .

(٤) سورة ص آية ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .

(٥) سورة النمل آية ١٦ ، ١٧ .

على عظمة ملك سليمان وسيطرته على غيره من الأملوك والملوك إذ استطاع
أحد جنوده من الجن احضار عرش ملكة سبأ العظيم في طرفة عين
كما قال عز وجل ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن
يرتد اليك طرفك ﴾ (١) فاستسلمت وأسلمت رغم أنها أوتيت من كل
شيء كما قال عز وجل ﴿ قالت رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان
لله رب العالمين ﴾ (٢) والحالة هذه ما فيه سليمان من النعم التي
لا تحصى نجده عليه الصلاة والسلام يقرب قضية هي سنة الله فيما يعطى
وفيا يمنع . قضية الشكر والجدود بحيث نراه أثناء تقبله في النعم
يطلب من الله الإلهام والارشاد ليكون من الشاكرين فيقول كما حكى عنه
القرآن ﴿ وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى
والدي وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ (٣)
كما نجده أيضا يقر بحقيقة لا يغفل عنها إلا هالك خاسر ، تلك هي حقيقة
الاختبار بالنعمة أو النعمة فهي قضية لا تستقر حياة الانسان إلا بها ، ولا
يحالفه النجاح الا باستحضارها في تقلباته الدنيوية وبالتالي لا يمكن
للانسان أن تطمئن نفسه إلا إذا استقرت حقيقة الامتحان في الاخذ
والعطاء والمن والحرمان في نظام حياته ، فسليمان عليه الصلاة والسلام
لما رأى مرشا عظيما قد من الله عليه بحضوره أمام عينيه لم يغفل عن
هذه الحقيقة وهو نبي الله الذي أثنى عليه في كتابه الكريم بقوله ﴿ نعم
العبد انه أواب ﴾ (٤) وقوله ﴿ وان له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ (٥)

-
- | | |
|-----|---------------------|
| (١) | سورة النمل آية ٤٠ . |
| (٢) | سورة النمل آية ٤٤ . |
| (٣) | سورة النمل آية ١٩ . |
| (٤) | سورة ص آية ٣٠ . |
| (٥) | سورة ص آية ٤٠ . |

لم يخفل عن أن العطاء اختبار وامتحان يقول عز وجل في ذلك * فلما
راه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني * أشكر أو أكفر ، ومن
شكر فانا يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربي غني كريم * (١) تعطينا هذه
الآية الكريمة حقيقة أن الله الغني الكريم اقتضت حكمته ، وجرت سنته
أن يعطي وهو الغني للابتلاء ، وينع وهو الكريم للابتلاء ، نجد هذه
الحقيقة أيضا ماثلة في الحديث القدسي : " يا عبادى لو أن أولكم
وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك
في ملكي شيئا يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر
قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم
وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل
إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى شيئا الا كما ينقص المخيط اذا دخل
البحر ، يا عبادى انما هي أعمالكم أحصيتها لكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد
خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه " (٢) والمقصود من
الحديث بيان الفنى المطلق لله عز وجل عما سواه فاذا أعطى أحدا
فلا ينقص من خزائنه شيئا وان منع أحدا فهو العزيز القوي ، ومعنى
هذا اذن ، أن العطاء والحرمان للابتلاء وتلك حقيقة يجب أن لا يخلو
منها ذهن الانسان ان هي الركن الركين في النجاة حينما يبتلى المرء
بالعطاء أو الحرمان ولذلك ابتلى سليمان عليه الصلاة والسلام بالنعم

(١) سورة النمل آية . ٤٠ .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم من حديث أبي زر عن النبي صلى الله
عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى . كتاب البر باب تحريم
الظلم . مسلم بشرح النووي ج ١٦ / ٢٣١ ، ١٣٢٠ . وانظر الجامع
الصحيح لمسلم مصورة عن ط / استانبول ، القاهرة ج ٨ / ١٧٠ .

وأدرك مفسرى ذلك العطاء وطلب التوفيق من الله والاعانة على شكر تلك
المنن ، يبتلى أيضا من باب الحرمان كما هو الظاهر من مفهوم قوله
تعالى ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب قال رب
اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب ﴾ (١)
خاض أغلب المفسرين في معنى هذه الآية بما لا تطمئن
النفوس إليه لا سيما أن أغلب ما قاله المفسرون منقول عن أهل الكتاب .
وهي أقوال لا يعتمد عليها حيث إنها تفقد الوثوق في مصادرها ،
والآية في معناها اخبارية تعلمنا أن سليمان قد فتن بما ألقى على
كرسيه من جسد فرجع طالبا المغفرة فلا مجال للرأى والتخمين فسي
استخراج معنى الآية وأقرب ما تفسره الآية ما ثبت في الصحيح وإن كان
آحادا ما أخرجه البخارى بسنده من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال : " قال سليمان بن داود لا تطوفن الليلة على سبعين
امراة تحمل كل امراة فارسا يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه إن شاء
الله فلم يقل ولم تحمل شيئا إلا واحدا ساقطاً أحد شقيه فقال النبي
صلى الله عليه وسلم لو قالها لجاهدوا في سبيل الله " (٢)

وما اخترته في تفسير هذه الآية الكريمة هو الذى جزم به القاضى

عياض في شفاءه (٣) حيث قال ما نصه : " وابتلاوه ما حكى عن النبي صلى

الله عليه وسلم أنه قال لا تطوفن الليلة . . الحديث المخرج في هامش (٢)

-
- (١) سورة ص آية ٣٤ ، ٣٥ .
(٢) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ج٦ / ٤٥٨ كتاب الأنبياء .
(٣) الشفاء بشرح نور الدين القارى ج٤ / ٣٥٢ مطبعة المدني القاهرة .

وهو الذي استظهره الألويسي في تفسيره (١) ، لأن ما يقال من أن شيطاننا أخذ خاتم سليمان وجلس فوق كرسيه وتصرف في ملكه ثم سقط الخاتم في البحر فابتلعه سمكة فصادف سليمان أكلها فوجد الخاتم في بطنها وغير ذلك من أقوال مزعومة تنسب لابن عباس شيء لا يعول عليه ولا ينبغي النظر فيه لأنها أقوال واهية وأكاذيب أهل الكتاب عليها بادية وما قرره علماء الحديث من نكارة وجودها في معانيها لائحة فليس لدينا ما يثبت بأن سليمان كان يملك ما يملكه ، أو كانت سلطته على الجن والانس مرتبطة بخاتم ، يضاف لذلك القول كيف يمكن لشيطان أن يستولى على ما خول الله لسليمان من ملك بل كيف يدخل لبيته ويأخذ خاتمه وهو النبي ابن النبي . فالشيطان ليس له من سلطان على الانس أكثر من الوسوسة فكيف له أن يتسلط على أفضل الأناسي وهم الأنبياء ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا الا وقد نكبه وأهلكه . فسليمان عليه الصلاة والسلام اذن ابتلى من باب النسيان أو الغفلة التي لا تليق بمقام النبوة فلم يستثن أو يعلق الأمر على مشيئة الله ، وإذا كان الأمر كذلك فما المانع من أن يبتلى بعدم حصول مبتغاه ليتنبه الى خطورة عدم الاستثناء فيما يريد حصوله . ويؤيد هذا أيضا ما يروى عن ابن عباس (٢) أن قریشا سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين فقال

(١) م ٨ / ج ٢٣ / ص ١٩٨ وما ذهب اليه الشيخ النجار في كتابه تاريخ الأنبياء من أن المقصود بالجسد هو سليمان . وأن معنى آنا بارجع الى الصحة والعافية . فهم غير سديد وبعده ظاهر عن المنطق السليم ، انظر كتابه ص ٢٤٤ ط / الثانية بمكتبة المعارف بالرياض ، نشر دار الفكر بيروت .
(٢) انظر تفسير القرطبي العظيم لابن كثير ج ٣ / ص ٧١ نشر مكتبة دار التراث القاهرة .

عليه الصلاة والسلام : غدا أخبركم ولم يستثن فأبطأ عليه الوحي خمسة عشر يوماً فنزل قوله تعالى ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ﴾ (١) فامتحان سليمان كان من هذا القبيل ولذلك استغفر ربه وأتاب حيث لم يتأرب مع الله فيما عزم عليه وزهل عن أن الخلق بيد الله وحده فان شاء أعطى وان شاء منع .

بحث ابتلاء نبي الله أيوب؛ ومن الأنبياء الذين ابتلوا بالنعمة فشكروا وبالنقم فصبروا نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام وهو من ذرية ابراهيم أيضا كما قص الله علينا في الآية الكريمة ﴿ ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ﴾ (٢) ابتلي عليه السلام بما أفاض الله عليه من مال وولد لا نستطيع تحديدهما بالعدد أو نعمتهما بالوصف . وما تنقله بعض الروايات هو في حاجة الى ما يثبت صحتها ولذلك يكفينا القول بأن أيوب عليه الصلاة والسلام كان في نعم وافرة وصحة ضافية ، ولا شك أنه كان شاكرا في تلك الحال غير بطر مما جعل الشيطان يحنق عليه فيوسوس ليمسه بفقد ما يتمتع به من صحة ومتاع ، وتقتضي حكمة الله أن يختبر أيوب بفقد ذلك فيصاب بفقد الولد وفي النفس بالمرض . وليس أي مرض كما يوحي النص الكريم في دعاء أيوب ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ﴾ (٣)

فلولا أن نبي الله أيوب كابد وضاير الآلام الضارة الى درجة

تجعله يجأر الى الله- وهو النبي - بالنداء مصرحا بمساس الضر ،

(١) سورة الكهف آية ٢٣ .

(٢) سورة الأنعام آية ٨٤ .

(٣) سورة الأنبياء آية ٨٣ ، ٨٤ .

لولا ذلك لقلنا إنه مرض كأي الأمراض ولكن حاله تلك تدل على أن مرض
أيوب بلغ منه مبلغا أليما جعله يحس بالمس وهو الذي مدحه الله
فسجل له القرآن درجة عالية من الصبر ، حيث يقول عز وجل ﴿ إنا وجدناه
صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ (١) ولا نستطيع أن نقول أكثر من هذا في
شأن مرض أيوب ويجب الاعراض عما ينقله بعض المفسرين من روايات
تصف مرض أيوب بما لا يليق بنبي كريم ودون اثبات ذلك من طريق
صحيح . فالخلاصة في ذلك أن أيوب عليه السلام ابتلي بالنعيم ثم
ابتلي بفقد تلك النعم وابدالها بالهلايا . فكان عبدا صابرا محتسبا
فجزاه الله أحسن الجزاء بحيث استجاب دعائه . وكشف ضربه بل أعطاه
أكثر مما فقد أثناء المحنة جزاء صبره فكان مثالا يحتذى به في الصبر
والتحمل وفي ذلك ورد قوله عز وجل ﴿ وانظر عبدنا أيوب إن نادى
ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هذا مفتسل بارد
وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب ﴾ (٢)
وقوله صلى الله عليه وسلم : " إن أيوب نبي الله لبت به بلاءه
ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا ممن
أخص لإخوانه به وكانا يفتدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه : تعلم
والله لقد أنزب أيوب نيبا ما أنزبه أحد من العالمين قال له صاحبه :
وما ذاك ؟ قال من ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به ، فلما
راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له فقال له أيوب : لا أدرى

(١) سورة ص آية ٤٤ .

(٢) سورة ص آية ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ .

ما تقول غير أن الله يعلم أنني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق ، قال وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها وأوحى إلى أيوب في مكانه أن يركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . فاستببطأته فتلقته تنظر فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان ، فلما رآته قالت : أي بارك الله فيك ، هل رأيت نبي الله هذا الميتلى فوالله القدير على ذلك ما رأيت أحدا أشبه به منك إذ كان صحيحا . قال : فاني أنا هو قال وكان له اندران ^(١) أندر للقمح ، وأندر للشعير فبعث الله سحابتين ، فلما كانت اهداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق ^(٢) حتى فاض . ^(٣)

فأبدل الله ما كان من أيوب من بلايا نعماء بعدما كشف الابتلاء عن قوة صبر أيوب وعمق إيمانه وذلك أن الله الكريم قد يبتلى الأولياء من عبادته بأنواع من البلايا سواء في النفس أو الولد أو المال لا عن اهانة لهم أو تحقير ولكن امتحانا من الكريم ليصلوا باحتسابهم إلى الدرجات العليا والكرامات الشاهدة لهم بالقربى ، مثلما روى البخاري بخصوص أيوب عليه الصلاة والسلام من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

- (١) الأندر الموضع الذي يداس فيه حبوب الطعام . انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ج ١ / ٧٤ مادة (أندر) .
- (٢) يكسر الراء والاسكان تخفيفا النقرة مضروبة أو غير مضروبة . كتاب المصباح المنير للرافعي ص ٨١٦ مادة (ورق) .
- (٣) أخرجه الحاكم من حديث أنس . يرفعه وقال على شرط الشيخين وأقره الذهبي . كتاب المستدرک ج ٢ / ٥٨١ التاريخ .

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بينما أيوب يفتسل عريانا خر عليه رجل (١) جراد من ذهب فجعل يحشي (٢) في ثوبه فناداه ربه : يا أيوب . ألم أكن أغنيك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ولكن لا أغنى لي عن بركتك " (٣)

وبهذا ينجو نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام من تلك المحنة بالرضا والاحتساب والاذعان مستسلما لما تعرض له حسبا جرى به القضاء الالهي ، وليكون ما يلقاه الأنبياء هم صفوة الخلق - من امتحانات وشدائد قابلوها بالصبر والتحمل اسوة للصالحين الذين يبتلون وذلك ليصبروا كما صبر أولئك ويجئرون إلى ربهم مقرين بضعفهم أمام خالقهم وبالتالي لينالوا ما نال أولئك من درجات عليا ومثوبة حسنى وهذا لون من ألوان الامتحان ، كما أنه يكون للتربية والاعداد لتحمل التكليف الخاصة مثل ابتلاء نبي الله يونس عليه السلام ، حينما كلف بدعوة قومه فلم يستجيبوا أول الأمر فتضجر منهم وضاق ذرعا ففادهم دونما اذن من الله الذى أرسله فلم يترث ليتلقى كيفية المواجهة والعمل مع من لم يستجباله فلم يطق صبرا لطول المدة في دعوتهم وينتظر حتى يأتيه أمر الله فخرج من بينهم بهاء من ايمانهم فامتنح لذلك بأن قيض الله له حوتا فابتلعه وحينئذ يدرك قدرة الله عز وجل المطلقة واحاطته بكل شيء وقضاءه النافذ

-
- (١) الرجل يكسر الرء الجراد الكثير . كتاب النهاية في الغريب لابن الأثير ج ٢ / ٢٠٣ . رجل
(٢) معناه يأخذ بيديه جميعا . انظر الفتح ج ٦ / ٤٢٠ .
(٣) صحيح البخارى بشرحه فتح البارى ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى * وأيوب ان نادى ربه * ٦ / ٤٢٠ .

الذى لا مرد له ، اذن فلا مفر من أمره ولا قدرة على الخروج فيما أمر به ،
وسواء قلنا في تفسير قوله تعالى ﴿ فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى
الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين ﴾ (١) إنه
من التقدير بمعنى التضيق أو من القدر بمعنى القضاء الالهى كما
قال الشاعر : (٢)

ولا عائد ذاك الزمان الذى مضى

تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر
ويؤيد هذا من قرأ تقدر بتشديد الدال مكسورة ، فعلى الحالين
يونس أخطأ فى مفارقة قومه ظنا منه أنه سينجو من التكليف بأعباء
الرسالة التى اختاره الله لها . ففرالى البحر وحينما ركب فلما اضطرب
الفلك بالقوم فساهموا من أجل تخفيف المركب على إلقاء أحدهم فى البحر
فكانت القرعة من نصيب يونس وذلك ليتم اختباره فيدرك خطأه بعدم
صبره . وحينئذ التجأ إلى الله يجأ بالتسبيح مقرا بخطئه فى أعماق
المياه المتكاثفة وهو فى بطن الحوت يسمع الله دعاءه من فوق سبع
سماوات ففرج ما به من كرب وكشف عنه ما حل به من غم ، وتلك منة من
الله تشمل المؤمن الذى يخطئون ويتوبون فيلتجئون إلى الله
معترفين بالخطأ ، وهذا من يونس عليه الصلاة والسلام لا يقدر فى
نبوته من حيث العصمة بل ذلك من الأمور الطبيعية فى أى بشر لكن
الأنبياء لعصمتهم وعلو منزلتهم وخطر مهمتهم قد يأتيهم العتاب

(١) سورة الأنبياء آية ٨٧ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١١ / ٣٣٢ .

بالابتلاء ليصلوا الى أعلى مقامات التربية إذ هم القدوة لغيرهم فلا بد من محن بقدر ما لهم من مناصب عالية في حياة البشر، فيونس عليه السلام لما تاب وهو في غمار أمواج الامتحان وفي أغوار المياه في بطن الحوت أدركته رحمة الله فيلفظه الحوت بعد هزال أخذ منه فيسخر الله له نباتا يظله ليرجع إلى حاله الأولى وليتحمل الرسالة من جديد كما أخبر سبحانه في قوله * وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين * (١)

وقوله عز من قائل * وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين (٢) فالتقه الحوت وهو ملجم (٣) فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون فبيدناه بالعرء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فثامنوا فمتعناهم إلى حين * (٤)

-
- (١) سورة الأنبياء آية ٨٧، ٨٨.
- (٢) الدحض الزلق انظر المصباح المنير للرافعي مادة (دحض) والنهاية لابن الأثير ج ٢/ ١٠٤ ومعناه أن يونس صار من المغلوبين بالقرعة حيث سقط من مقام الظفر والسقوط ناتج عن الزلق . انظر الألويسي م ٨/ ج ٢٣/ ١٤٣.
- (٣) معناه الدخول في الملامة لمن أتى مما يلام عليه سواء من نفسه أو من غيره انظر مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٤٠٥ نشر دار التراث القاهرة .
- (٤) صورة الصفات آية ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨.

فبعد ما مريونس عليه السلام من اختبار جعله يدرك ما وقع فيه من خطأ ، أرسله الله إلى قومه من جديد ليؤدى المهمة التى فرسها في السابق ، ولا حاجة بنا الى القول بأن هذا من يونس قبل إرساله لا سيما أن النص الكريم يقول * وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق الى الفلك المشحون * فالآية الكريمة تعطينا بما لا مجال للريب فيه أن امتحان يونس وقع أثناء تأديته مهمة الرسالة في بداية أمره بدعوة قومه فكان ما كان بينه وبينهم ثم ابتلى بقضية الحوت فصبر واستغفر وأرسل ثانيا إلى قومه فثامنوا ولا مانع من ذلك ان فرار يونس لا يقدح في نبوته كما سبق توضيح ذلك قريبا ، فيونس لعلو مقامه كان جديرا بذلك الابتلاء لا سيما أننا نجد أمثاله في المهمة كابدوا أقوامهم وتحملوا محنة اصرارهم ، وشدة شكيمتهم في العصيان والعناد فلم يضجروا أو يهربوا من ثقل الرسالة كنوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام ولذلك نجد القرآن الكريم يحذر خاتم النبيين وينهاه عن الوقوع فيما وقع فيه يونس على نبينا وعليه أفضل الصلاة والتسليم وذلك في قوله عز وجل * فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فاجتباه ربه فجعله من الصالحين * (١) ، هذه الآية دليل صريح على أن يونس ابتلى بعدما أرسل والا لفقد التشبيه مرماه في الآية الكريمة وفيها أيضا أن خاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام قد لاقى من

(١) سورة القلم آية ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ .

قومه قريش ما يجعله يضيق بهم ذرعا بل لا قى منهم ما لم يلقه
غيره من الأنبياء فلم تترك قريش طريقا لانايتة صلى الله عليه وسلم
إلا سلكته فقد أودى بالتضييق عليه وعلى عشيرته في شعب بني هاشم
حتى هلك الضرع والقرن والصبيان والكهول والشيوخ وذلك بالحصار
الذى ضربته قريش مجتمعة حتى بلغ بهم الجهد وسمعت أصوات
صبيانهم واشتد بهم البلاء طوال سنتين حتى ذاق صلى الله عليه وسلم
آلام الجوع والخوف (١) وبعدها خرج صلى الله عليه وسلم تاركا
الأهل والولد والمال طالبا موطننا آخر لانجاح ما كلف به من تبليغ الدعوة
فيتجه الى قبائل ثقيف وتبلغ المحنة ذروتها مرة أخرى فيلقى من ثقيف
أشد ما لقي من قريش فما أن سمعوا قوله ودعوته حتى سلطوا عليه
سفاة هم وصبيانهم وعبيدهم يرشقونه ويرمونه بالحجارة حتى أدوا قدميه
الشريفتين (٢) ، وظهر علو مقامه في الصبر المتميز عن أمثاله من الأنبياء
بحديث مضي صلى الله عليه وسلم في عرض الدعوة بدون كلل أو ملل حتى
ولو اقتضى الأمر مغادرة الأهل والوطن والهجرة الى أرض تنطلق منها
الدعوة ويكتمل منها البناء الاسلامي الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم :
" إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله
إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا

(١) انظر سيرة ابن هشام القسم الأول ج ٢/٣٥١ الطبعة الحلبية
وانظر زاد المعاد لابن قيم الجوزية ج ٢/٤٦ الطبعة الثانية
الحلبية.

(٢) سيرة ابن هشام القسم الأول ج ٢/٤٢٠ الطبعة الثانية
الحلبية.

وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين (١) .
وبهذا الاستعراض نكون قد أدركنا صورة أعطتنا نبذة ضافية
عن نموذج هو في قمة الصلاح الانساني بأسمى مكانة وأعلى درجة وفي نفس
الوقت هو نموذج من الرسل امتحن بأعلى صور الابتلاء وأشدّها وطءا
في النفس الانسانية وأبلغها أذى في عمق القلوب فكانوا قدوة لمن
دونهم في العزيمة ومنازا لمن افتدى بهم في اشتداد الشكيمة عندما
ينزل الامتحان بساحتهم وتحلّ البلياء بأجسامهم وأنفسهم ، فكانوا دائمي
الالتجاء الى الله فهو ملازمهم ، والتوبة اليه عندما يخطئون كبشرهسي
محط رحالهم وتلك غريزة مسنونة في حياة الانسان لا مناص من
الاحتماء بظلالها وإلا زاغ الانسان عن طريق الحق والهدى ، وساعتها
يكون خاسرا فيما يمر به من اختبار متحتم على كل انسان فردا كان أو
أمة .

(١) أخرجه البخاري بسنده من حديث أبي هريرة . كتاب المناقب باب
خاتم النبيين كتاب فتح الباري ج ٦ / ٥٥٨ .

الفصل الثاني

ابتلاء الأُمّ المدعوة قبل الاجابة

كانت الأمم في التدين ذات اتجاه واحد وهو توحيد الله عز وجل وما لبثت فترة من الزمن على هذا الأصل حتى طرأ عليها الانحراف عما فطرها الله عليه من استقامة في المنهج وإخلاص في التوجه بسبب اختلاف الناس في الحق والهدى فمشطوا بذلك عن سبيل الهداية . ومن كرم الله على الانسام أن أرسل الرسل لرد الناس الى طريق الحق بالبيان والحجة القاطعة مع حرية الاختيار في الاجابة فكانت الأمم المدعوة قسمين ، قسم استجاب مهما بلغت تكاليف الدعوة ومشاقها ، وقسم أعرض فسلك سبيل الشيطان ما جعل عاقبته الخسران ، هذه قسمة لم تخرج البشرية عنها منذ أن انحرفت في الاعتقاد والسلوك ، ولما أصبح الأمر كذلك بعث الله رسلا لتبصير الناس وارجاعهم الى طريق الهدى وأنزل كتباً على أولئك الرسل فيها توضيح الطريق لمن ضل به باقامة الحججة عليهم حيث خرجوا عن الحق وانحرفوا عن سواء السبيل ونفى بعضهم على بعض فكان البغي هو السبب في خروجهم عن الفطرة ثمة يد هذه الحقيقة بقوله عز وجل ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ (١) . فالآية تبين أن الله أقام الحججة على الخلق بعد ما اختلفوا في الحق وضلوا وظلموا

بارسال رسل مبينين للناس الحكم فيما اختلفوا فيه من الملل والاديان
لكي يكونوا في عبادتهم على نهج واحد كما اراده الله على دين واحد وكما
هو اصلهم الذي انحرفوا عنه بسبب الحسد وحب الشهوات ، فمن الغي
الكبر والحسد وجاهد الهوى جانبا واستجاب للحق كان من الناجين يوم
الجزاء ومن اصّر على البغي والعناد وكفر بما جاءت به الرسل كان من
الخاسرين ومن هذا المنطلق نرى قوم نوح وهو اول الرسل كما ثبت في
الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة " فيأتون نوحا
فيقولون يا نوح أنت اول الرسل الى أهل الأرض " (١) نراهم فسي
أن أكثرهم لم يستجبلت نوح عليه السلام رغم طول المدة التي ظل نوح
يدعوهم فيها ، وذلك أنهم كانوا يعبدون الأصنام بل بالغوا في الاتجاه
اليها لدفع الضر وجلب الخير ولذلك كانت السمة البارزة في دعوة نوح
مع قومه وهو الأمل مر الغالب أيضا في دعوة الرسل طلبه منهم ترك عبادة
غير الله فدعاهم من باب الترغيب بحيث إن اتقوا الله وتركوا عبادة الأصنام:
ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، وهي في الأصل ، كما جاء في
صحيح البخاري أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى
الشیطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون
أصبابا وسوها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى اذا هلك أولئك وتنسخ
العلم عدت " (٢) فنجبهم نوح الى أنهم ان تركوا عبادتها وتوجهوا

-
- (١) أخرجه البخاري من رواية أبي هريرة في صحيحه انظره بشرح
فتح الباري ج ٦ / ٣٧١ ، كتاب الأنبياء باب قول الله عز وجل
" انا أرسلنا نوحا " .
- (٢) تغير العلم بالمقصود من اقامة تلك النصب بحيث لم تقم للعبادة في
أول الأمر .
- (٣) انظر صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ج ٨ / ٦٦٧ كتاب التفسير
باب " ودأ ولا سواع " .

بالطاعة الى الله الواحد الاحد غفر لهم ما سلف منهم من الذنوب ولا يؤاخذهم
بعذاب الاستئصال في الدنيا ، وذكرهم بما يلفت نظرهم الى من يستحق
التوجه إليه بالعبادة وذلك أنهم إن رجعوا عما هم عليه من ضلال وكفران
واستغفروا ربهم سيعطيهم ما هم في حاجة إليه . وبالتالي ما هم مولعون
بحبه ، فان هم استجابوا من الله عليهم بالأطوار النافعة وبالمال والبنين
وما يتبع ذلك من مباحج الحياة من البساتين التي تجرى خلالها الأنهار
وما تتم به الحياة فوق هذه الأرض من شمس ساطعة وقمر جعله الله
نورا ، كما حذرهم من عاقبة الجحود وعدم الاعتراف للخالق بالعظيمة
والقدرة الظاهرة في كل شيء حتى في أصل أنفسهم حيث إن الله هو
الذي خلقهم متنقلين في أحوال شتى كما جاء في قوله تعالى ﴿ ولقد
خلقنا الانسان من سلاله من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا
النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغه ، فخلقنا المضغه عظاما فكسونا العظام
لحما ثم أنشأناه خلقا ۝ اخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (١) فمن
كانت حاله كذلك ألا يليق به الاعتراف بالعبودية لمن خلقه أطوارا
وأحسن إليه بقدرته الظاهرة فيه ألا يليق به ألا يشرك به شيئا في
عبادته ، وهكذا ظل نوح عليه الصلاة والسلام يدعو قومه ردها من الزمن
وصل الى تسعمائة وخمسين سنة كما أخبرنا عز وجل في قوله ﴿ ولقد
أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم
الطوفان وهم ظالمون ﴾ (٢) دعاهم نوح في هذه المدة بالجهر مرة

(١) سورة المؤمن آية ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

(٢) سورة العنكبوت آية ١٤ .

وبالسر أخرى مبينا لهم موجبات العذاب ، ووجه الخلاص منه : كل ذلك وقومه يقابلونه بالعناد والاستكبار كما جاء في قوله تعالى ﴿ قال نوح رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا واني وكلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، ثم إني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يميدكم فيها ويخرجكم إخراجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴿ (١)

فلم يلتفت قوم نوح لكل هذه الدلائل المنبئة في أرجاء الكون والتي يعايشونها في كل لحظات حياتهم بل دأبوا على الاستكبار وقلب الموازين التي قد تحددت بها منازل البشر حيث جعلوا المال هو الدائرة التي يلتفت حولها جمهرة الناس وجعلوا أهله هم القدوة في المجتمع الانساني ولذلك تعللوا لعدم إيمانهم بدعوة نوح أن أناسا في نظرهم أزدلون قد اتبعوه وءامنوا بما جاء به فجعلوا المال ميزانا في اتباع الغضائل فما دام أن الذين اتبعوا نوحا فقراء فهم لا يوءنون به ، لأن مرتبتهم أعلى بالمال من مرتبة أولئك الساكنين الذين اتبعوا نوحا وسلكوا معه سبيل الهدى . وهذا يدل على أن قوم نوح كانوا في فكرهم

(١) سورة نوح آية ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

سطحيين حيث خصوا المنزلة العالية بمن يملك حطام الدنيا ومن هو
أوفر حظا في متاعها . والمنزلة السفلى عندهم لمن حرم متاع الحياة
الدنيا وكان فقيرا لا مال له ولا متاع ، هذه نظرتهم الخاطئة ومعيارهم
للأشياء . وينظرتهم تلك خسروا أنفسهم وضلوا سبيل النجاة إذ لم يدركوا
أن الدنيا بحذافيرها لا تعدل عند الله جناح بعوضة . ولم يدركوا
أن النعيم والمتاع هو الحياة الآخرة * وإن الدار الآخرة لهي الحيوان
لو كانوا يعلمون * (١) وحيث لم يدركوا أن المنازل العالية تنال بالدخول
إلى الجنة وأن الذل والهوان هو لصيق بالذين ضلوا طريق الإيمان حق
عليهم العذاب في الدنيا بالفرق ، وفي الآخرة بالدخول في النار
يقول الله عز وجل * فقال الملا الذين كفروا من قوم ما نريك إلا يشرا
مثلنا ، وما نريك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي (٢) وما نرى
لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، قال يقوم أروم يتم إن كنت على بينة
من ربي وإني أتاني رحمة من عنده فسميت عليكم أنزلتموها وأنتم لها
كارهون ويا قوم لا أسألكم مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطار
الذين آمنوا إنهم ملا قوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون ويا قوم
من ينصرتني من الله إن طردتهم ، أفلا تذكرون ولا أقول عندي خزائن الله
ولا أعلم الغيب ولا أقول إنني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن
يوثيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إنني أذا لمن الظالمين * (٣)

(١) سورة العنكبوت آية ٦٤ .

(٢) يقصدون أن الذين اتبعوه هم في نظرهم وتفكيرهم سطحيون
فلا ينظرون إلى الأمور بتعمق . انظر تفسير القرآن العظيم
لابن كثير ج٢/٤٤٢ نشر دار التراث القاهرة وانظر معانسي
القرآن للفراء ج٢/١١٠ .

(٣) سورة هود آية ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .

فالأيات تبين أنهم تكبروا عن الحق وأبوابه ما دام أن الذين آمنوا به هم فقراء فيؤمنون الايمان بما جاءهم به رسولهم بدعوى أن قوما لا قيمة لهم في نظرهم قد آمنوا بنوح وليسوا هم في درجاتهم المادية حيث احتقروهم بما عاينوا عليهم من رثاءة الحال وقلة المال دون عمق في النظر وتدبر في كمالات المعاني التي توءهل الانسان للتوفيق الى الدرجات العالية ذلك هو الميزان لأحوال الانسان الظاهرة ، وهذه صورة يراها الانسان تتكرر في كل زمان وعند كل من لم يعلم الغاية من خلقه ومع كل الذين طفوا كقوم نوح حيث عمدوا إلى تكذيبه مع أنه لم يدع شيئا يستلزم تكذيبه كادعاء علم الغيب أو ادعاء السيطرّة على خزائن الله أو أرزاق عباده أو ادعاء الملائكية ، وانا الذي ذكره نوح من دعوة قومه وتحذيرهم العذاب بوحي من الله فهو صادق في دعوته موءيد في ذلك بالحجة القاطعة ولا يضره إن لم يتفكروا ويتدبروا بعقولهم التي هي ملاك الخير ، وبها يمتاز الناس عن غيرهم من الخلائق بل عن بعضهم بعض وحيث لم ينتفعوا بذلك فلا يلزمهم نوح الايمان فهم مختارون في الايمان وعدمه ، وموءاخذون على اختيارهم . ويستمر قوم نوح في اختلاق الافتراءات واختراع العلل والأعداء فيها هم يتعللون لعدم ايمانهم أيضا بأنه بشر مثلهم لا ينبغي أن يتفضل عليهم إن لا مزية له في نظرهم عليهم تجعله يختص بالنبوة وتجب له الطاعة فلو شاء الله أن يرسل إليهم رسولا لا نزل ملائكة حيث قال سبحانه ﴿ وقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلاتتقون ،

فقال الملائكة الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولى ﴿١﴾ وهي فرية كثيرا ما تعلق بها المتكبرون من الأمم المدعوة لتوحيد الله ، وهي في الحقيقة يراد بها التعجيز للدعاة من الأنبياء ، والا لم يسبق أن أرسل الله ملكا لقوم وبالتالى هم لم يؤمنوا بالله الواحد الأحد رب الملائكة الذين لم يدرك الانسان عنهم شيئا لولا الاخبار من الله عز وجل وظل قوم نوح سادرين في تكبرهم فكما أفحمهم نوح وأبطل فرية من دعا وبهم كما اخترعوا أخرى بحيث مرة اتهموه بأنه في ضلال مبين ، بذهابه عن طريق الحق في نظرهم ومرة رموه بالجنون كما قال عز وجل في الأولى ﴿٢﴾ قال الملائكة من قومه إنا لنراك في ضلال مبين قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴿٣﴾ . وقال عز وجل في الثانية ﴿٤﴾ إن هو إلا رجل به جنة فتريصوا به حتى حين ﴿٤﴾ وفي نهاية الأمر لما أعياهم أن يجدوا ما يفحمون به نوحا التجأوا إلى القوة والتهديد بالرجم والقتل كما قال عز وجل ﴿٥﴾ قالوا لئن لم تنته يينوح لتكونن من المرجومين ﴿٥﴾ واستمروا في عتوهم واستكبارهم حتى أخذهم الطوفان وهم كافرين . فكانوا بذلك من الخاسرين في الدنيا والآخرة .

(١) سورة المؤمنون آية ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) وقد مر معنا ضرورة بشرية الرسل . انظر ص ١٨٧ .

(٣) سورة الأعراف آية ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ .

(٤) سورة المؤمنون آية ٢٥ .

(٥) سورة الشعراء آية ١١٦ .

ففي الدنيا كانت خاتمهم بالفرق وذلك أنه لما آيس نوح من
إيمانهم بأن أخبره الله أنه لن يوه من الا من قد آمن من قومه ، ودعا
ربه لينصره عليهم سلط الله عليهم المياه من فوقهم ومن تحتهم فتحت
أبواب السماء بالمياه الجارفة وتفجرت الأرض بالأنهار المدمرة وذلك
ما أخبرنا به الله في الآيات الكريبات * وأوحى الى نوح أنه لن يوه من
من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون * (١) ، وقوله
تعالى * قال رب انصرني بما كذبون فأوحينا إليه أن اصنع الفلك
بأعيننا ووحينا ، فاذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين
اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين
ظلموا إنهم مفرقون * (٢) وقوله عز وجل * فدعا ربه أني مغلوب
فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء
على أمر قد قدر * (٣)

وفي الآخرة بالخلود في العذاب المقيم ، بينما كانت النجاة لنوح
ومن آمن معه كما قال عز وجل * قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات
عليك وعلى أم من معك وأم ستمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم * (٤)
فنجى الله نوحا ومن معه من المؤمنيين وتلك سنة الله التي

لا تتغير في المكذبين والمؤمنيين فللمكذبين الخسران والخذلان وللمؤمنيين
النجاة والنصر والاكرام .

-
- (١) سورة هود آية ٣٦ .
(٢) سورة المؤمن آية ٢٦ ، ٢٧ .
(٣) سورة القمر آية ١٠ ، ١١ ، ١٢ .
(٤) سورة هود آية ٤٨ .

موطن الابتلاء في قصة نوح :

لا ريب أن القصص القرآني ساقه الله لأخذ العبرة منه بالنظر في مواقف الأمم من انبيائهم كما قال عز وجل * ولقد تركناها آية فهل من مدكر * (١) وكما قال سبحانه * إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين * (٢) . فقوم نوح قابلوا دعوة نبيهم بالآتي :

١ - قسوة قلوبهم وسوء أدبهم مع نبيهم حيث يناديهم عليه السلام بما فيه التودد بما يستشير مشاعرهم من الروابط التي بينه وبينهم لعلهم يدركون عمق شفقة نوح عليهم وحبه الخير لهم وحرصه على النصيحة لهم ولذلك تراه يرد عليهم بالوداعة والحلم في كل اتهام وجهوه إليه كما نرى ذلك واضحا في قوله تعالى * قال يا قوم إني لكم نذير مبين * أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون * (٣)

وفي قوله تعالى * قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون * (٤) بينما القوم يقابلون سماحة نوح وتودده لهم ولطفه معهم بالسماحة والاعراض واتهامهم له بالجنون والضلال وغير ذلك كما أنهم خاطبوه بكلام فظ غليظ كله سخرية واستهزاء فكانه غريب عنهم كما يستشف من قوله

تعالى * ما نراك إلا بشرا مثلنا * (٥) وقوله تعالى * إنا لنراك في ضلال مبين * (٦)

- | | | | |
|-----|--------------------------|-----|----------------------------|
| (١) | سورة القمر آية ١٥ . | (٢) | سورة المؤمن آية ٣٠ . |
| (٣) | سورة نوح آية ٢ ، ٣ ، ٤ . | (٤) | سورة الأعراف آية ٦١ ، ٦٢ . |
| (٥) | سورة هود آية ٢٧ . | (٦) | سورة الأعراف آية ٦٠ . |

وفي قولهم : * إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين * (١) وفي

قولهم * قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين * (٢)

٢ - جهلهم بمواطن القيم وما ترتفع به المنازل حيث

جعلوا المال هو القيمة التي تبني عليها الفضائل فمن فقد هـ وكان فقيرا

يعد من الأراذل ، وما دام الأمر كذلك في نظرهم فهم متنعمون من

اتباع دعوة نوح حيث آمن به الفقراء * قالوا أنوء من لك واتبعتك

الأرذلون * (٣) وما تراك اتباعك إلا الذين هم أراذلنا يادى الرأى

وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين * (٤)

فالذين رأيهم شديد وقولهم مصيب هم أصحاب المال والسلطان

والجاه والقوة .

٣ - نكرانهم لنبوة البشر حيث رأوا بفكرهم الخاطيء أن الرسول

ينبغي أن يكون ملكا ولذلك فان ادعاء نوح النبوة ما يريد به إلا الاستعلاء

عليهم وتفضيل نفسه من بينهم وإن لم يكن إلا هذا ولا ذاك فهو مجنون

* ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة

ما سمعنا بهذا في آباءنا إلا أولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى

حين * (٥) وهذا منهم يدل على أقصى غاية الكبر الذى وصلوا اليه والحسد

الذى رأوا عليه ، فلم يرضوا أن يكون نوح رسولا لهم يأتيهم الخير والهدى

على يده فيفضلهم بذلك ويشرف عليهم .

(١) سورة المؤمن آية ٢٥ .

(٢) سورة الشعراء آية ١١٦ .

(٣) سورة الشعراء آية ١١١ .

(٤) سورة هود آية ٢٧ .

(٥) سورة المؤمن آية ٢٤ ، ٢٥ .

٤ - اصرارهم على العناد واقفال قلوبهم عن التذكر والتدبر
فيما هو حق ، وذلك ما يلجأ إليه المتكبرون في كل عصر وعند كل دعوة
تقضى مضا جع المتكبرين وتهد منازل الاثرياء المتسلطين . فقوم نوح لما
لم يستطيعوا أن يقارعوا الحجة بالحجة طلبوا من نوح أن يأتيهم
بالعذاب الذى طالما أوعدهم بحلوله بهم . فعينما يعجز الطفلة
عند دحض الحق ويعمدون الى نصره الباطل وتحق عليهم الخاتمة
السيئة يطلبون نزول العذاب بهم استهانة واستهزاء وبالفة فسي
عدم اكراسهم بدعوة الايمان وبالتالى ليسوا بمصدقى انبياء الله فيما يقولونه
كقوم نوح حيث قالوا * يا نوح قد جادلنا فأكثرت جدالنا فأتنا
بما تعدنا إن كنت من الصادقين * (١) ولذلك سخروا منه حينما شرع
في صنع السفينة وهذا يدل على أنهم كانوا قوما متبلدى الفكر والنظر
وإلا لما كان نوح يتكلف صنع سفينة ضخمة تحمل كثيرا من الناس
والحيوان والطير من كل زوجين اثنين * ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملا
من قومه سخروا منه ، قال إن تسخروا منا فلنا نسخر منكم كما تسخرون
فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم * (٢)

فكانت الخاتمة لقوم نوح الفرق بالوظفان فلم تبق لمن كفر
بنوح باقية وطوتهم السنون والأيام . وهبط نوح ومن معه بالبركات
والسلام كما قال عز وجل * قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك
وعلى أم من معك وأم ستمتعهم ثم يمسهم منا عذاب ألهم * (٣)

(١) سورة المؤمن آية ٣٢ .

(٢) سورة هود آية ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) سورة هود آية ٤٨ .

أخرج ابن جرير بسنده عن محمد القرظي قال : " دخل في ذلك السلام والبركات كل مؤمن من الي يوم القيامة ، ودخل في ذلك المتاع والعذاب الأليم كل كافر وكافرة الي يوم القيامة " . (١)

ميث ابتلاء قوم عاد ، وقد ظهر ذلك في الأمم التي تلت قوم نوح كعاد التي نذكرها الله تالية لآمة نوح حيث قال عز من قائل * واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح * فظهر قوم عاد أيضا بانحراف في العبادة حيث اتخذوا أصناما سموها بأسماء واتجهوا إليها وهي لا تنفعهم بشيء ولا تضرهم بشيء وتركوا عبادة من حباهم بنعم جملة حيث من عليهم بالعيون الجارية والبساتين الوارفة وذلك بعد أن خلقهم على هيئة في الكمال الانساني وصفة عالية في القدرة ومسطرة في الجسم فبدل أن يتوجهوا إلى المنعم بالشكر والاعتراف بما أسدى إليهم من خيرات متتالية ويلتجئون إليه عند الملهمات ليكشفها عنهم بفضلهم ورحمته ، بدل ذلك اتجهوا بحسهم الميلى الى أصنام لا يرون منها نفعاً ولا ضراً . ومجتمع يكون على هذه الصفة من الضلال لا مناص من أن يسود فيه الظلم والظفیان والفتك بالقيم والبطش بالضعاف فعتوا عتوا كبيرا وافتروا افتراء واضحا بينا فأصبحت الحياة في دنياهم في حاجة إلى إصلاح العقيدة والمنهج ،

(١) قال ثنا ابن وكيع قال ثنا أبي عن موسى بن عبيدة عن محمد . وفيه موسى ضعفه في التقريب ج٢/٢٨٦ ط/ الثانية ١٣٩٥ وباقي رواته ذكرها في الثقات إلا سفيان بن وكيع كان صدوقا لولا ما دخل عليه من جهة وراقة . انظر التقريب ج١/٣١٢ والأثر من حيث معناه صالح للأخذ به .
جامع البيان ج١٢ ص ٣٤ الطبعة الأولى - الأُميرية .

فأرسل الله إليهم أخاهم هودا فدعاهم أول ما دعاهم الى توحيد الله
بالرجوع إليه بالعبادة وحده لا شريك له والتزلف إليه بالطاعة والاستغفار
ما ارتكبه من جحود لآلائه وحذرهم عاقبة من سبقهم من قوم نوح الذين
عاندوا واستكبروا فلم يهتدوا إلى سبيل النجاة كما أخبر عز وجل بذلك
حيث قال * وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم
من اله غيره أفلا تتقون * (١) * وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم
اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون * (٢) * كذبت عاد
المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون اني لكم رسول أمين فاتقوا الله
وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين
أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذا
بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما
تعلمون أمدكم بأنعام ونين وجنات وعيون ، اني أخاف عليكم عذاب يوم
عظيم قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين * (٣) لكن قوم
عاد كانوا في غاية من الاستهتار والاستهزاء والغلظة فسلكوا بذلك
مسلك أملا فهم من قوم نوح عكس ما قابلهم به هود نبي الله من
نداء فيه اظهار القربى لهم بالآخوة النسبية وفيه بيان الأمانة
والحفاظ على مصالحهم والنصيحة لهم مع تذكيرهم ولفت نظرهم إلى ما
هم فيه من نعيم . قابلوا كل ذلك بوصف هود مرة بالسفه ، ومرة يعجبون

(١) سورة هود آية ٥٠ .

(٢) سورة الأعراف آية ٦٥ .

(٣) سورة الشعراء آيات ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،

١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ .

من كونه رسولا وبالتالى حينما ذكرهم ما هم فيه من نعم وبين لهم أنه لا يريد بدعوته سلطانا ولا مالا وانما ينتظر الأجر من الله الذى أرسله إليهم كما رغبتهم بأن يستغفروا الله ربهم ورازقهم ليزيدهم نعماً على ما هم فيه من كرتها لما بين لهم ذلك اتهموه بأنه أصيب من طرق بعض الهتهم في عقله حيث أمرهم بترك التوجه إليها بما ليس لها فيه حق وبما هو خاص لله ورموه بما هم أحق به ، وسلوكهم ينطبق عليه فكانوا كما قال القائل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رصد

وينكر الفم طعم الماء من سقم

وهكذا مضى قوم عاد في غيهم وركوبهم عما الشطط والعناد فأنكروا أن يكون الرسول بشرا مثلهم في الآدمية يتناول الطعام والشراب وأخيراً أبعدوا منكرين أن يكون هناك حياة أخرى غير هذه الحياة وانما هي حياة واحدة في الدنيا يأتي جيل وينقرض ثم لا يعود وهكذا فلا بعث ولا نشور ومن ثم فلا يستلون عما يفعلون ويقولون ولا عن انفلاتهم في الحياة يفجرون ويفسقون ويعبثون في الأرض فساداً ولذلك فهم ليسوا على استعداد لسماع هود ، فليعظهم أولاً يعظهم . وختاماً : لطمس بصيرتهم طلبوا من نبيهم الاتيان بما حذرهم منه من عذاب عظيم . وحينئذ تركهم هود عليه الصلاة والسلام بعد أن أبلغهم رسالة ربه وأبو إلا التكذيب والعدوان على الرسول مخبراً إياهم بأن العذاب سيحل بهم فكانت خاتمتهم مخزية حيث سلط عليهم ريحا دخلت عليهم حتى قمعور

بيوتهم فأخرجتهم ثم تركتهم أجسادا نخرة ذلك ما أخبر به الله في قوله
الكريم * قال الملاء الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك
من الكاذبين قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين
أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين * ^(١) وفي قوله عز وجل * يا قوم
لا أسألكم أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرني أفلا تعقلون ويا قوم استغفروا
ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم
ولا تتولوا مجرمين ، قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي الهتنا
عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض الهتنا بسوء
قال إني أشد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدونني
جميعا ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو
أخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم * ^(٢) وفي قوله عز وجل
* وقال الملاء من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في
الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما
تشربون ، ولئن أطعتم بشر مثلكم لئنكم إذا لخاصرون أيعدكم أنكم إذا
متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما تعدون إن هي
إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين * ^(٣) وفي قوله تعالى

(١) سورة الأعراف آية ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) سورة هود آية ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) سورة المؤمن آية ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ .

* فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة
أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بئائنا يجحدون
فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي فـي
الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون * (١)

موطن الابتلاء في قصة عاد :

١ - يظهر ذلك في مقابلتهم الحسنى بالسوء أى كما ظهر
سابقا في قوم نوح فكما لان هود عليه الصلاة والسلام في القول لهم كلما
ازدادت قلوبهم قسوة وسلخوا سبيل الظن والسوء والاستهزاء والاصرار
على الباطل والشتم وذلك كقولهم * هواء علينا أوعظت أم لم تكن من
الواعظين إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين * (٢) وكقولهم
* إن نقول الاعتراك بعبء الهتنا بسوء * (٣)

٢ - عدم اكتراثهم بتحذير هود لهم من عذاب محقق
إن هم لم يتركوا عبادة الأصنام فتحدوه بعدم تركها بل بطلبهم منه
الاتيان بما وعدهم به من عذاب كما قال تعالى * قالوا أجبنا لتأفكنا
عن الهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * (٤) واستمروا عاكفين
على عبادة الأصنام حتى جاءهم العذاب من حيث حسبوه خيرا * قالوا
هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل
شيء بأمر ربها فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين * (٥)

-
- | | |
|-----|------------------------------------|
| (١) | سورة فصلت آية ١٥ ، ١٦٠ . |
| (٢) | سورة الشعراء آية ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ . |
| (٣) | سورة هود آية ٥٤ . |
| (٤) | سورة الأحقاف آية ٢٢ . |
| (٥) | سورة الأحقاف آية ٢٤ . |

٣ - غرورهم بما من الله به عليهم من القوة ودواعي البطش من أجسام عظيمة وأموال أترفتم فلم يشكروا ربهم على ما أعطاهم بالاستجابة لدعوة أخيهم هود الذي دعاهم الى الايمان وحذرهم مما هو واقع بهم لا محالة - من عذاب فأغلظوا له القول واغثروا بما هم فيه ممن ترف حتى أنكروا أن يكون النبي بشرا * ولئن أطعتم بشرا مثلكم لإنكم اذا لخاسرون * (١)

٤ - مبالغتهم في استبعاد واستحالة وجود حياة أخرى بعد هذه الحياة وادعائهم أن الأمر أنف وما هي الا أجيال تأتي ، وأجيال تضمحل كلما هلك جيل جاء بعده جيل وانقضى الأمر لاتبعة ولا مسئولية كما قيل : ما هي الا أرحام تدفع وأرض تبلع وهذا القول منهم يريدون به اراحة ضمائرهم التي توءنهم وفطرتهم التي تضيق بفسقهم وخروجهم عن المنهج الالهي * أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ، هيئات هيئات لما توعدون وإن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن ببيعوثين * (٢)

٥ - صرفهم الأموال التي من الله عليهم بها والقوة التي أمدهم بها فيما لا مصلحة ترجى منه ولا فائدة ترتقب فيه بل ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ويعيشون بها في الملذات والشهوات ويشيدون البنايات العالية والمنازل الفاخرة فخرجوا بالمال عن صرفه فيما ينفع المجتمع من سد خلة الفقير وجبر كسر الضعيف بل راحوا يبطشون

(١) سورة الموء منون آية ٣٤ .

(٢) سورة الموء منون آية ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ .

بالضعفاء ويتجبرون على من دعاهم إلى الهدى أو الإصلاح * أتبنون بكل ربيع آية تعبتون وتتغفون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون * (١)

٦ - نظرهم فيما دعاهم نوح إليه كان سطحيا يدل على

تبلد حسهم وضميرهم في الطفيلان وذلك أن هودا عليه السلام صدر منه ما ينبه قلوبهم لوتدبروا ، ويوقظهم من سباتهم لوتفكروا ، حيث تحداهم وهم أكثر وهو انسان فرد بأن يكيدوه وأسرع ما يستطيعون فلم يبسال بهم ، لأنه مرسل من رب قوى " اخذ بناصية كل شي " في هذا العالم وفي جميع العوالم والأكوان وذلك بعد أن تبرأ مما يعبدون من الأصنام ، فما كان يضرهم لواتبعوه بعد أن تحداهم على كرتهم وهو وحيد بينهم لولا أن هناك قوة توه يده فيما قال ، يضاف لهذا أيضا أنهم حينما استعجلوا العذاب وطلبوا الاتيان به تبرأ هود من أن يعلم الغيب ورد العلم لله بحلول وقت العذاب عليهم فالله الذي أرسله إليهم هو العليم بذلك * قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون * (٢) لوتوقفوا هنا بتأمل وألقوا الطفيلان جانبا لا دركوا أن نوحا مرسل من عند الله حيث لم يستطع أن يزيد على اخبارهم بحلول عذاب بهم لا يدري وقته ولا كيفيته بل العلم به عند من أرسله

(١) سورة الشعراء آية ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) سورة الأحقاف آية ٢٣ .

وهو الله . ويمضى زمان قوم عاد بعد أن أجريت عليهم سنة الله في
المكذبين فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية وأنجا الذين فتحوا
عيونهم وقلوبهم للمرسلين ، ثم يأتي زمان قوم ثمود بعدهم كما
قال عز وجل ﴿ وانكروا إن جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ (١) ويعيدون
ما سبق أن سلكه قوم نوح وقوم هود عبدوا غير الله وتقربوا للأصنام
فبعث الله لهم أخاهم صالحا على تبينا وعليه أفضل الصلاة والتسليم ليعيدهم
إلى رشدهم وينبئهم إلى الانحراف الذي وقعوا فيه والذي طرأ على سلوكهم
فيخاطبهم خطابا كله مودة وشفقة عليهم مبديا لهم النصيح مذكرا بإياهم
نعم الله التي يتمتعون بها اثناء الليل وأطراف النهار فبعد أن لم يكونوا
من الله عليهم بايجادهم من العدم فخلقوا الأقسام التي بادت قلوبهم
وسخر لهم الأرض وما فيها من متع يستغلونها ومن قصور يشيدونها
ومن بيوت في الجبال ينحتونها ومن مقام بين الجنان والزرور والثمار
الوافرة والتي جعلها الله لهم سهلة لينة كما أخبر سبحانه وتعالى
﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو
أنشأكم من الأرض واستمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي
قريب مجيب ﴾ (٢) وفي قوله تعالى ﴿ وانكروا إن جعلكم خلفاء من
بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من
الجبال بيوتا فانكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ (٣)

-
- (١) سورة الأعراف آية ٧٤ .
(٢) سورة هود آية ٦١ .
(٣) سورة الأعراف آية ٧٤ .

وفي قوله تعالى * كذبت ثمود المرسلين إن قال لهم أخوهم صالح
ألا تتقون إنني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه
من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتركون فيما ها هنا آمنين في
جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا
فرهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المفسدين الذين يفسدون في
الأرض ولا يصلحون * (١) وهكذا بعد أن اجتهد صالح عليه
الصلاة والسلام في رد قومه إلى طريق الهدى بالقولة المنبهة والنصيحة
البالغة والموعظة الحسنة والقول اللين ، ساموه بما هم أهله وحالتهم
ناطقة به . رموه بالحرمة وأخرى ينسبون إليه ما أصابهم من مصائب
يختبرون بها ، وثالثة أنكروا كسابقيهم رسالته إليهم يدعوى أنه بشر
مثلهم فكيف يختار من بينهم . وهي دعاوى - كما سبق القول - لا تقوم
لها قائمة ولا تجد لها أذنا صاغية . وجوه الافتراء عليها بادية
كما جاء في قول الله عز وجل * قالوا إنما أنت من السحرة ما أنت إلا
بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين * (٢) وفي قوله تعالى
* كذبت ثمود النذر فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إننا إذا لفي ضلل
وسعراء لقي الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر سيعلمون غدا من
الكذاب الأشر * (٣) وفي قوله عز وجل * قالوا اطيرنا بك وبين معك
قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون * (٤) وفي مقابلتهم هذه

(١) سورة الشعراء آية ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،

١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢) سورة الشعراء آية ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٣) سورة القمر آية ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ .

(٤) سورة النمل آية ٤٧ .

وغلظتهم وعتوهم في الجواب يستمر صالح عليه الصلاة والسلام في نصيحهم وتحذيرهم مما قد يحل بهم إن هم دأبوا على ضلالهم ولم يرجعوا إلى رشدهم وأتاهم بالبينة التي طلبوها منه وحذرهم بأنهم إذا لم يؤمنوا به ويتبعوه بعد ما يحصل لهم مما أرادوه من معجزة توءم يد صدقه في الرسالة فسيحل بهم عذاب أليم . فأرسل الله إليهم ناقة اختبأ لهم بحيث إن هم استقاموا وصدقوا أخاهم صالحا فقد فازوا وإن هم كذبوه حلت بهم العقوبة العاجلة فجاءتهم البينة ظاهرة في الناقة وقد أمرهم الله بأن لا يسوها بسوء فيجب عليهم أن يذروها تسرح وتمرح حيث تشاء . وإن الماء مقسوم بينهم وبينها يوم لهم ويوم لها . وحينما أحسن أشرف شؤد المتكبرون بانكشاف بهتانهم وافتراءهم ضد دعوة أخيهم صالح بحصول البينة التي طلبوها ليصدقوه - وها هم لم يؤمنوا - ووجدوا أنفسهم في ضيق من استمرار هذه البينة الدالة على صدق صالح والتي آمن بسببها الضعفاء من القوم فرأوا أنه لا بد من القضاء على هذه البينة وذلك بقتل ناقة الله التي سبق أن حذرهم صالح من مسها بسوء . ذلك ما نجده في الآيات الكريمة * قال الملائكة الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ، فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح اتقنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين * (١)

وفي قوله عز من قائل * قال يا قوم أرءى يتم إن كنت على بينة من ربي
وإتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته ، فما تزيدونني غير تخسير ،
ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها
بسوء فيأخذكم عذاب قريب * (١) وفي قوله تعالى * قال هذه ناقة
لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم
عظيم * (٢) وفي قوله تعالى * وإنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم
واصطبر ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر * (٣) . ورغم
وجود هذه البينة الواضحة الدلالة قطعاً على صدق صالح عليه الصلاة
والسلام في رسالته أصر قوم ثمود على الانحراف والتكذيب والتحدى فيما
أوعدهم به صالح من عذاب أليم إن هم عقروا الناقة فلم يبالوا بذلك
وبعثوا من يعقر الناقة من المفسدين ، وبالتالي يتنادون للتشاور في
المكر والايقاع بصالح عليه الصلاة والسلام بعد أن أعلمهم بحلول العذاب
بهم بعد ثلاثة أيام فبيتوا أمرهم مقسمين على مباغتته بالعدوان عليه
وعلى أهله بالقتل ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ، وفعلاً يحل
بهم ما أوعدهم به صالح من عذاب ظهر في صيحة واحدة تركت القوم
الكافرين جيشاً هامدة لا حراك فيها كما يهمد الزرع اليابس المتششم
الذي وطئته الأقدام والحوافر ونجى الله نبيه صالحاً ومن آمن معه .
وكان النصر للمؤمنين والخزي والهلاك للمكذابين الضالين ، ذلك ما أخبرنا

(١) سورة هود آية ٦٣/٦٤ .

(٢) سورة الشعراء آية ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٣) سورة القمر آية ٢٧ ، ٢٨ .

به الله في قوله ﴿ فمقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح اعتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ (١) وفي قوله تعالى ﴿ فمقروها فقال استمعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ (٢) وفي قوله تعالى ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، قالوا تقاسموا بالله لنبيتهن وأهلهن ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وأنا لصادقون ، ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم إنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾ (٣)

موطن الابتلاء في قصة ثمود :

١ - إضافة إلى ما ابتلى به قوم نوح وقوم هود من مقابلتهم للحسنة بالسيئة ومن فظاظه في القول وغلظة في الجواب ومن نكران لبشرية المرسلين ومن كفران للنعم المحيطة بهم في كل مكان ومن تحد بطلب حلول ما يعدهم به الرسل من عذاب يصيبهم بسبب إعراضهم فان قوم صالح أيضا ابتلوا بمثل ذلك .

-
- (١) سورة الأعراف آية ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ .
(٢) سورة هود آية ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ .
(٣) سورة النمل آية ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ .

٢ - وما نسبوه لصالح من شؤم حل بهم حيث تطيروا بما

أصابهم به من أشياء هي امتحان في الحقيقة حيث اختبرهم الله بها
علمهم يرفعون ويرجعون الى الايمان بالله الذى يقلب الأحوال والقلوب فهم
أنفسهم مرة يصابون بالسراء ومرة بالضراء وذلك ما جاء في قوله تعالى
(١)
* قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائرکم عند الله بل أنتم قوم تفتنون *

٣ - وما طلبوه من بيعة تدل على صدق صالح عليه الصلاة

والسلام فيما يدعوهم إليه فأرسل إليهم ناقة لها خصائص تدل على صدقه
وتجيب عليهم أن يستجيبوا بدون تكلف لكن القوم ظلوا مصرين على
تكذيبهم وتكبرهم عن الخضوع للحق والهدى واصرارهم على عدم إلقاء
الباطل والضلال واتباع الهوى .

وبعض الزمن طاويا أخبار صالح وقومه ولا نعلم شيئا بعد هذه

الفترة عن أمم بعد ثمود قبل دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام فهو
أبو الأنبياء الذين جاءوا من بعده حيث أتاه الله الرشد ، فتصدى لقومه
الذين كانوا سادرين في عبادة الأصنام تارة وعبادة الكواكب تارة أخرى
وعبادة البشر كالنمرود الذى حكم الناس واستعبدهم من دون الله ، تصدى
لهم فنهاهم عن عبادة الأصنام وسلك معهم طريق الاستدراج في دعوته
اياهم على كل الحالات ، فليقلعوا عن عبادة الكواكب ويعودوا الى عبادة
الواحد الأحد . من أجل ذلك أرسل الله ابراهيم لينير لهم الحجسة
لكنهم عاندوا فأجأهم ابراهيم الى الدليل الواضح الذى لا ريب بعده

في استحقاق العبادة للواحد الآخر الذي يسير الكون بارادته المطلقة
ومن جملة ذلك الكواكب السيارة فليوقظهم من غفلتهم جاراتهم في تعلقهم
بالكواكب وعبادتهم لها فكأنه عليه السلام يقول لهم على فرض الوهية
هذه الكواكب تعالوا ننظر في خصائصها هل لها ما تستحق به الربوبية
والألوهية أم لا ؟ فنجدها ما تلبث فترة حتى تغيب عن الأنظار ،
ومعنى هذا أنها مُسيرة لمحدثها وأنها تتصرف بالتغيير من حال إلى
حال فهذا القمر يبرز كاملاً ليلة بدره ثم يخيب وهذه الشمس
أكبر منه هي الأخرى تتعرض للتغيير . وما دامت هذه الكواكب تتعرض
للتغيير فلا تصلح أن تكون لها وربا ، لأنها معرضة للنقص والتغيير
فاقدة للقدرة المطلقة والسلطان الكامل ، ومن كان كذلك كان ضعيفاً
قليل القوة فألجأهم بذلك إلى حقيقة أن الإله هو الذي لا يتعرض للنقص
أو العجز بل له الكمال التام والنعمة والضر . وحينما أوقفهم إبراهيم
على الحقيقة وثبت أنهم مشركون تبرأ منهم وأعلن توجهه لله الذي خلق
الأشياء كلها كبيرها وصغيرها . ومن هنا فهو لا يخاف الهتهم التي
أشركوا بها حيث إن الأمن والاستقرار والنصر للموحدين الذين لهم
يشركوا بعبادة ربهم أحداً فحاجهم عليه الصلاة والسلام حتى وضع
الحق وأفل الباطل . ذلك ما أخبرنا به القرآن الكريم حيث يقول رب العزة
والجلال ﷻ وان قال إبراهيم لأبيه «ازرأتخذ أصناماً الهة إنني أراك وقومك
في ضلال مبين وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من
المؤمنين ، فلما جن^(١) عليه الليل رآه كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل

(١) معناه ستره يقال جن عليه الليل من باب قتل أي ستره .

قال لا أحب الآفلين ، فلما رآ القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال
لئن لم يهدني ربي لا أكونن من القوم الضالين ، فلما رآ الشمس بازغة
قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم انى برى ما تشركون
إنى وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين
وحاجه قومه قال أتجاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به
إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء ، علما أفلا تتذكرون وكيف
أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا
فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا
إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمان وهم مهتدون وتلك حاجتنا آتيناهما
ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * (١)

٢ - وفي حال اتجاههم بالعبادة للأصنام المنحوتة يتجه

معهم الى الحج أيضا وينصح أول ما ينصح أباه في تطف وتأدب كما مر
معنا في الفصل قبل هذا لكن أباه وقومه كاهروا في جحودهم وعنادهم
واعراضهم عن الحق الذى وضحه نبي الله ابراهيم عليه الصلاة والسلام
لهم بحديث بين لهم بأنهم يرتكبون إفاكا وإثما مبينا بعكوفهم على عبادة
الأصنام التي لا تسمعهم حين يدعونها ولا تنفع من يريدون نفعه ولا تنصر
من يريدون نصره بل هم الذين يضمنونها بأيديهم ويصورونها تماثيل
فكيف يعبدونها؟ فهم بذلك إزنان في ضلال كبير وما كان من قوم ابراهيم
عليه الصلاة والسلام إلا المضي في عتوهم واحتجاجهم بأن أباهم كانوا

يعبدونها ويحاولون نسبة اللعب الى ابراهيم فيما جاءهم به من حـق
كما أخبرنا عز وجل في قوله : * ولقد اتينا ابراهيم رشده من قبل وكننا
به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا
وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين
قالوا أجبنا بالحق أم أنت من اللاحين ، قال بل ربكم رب السموت والأرض
الذى فطرهن وأنا على ذلك من الشاهدين * (١) وفي قوله تعالى
* وإن من شيعته لابراهيم إذ جاءه ربه بقلب سليم إذ قال لأبيه
وقومه ماذا تعبدون أفنكوا الهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب
العالمين * (٢)

ولما رأى ابراهيم عليه الصلاة والسلام إصرارهم على المقام
في عبادة الأصنام وآيس من اقلعهم عن العكوف عليها يسلك معهم
سبيلا آخر يوقظهم من غفلتهم ويمسهم في أعماق قلوبهم لعلهم يلقون
الكبرجانبا ويوحدون بالعبادة من يستحقها وذلك أن ابراهيم عليه
الصلاة والسلام عمد الى أصنامهم فكسرها وقطعها قطعاً قطعاً
أن تحين الفرصة المواتية لذلك. وحينما اتهموه بذلك ، قال : بل فعله
كبيرهم هذا ليقفوا على ما هم فيه من باطل بأعينهم ويرجعوا الى الحق
إن كانوا يريدونه ويتركون الذي هم سادرون فيه ، لكن القوم بعد
أن أخرج ابراهيم ألسنتهم وفكروا ملياً وأدركوا أنهم مخطئون فسي
عبادتهم لما لا ينفع ولا يضر بل لا يستطيع الدفاع حتى عن نفسه

(١) سورة الأنبياء آية ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) سورة الصافات آية ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ .

واعترفوا بأنهم ظالمون وعلى ضلال وباطل ، لما أدركوا ذلك لجأوا إلى
القوة ليستروا فضيحتهم أمام ضعاف قومهم فأجمعوا أمرهم على حرق
إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فرموه في النار فجاه الله منها بحيث
أمرها بأن تكون بردا وسلاما على إبراهيم ويتركهم عليه الصلاة والسلام
مهاجرا لهم طالبا أرضا يعبد الله فيها حق عبادته وذلك ما جاء في
قول الله عز وجل * وتالله لا أكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين
فجعلهم جذانا إلا كبيرا لهم لعلمهم يرجعون قالوا من فعل هذا بئالهِتتا
إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا
فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون ، قالوا أنت فعلت هذا بئالهِتتا
يأبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم إن كانوا ينطقون فرجعوا
إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت
ما هو إلا ينطقون قال أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم
أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون قالوا حرقوه وانصروا الهتكم
إن كنتم فاعلين قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم وأرادوا به كيدا
فجعلناهم الأخرسين * (١) وفي قوله عز من قائل * فنظر نظرة في
النجوم فقال : إنني سقيم فتولوا عنه مدبرين فراغ إلى الهتتهم فقال ألا
تأكلون ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين فأقبلوا إليه يرفون (٢)
قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون قالوا ابنوا له بنيانا
فألقيه في الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين وقال إنني ناهب
إلى ربي سيهدين * (٣)

(١) سورة الأنبياء آيات : ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،
٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
(٢) أي يسرعون من زف الرجل إذا أسرع ، انظر المصباح ص ٣٠١ ،
وانظر تفسير الألويسي م ٨ ج ٣ ص ١٢٣ ،
(٣) سورة الصافات آيات : ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ،

٣ - وفي حال عبادتهم لملوكهم يتجه ابراهيم لمن يعبدونه بالمحاجة ، وذلك أن قوم ابراهيم يظهر منهم أنهم كانوا يضيفون الى عبادة الأصنام والكواكب عبادة حكامهم كالنمرود حينما اتجه اليه ابراهيم ليحاجه بأن الله هو الذى يحيى ويميت فيخالط النمرود قومه بقتل شخص والعفوعن شخص بعد أن كان محكوما عليه بالقتل ، وهي مهزلة واضحة البطلان ومع ذلك يستدرجه ابراهيم عليه الصلاة والسلام ليبطل دعاويه فينتقل معه الى قضية أخرى هي أن الله يأتي بالشمس من المشرق فليات النمرود بها من المغرب ، فأخرس الكافر عاجزا منقطعاً عن الجواب وانكشف أمره أمام الذين يطيعونه ويعبدونه كما قال عز وجل * ألم ترالى الذى حاج ابراهيم في ربه أن اتاه الملك إن قال ابراهيم ربي الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين * (١)

موطن ابتلاء قوم ابراهيم :

١ - يظهر ذلك في أنهم كلما صدمهم ابراهيم في محاجتهم بالحق كلما سلكوا طريق الصمت يتربصون انحام ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولذلك كلما انتهت محاوره بين ابراهيم وقومه يكون آخر الحجته لابراهيم ، ولم ينقل القران الكريم مراجعة لابراهيم من قومه حينما يفحسهم

وهم كذلك في جميع محاورتهم مع ابراهيم ففي حاجته لهم بغية إقلاصهم عن عبادة الكواكب كان آخر القول من ابراهيم لهم كما ذكر القرآن * وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * (١) وفي حاجته لهم كي يقلعوا عن عبادة الأصنام * قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلك من الشاهدين * (٢) فهنا تنتهي حاجتهم ولم يردوا بشيء وكذلك عندها بهت النمرود فغسيه ولم يزد شيئا . ومعنى هذا أنهم كانوا يعترفون بالحق الذي يوضحه ابراهيم لهم لكنهم لا يعملون بما تأكدوا من صحته اتباعا لأشرافهم الذين يخشون زوال سلطانهم وتحكمهم فيما يلبسون به شهواتهم ، وهم كذلك حتى رأى كبراء القوم أن ابراهيم سيقضي على الهتهم التي كانوا يضللون بها عامسة القوم إذ القضاء على هذه الالهة بتكسيورها سيوقف القوم من غفلتهم أو على الأقل بعضهم كالضعاف منهم ولذلك لما قال لهم : * قال أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون * (٣) قرروا احراقه حتى لا يضيع منهم السلطان والشأن * فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يوفون * (٤)

(١) سورة الانعام آية ٨١ ، ٨٢ .

(٢) سورة الانبياء آية ٥٦ .

(٣) سورة الانبياء آية ٦٦ ، ٦٧ .

(٤) سورة العنكبوت آية ٢٤ .

٢ - يظهر ذلك أيضا بانجاء الله ابراهيم من النار فأواه حيا لم يمسه شيء بعد أن ألقوه في نار عظيمة تحرق الالاف من بني آدم ورغم ذلك لم يهتدوا بهذه الخارقة ويعس منهم ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، لأنهم أغلقوا قلوبهم عن قبول الهداية وهذا دليل على أن خاتمهم سيئة بالمقام في النار يوم لا ناصر لهم ، يخبرهم ابراهيم بهذه الخاتمة في قوله تعالى ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا وما أوامكم النار وما أوامكم من ناصرين ﴾ (١) ويتركهم ابراهيم على هذه الحال ويذهب مهاجرا الى ربه ومن معه متبرء من منيهم وما يعبدون من أصنام معلنين العداوة والبغضاء الى أن يؤمنوا بالله الواحد الأحد كما قال عز وجل ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم انا برءوا منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ويدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ (٢).

وحينما هاجرهم ابراهيم رافقه ابن أخيه لوط على نبيينا وعليهما أفضل الصلاة والتسليم وهو الذي سبق أن أيده في دعوته ، ثم أرسل لوط لأهل سدوم في مكان في الشام حيث ابتدعوا فعلة شنعاء بلغت الغاية في الشناعة والانتكاس إذ الفطراسليمة لا يمكن أن تنزل نفسها تلك المنزلة التي يآباها الحيوان الأعجم فاخترعوا ما لم يسبقوا إليه

(١) سورة العنكبوت آية ٢٥ .

(٢) سورة الممتحنة آية ٤ .

من فعل بلغ أسفل سافلين في الشناعة ألا وهو اتیان الذكور ويظهر
لمن تأمل السياق الكريم في شأن قصة قوم لوط أن لوطا أول ما توجه به
لدعوة قومه هو الأمر بالافلاج عن الفعلة الشنيعة فلم يدعهم كسابقه
من الأنبياء الى التوحيد ، وما ذلك الا لأنهم بلغوا أسفل الدرجات
في تشبههم بفعلتهم تلك حتى أصبحت ديدنا لهم وطبيعة في سلوكهم
وبالتالي استحكت في قلوبهم يقول أبو حيان (١) في تفسيره عند بيان
سبب عدم دعوة نوح لقومه بالتوحيد كسابقه من الأنبياء مامعناه
أن لوطا لم يدع قومه إلى التوحيد كما دعا إبراهيم وشعيب قومهما ،
لأنه كان من قوم ابراهيم ودعوته بلغت قوم لوط فاخص لوط
بدعوتهم للاقلاع عن الفاحشة غير أن هذا التعليل يحتاج إلى دليل
يثبت بأن دعوة ابراهيم وصلتهم وأنه كان مرسل إليهم وعلى أي حال
فالقرآن الكريم يخبرنا عنهم بأنهم كانوا يقطعون الطرق ويتعرضون لابن
السييل فيعتدون على كرامتهم وأعراضهم وأسرفوا في ذلك حتى تعدوا
الحدود فكانوا يفعلون تلك الفاحشة على مرأى من بعضهم البعض فلا
يتحاشون من اظهار تلك الفعلة الشنعاء ، ولما بلغوا درجة الاسراف
في ارتكابهم تلك الجريمة القذرة أرسل الله لهم لوطا عليه الصلاة
والسلام فيبين لهم شناعة اتیان الذكور وترك النساء اللاتي خلقن
لتلبية تلك الرغبة الانسانية فما كان من قوم لوط إلا أن أعلنوا العداوة
لمن يتطهر من تلك الفعلة ويجمعون على اخراج لوط عليه السلام ومن

(١) البحر المحيط ج٢٨/١٤٨ الطبعة الثانية .

معه من بينهم ، لأنهم يتطهرون مما تنجس به القوم ذلك ما نجده في قول الله عز وجل * ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون * (١) ، وفي قوله عز من قائل * كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى الا على رب العالمين ، أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم عادون * (٢) وفي قوله تعالى * ولوطا إذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أنتم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر * (٣)

ولما أصرا القوم على ارتكاب تلك الفعلة بالانغماس في قذارتها حقت عليهم كلمة الله وجاءهم العذاب فأرسل الله اليهم ملائكة في صورة آدميين فاستضافهم لوط فأدخلهم بيته ، وما إن علم القوم بوجودهم حتى جاءوا مسرعين يطالبون لوطا بإخراجهم لهم ليفعلوا بهم ما أرادوا فراودهم لوط عليه الصلاة والسلام واستلطفهم وطلب منهم أن لا يفضحوه في ضيفه ، ودعاهم الى اتقاء عذاب الله عز وجل وندبهم الى الزواج من البنات إن كانوا فاعلين ، فلم تنفع معهم موعظة ولم يسترشد منهم أحد بل ظلوا سادرين في غوايتهم ، وحينئذ تحسر لوط عليه الصلاة والسلام

(١) سورة الاحراف آية ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ .

(٢) سورة الشعراء آية ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٣) سورة العنكبوت آية ٢٨ ، ٢٩ .

على ضيوفه مما سيقونه من القوم بحيث عجز عن حمايتهم من بطش القوم
وما كان منه إلا أن توجه إلى الله طالبا منه النصر على الذين كانوا
يعملون الخبائث وساعتها أخبره الضيوف بأنهم ملائكة رسل من الله
عز وجل وأمروه بالخروج ليلا مصاحبا أهله إلا امرأته التي كانت تشابههم
على تلك الفعلة القبيحة . وما إن انفلق الصبح عن ضيائه حتى
أخذتهم الصيحة وقلب الله بهم قريتهم وأمطر عليهم الحجارة فأهلكوا
جميعا بعد أن حذرهم لوط من عذاب الله ، ذلك ما أخبرنا به في قوله
* وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتهم إنهم أناس يتطهرون
فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فانظروا
كيف كان عاقبة المجرمين * (١) . وفي قوله تعالى * ولما جاء ت رسلنا
لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب وجاءه قومه
بهرهون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هوء لاء بناتي
هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ،
قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ، قال
لو أن لي بكم قوة أو إولى إلى ركن شديد ، قالوا : يا لوط إنا رسل ربك
لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ،
إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب فلما جاء
أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود
مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببيعد * (٢) . وفي قوله تعالى

(١) سورة الاعراف آية ٨٢، ٨٣، ٨٤ .

(٢) سورة هود آية ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣ .

﴿ قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ، قال إني لعمركم
من القالين ، رب نجني وأهلي مما يعملون فنجيناه وأهله أجمعين الا
عجوزا في الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر
المنذرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك
لهو العزيز الرحيم ﴾ (١)

موطن الابتلاء في قصة قوم لوط :

يتجلى ذلك في أن أولئك القوم كانوا سَادِرِينَ في تلبية
شهواتهم القذرة فلم ينظروا الى الطريقة السليمة التي أباحها الله والتي
توافق كرامة الانسان ومروءته بل أسرفوا في الانحراف حتى بلغوا درجة
الذين خمرت عقولهم فأصبحوا يرتكبون تلك الجريمة البشعة وهم
فاقدوا التفكير عما وصفهم القرآن الكريم ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم
يعسبون ﴾ (٢) فأصبحوا لا يميزون بين الخطأ والصواب وعندها لا يرجى
منهم التيقظ والرجوع الى الفطرة السليمة . إذ لا هم لهم الا اشباع
غريزتهم بنزواتهم الخبيثة .

والذى ينظر الى قضاء شهواته فقط ولا ينظر الى الطريق
المباح في ذلك لا شك أنه يجر على نفسه غوائل الاسراف والدمار ومن
هنا تصبح الشهوات مليئة بالأضرار والشور ، فجريمة اتيان الذكور لها عواقب
خطيرة في افساد المجتمع الانساني كالاخراج بالذكران من الرجولة السي

(١) سورة الشعراء آية ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) سورة الحجر آية ٧٢ .

الخنوثة وفقدان الشهامة والاباء والغيرة وذلك ينتج عنه تعطيل النسل والتجاء النساء الى الزنا والسحاق وبالتالي تفشى الأمراض المدمرة للمجتمع كله ، وما أخبار الأمم التي انحدرت ضد الكرامة الانسانية وأباحوا هذه الفعلة الشنيعة في مجتمعاتهم عنا ببعيدة حيث أصيبوا بأمراض ما استطاعوا اختراع دواء لها وهم الذين بلغوا شأوا بعيدا في الاختراعات الطيبة وغيرها ومن هنا حرم الاسلام تلك الفاحشة . وفرض على مرتكبيها أشد العقوبات فقد وردت عقوبة القتل لمن ثبت عليه ارتكاب تلك الفعلة القذرة كما هو في بعض المذاهب الفقهية . (١)

ويأتي بعد قوم لوط في سلسلة الأمم المدعوة ، قوم شعيب عليه الصلاة والسلام كما يذكر القرآن الكريم في سياقه قوم شعيب تالين لقوم لوط ومن هنا نتبع - في هذه الرسالة - قوم شعيب لهم كما قال شعيب لقومه ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ (٢) وذلك أن الله أرسل نبيه شعيبا عليه الصلاة والسلام لمدين حيث عبدوا غير الله من الأيكة (٣) وأفسدوا في الأرض بما نقصوا في المكيال والميزان وما أكلوا من أموال الناس بالباطل فسلكوا سبل أنواع البخس لأموال الناس فدعاهم شعيب الى اجتناب عبادة غير الله ، وأمرهم بالقسطاس المستقيم في معاملتهم من حيث البيع والشراء كما أمرهم بأن يوفوا المكيال والميزان إذا باعوا

(١) انظر المغني لموفق الدين عبدالله المعروف بابن قدامة ج١٠ / ١٦٠

نشر دار الكتاب ببيروت .

(٢) سورة هود آية ٨٩ .

(٣) شجرة يعبدونها وقيل شجر ملتف . انظر تفسير ابن كثير ج٣ / ٣٤٥

طبع دار التراث القاهرة .

وإذا اشتروا على السواء ونهاهم أن يصدوا عن سبيل الله من آمن بدعوته وذكرهم بنعم الله عليهم ككثرة نسلهم بعد أن كانوا قليلين كما حذرهم من أن يقعوا فيما وقع فيه المفسدون من الأمم التي سبقتهم كما قال عز وجل ﴿ وإلى مدین آخاهم شعيبا قال یا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غیره قد جاء تکم بینة من ربکم فأوفوا الکیل والمیزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تغسدا فی الأرض بعد إصلاحها ذلکم خیر لکم إن کنتم مؤمنین ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبیل الله من آمن به وتبفونها عوجا واذکروا إن کنتم قلیلا فکفرتکم وانظروا کیف کان عاقبة المفسدین ﴾ (١)

وما كان من قوم شعيب إلا أن هدوه بالطرد والخراج ممن قريتهم وإن لم يسلك سبيلهم في العبادة بحيث يدخل في ملتهم وذلك كله بأسلوب فيه السخرية والاستهزاء والتناول عليه باتهامه بالسفاهة مرة وبالسحر أخرى وبانكار رسالته بدعوى أنه بشر، مریدین بكل ذلك الانفلات في التعامل المالیج بحيث يفعلون في أموالهم حسب أهوائهم كما جاء في قوله عز وجل ﴿ قال الذین استکبروا من قومہ لنخرجنک یا شعيب والذین آمنوا معک من قريتنا أولا تعودن فی ملتنا ﴾ (٢) . وفي قوله عز من قائل ﴿ قالوا : یا شعيب أصلواتک تأمرک أن نترك ما یعبد آباءنا أو أن نفعل فی أموالنا ما نشاء إنک لا أنت الحليم الرشید ﴾ (٣) وفي قوله تعالی ﴿ قالوا إنما أنت من السحریین وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنک لمن الکاذبین ﴾ (٤) وهم علی هذه الحال من الصلف والعناد

(١) سورة الاعراف آية ٨٥ ، ٨٦ .
(٢) سورة الاعراف آية ٨٨ .
(٣) سورة هود آية ٨٧ .
(٤) سورة الشعراء آية ١٨٥ ، ١٨٦ .

يقابلهم شعيب بالوداعة والحجة الواضحة فينبههم إلى أنه لا ينبغي لمن آمن وخالط الايمان قلبه أن يرجع عما آمن به إلا مكرها والا كان كاذبا في ابتداء ايمانه مفترى في قوله ، ولأن الايمان فضل من الله ونعمة ، والضلال شر ونقمة ينجى الله من يشاء من عباده من غوائله ولهذا لا يمكن للمؤمنين أن يعودوا الى ملة الكفر وعبادة الأوثان إلا أن يشاء الله كما قال عز وجل ﴿ قال أولو كنا كارهين قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ (١)

وهكذا نرى نبي الله شعيبا يلاطفهم مرة أخرى بالأسلوب المشوق الذي يلفت الأنظار الى معاني الحق التي ينبغي اتباعها والوقوف منها على بصيرة وبينة وذلك أنه يجب عليهم أن ينظروا فيما اذا لو كان شعيب على هدى من الله وعلى حق فيما يدعوهم إليه لا سيما أنه لا يطلب منهم أجرا على نصيحتهم لهم وتبليغ الحق إليهم بل لا يريد أن يفعل ما ينهاهم عنه وإنما قصده من دعوتهم للاقلاع عن المفسدات من الأفعال الإصلاحية . ويمضي شعيب عليه الصلاة والسلام في مخاطبتهم بالحسنى والرفق بهم عليهم يلقون عصا الكبر والشقاق فيسلكون سبيل الحق والوفاق ولذلك حذرهم أن تكون عداوتهم له ومشاقتهم إياه سببا في الاعراض عن شرع الله والعمل بأوامره فيحقق عليهم ما حق على من سبقهم من الأمم كقوم نوح وهود وغيرهم ثم دعاهم الى التوبة والاستغفار

لأن الله عز وجل رحيم ودود وذلك ما جاء في قوله عز وجل ﴿ قال يا قوم
أرءى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله
عليه توكلت وإليه أنيب ، ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل
ما أصاب قوم نوح أو قوم هوأ أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد
واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود ﴾ (١) وما يزيد القوم
تلطف شعيب معهم وتودده إليهم إلا استعلاء وتكبرا وتحديا فمرة يحذرون
الناس من اتباعه فيعدون من اتبعه بالخسران ، ومرة يستهزءون به منكروين
فَيَهْمُهُمْ لما يدعوهم إليه ومرة يهددونه بالضر والايذاء لولا عشيرته
ومرة يتحدونه بالاتيان بالعذاب لهم كما جاء في قوله عز وجل ﴿ وقال
الملاّ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون ﴾ (٢)
وفي قوله تعالى ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا ما تقول وإنا لنراك فينا
ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت بعزير ﴾ (٣) وقوله تعالى ﴿ فأسقط
علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ (٤) . وهنا يئس شعيب
من إيمان القوم والتجأ إلى الله القوى العزيز الذي لم يخش منه القوم
بل لم يرعوا ولم يروا أى قوة غير قوة العشيرة والقبيلة . فيتركهم متوكلا
على الله القوى الجبار متوعدا اياهم بحلول العذاب منتظرا حكم الله
فيهم وذلك ما أخبرنا الله به في قوله ﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى
أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ (٥)

(١) سورة هود آية ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) سورة الاعراف آية ٩٠ .

(٣) سورة هود آية ٩١ .

(٤) سورة الشعراء آية ١٨٧ .

(٥) سورة الاعراف آية ٨٧ .

وفي قوله تعالى ﴿ قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه
وراءكم ظهرا يا إن ربي بما تعملون محيوط ويا قوم اعملوا على مكانتكم
إني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارْتَقِبُوا
إني معكم رقيب ﴾ (١).

وهكذا يتركهم شعيبا لتحل بهم العذاب غير متأسف عنهم
ولا حزين ما أصابهم بعد أن بالغ في تبين الحق لهم وعندها تأتي
القوم رجفة أسكنت حركاتهم وظلمة أحرقتهم وصيحة أنسفتهم
فأبيدوا عن آخرهم وتلك عاقبة المكذبين الذين استكبروا واتبعوا
شهواتهم كما أخبر عنهم عز وجل في قوله ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا
في دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا ﴾ (٢) فيها
الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين فتولى عنهم وقال يا قوم
لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فكيف أنسى على قوم كافرين ﴿ (٣)
وفي قوله سبحانه ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه
برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن
لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدن كما بعدت ثمود ﴾ (٤).

(١) سورة هود آية ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) معناه كأنهم ما أقاموا في تلك البلدة مستغنين يقال : غنى
بالمكان طال مقامه فيه مستغنيا به عن غيره انظر المفردات ص
٣٦٦ مادة غنى وتفسير ابن كثير ج ٢ / ٢٣٢ طبعة مكتبة
دار التراث القاهرة .

(٣) سورة الاعراف آية ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ .

(٤) سورة هود آية ٩٤ ، ٩٥ .

وفي قوله جلت قدرته وعز سلطانه * فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة
إنه كان عذاب يوم عظيم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك
لهو العزيز الرحيم * (١)

فأهلكهم الله بأنواع من العذاب كل نوع منها يوافق ما كانوا
يقابلون به نبي الله شعيبا من التعنت والتحدى والاستهزاء يقول الحافظ
ابن كثير (٢) في هذا الصدر . وقد ذكر الله تعالى صفة اهلاكهم
في ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، ففي الاعراف
ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا
* لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أولتعودن في ملتنا *
فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه فأخذتهم الرجفة ، وفي سورة هود قال :
* وأخذت الذين ظلموا الصيحة * (٤) وذلك لأنهم استهزؤا بنبي
الله في قولهم : * أصلوكت تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل
في أموالنا ما نشاء إنك لانت الحليم الرشيد * (٥) قالوا : ذلك على
سبيل التهكم والازدراء فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال * فأخذتهم
الصيحة * وفي الشعراء قالوا : * فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت
من الصادقين * (٦) على وجه التعنت والعناد فناسب أن يحق عليهم

-
- (١) سورة الشعراء آية ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ج٣ / ٣٤٦ طبع مكتبة دار التراث القاهرة .
(٣) سورة الاعراف آية ٨٨ .
(٤) سورة هود آية ٩٤ .
(٥) سورة هود آية ٨٧ .
(٦) سورة الشعراء آية ١٨٧ .

(١)
ما استبعدوا وقوعه * فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم *
يوء يد هذا أيضا ما لاحظته أبو السعود في تفسيره حيث قال : " وفي اضافة
العذاب الى يوم الظلة دون نفسها ايدان بأن لهم يومئذ عذابا آخر غير
عذاب الظلة : (٢)

ومن هنا نعلم أنه ليس في تنوع العذاب على قوم شعيب دليل
على أنهم كانوا آمنين أرسل إليهما شعيب كما ذهب إليه البعض ممن
المفسرين ورده ابن كثير حيث يقول (٣) : " ومن زعم من المفسريه كقتادة
وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقله ضعيف وانما
عدتهم شيثان في اثبات ذلك :

١ - عدم ذكر لفظ "أخوة" شعيب كما ذكرت مع مديين

بحيث قال تعالى * وإلى مدين أخاهم شعيبا * وقال * ككذب
أصحاب الأيكة المرسلين ان قال لهم شعيب * وأجيب عن هذا بأن عدم
ذكر لفظ الاخوة مع أصحاب الأيكة نظرا لورود وصفهم بعبادة الأيكة
فلم يكن مناسباً التعبير بالاخوة بينهم وبين شعيب بخلاف لما ذكرت
القبيلة ناسب ذكر الأخوة .

٢ - وصف عذاب أصحاب الأيكة بيوم الظلة ولم يوصف به

عذاب أصحاب مدين وأجيب بأن هذا ينطبق على أن عذابهم وصف مرة
بالرجفة وأخرى بالصيحة فهل تعددت الأسماء بناء على تعدد وصف
العذاب ؟ .

(١) سورة الشعراء آية ١٨٩ .

(٢) ارشاد العقل السليم ج٤ / ١٧٧ ، نشر دار الفكر .

(٣) انظر الهداية ج١ / ١٩٠ وانتهى منها بتصرف .

ثم قال : والحديث الذي ذكره ابن عساكر مرفوعاً عن هذال الله بن عمرو (أن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً النبي عليه السلام) حديث غريب وفي رجاله من تكلم فيه .
وأضيف إلى هذا أن ذكر الأيكة قوام الماضي وبيان مواقفهم من أنبيائهم في سورة الشعراء من لدن نوح إلى لوط نلاحظ فيه اتباع قصة شعيب للوط وهي العادة التي يسلكها القرآن في غير سورة الشعراء من قصص الأنبياء بحيث يتبع قصة شعيب لقصة لوط ولم يذكر في سورة الشعراء لفظ مدين فاكتفى بوصفهم بالأيكة وهذا يدل على أنها أمة واحدة والله أعلم .

موطن الابتلاء في قصة قوم شعيب :

التأمل يدرك ذلك في أمرين :

١ - ان القوم اتبعوا شهواتهم في جمع المال وبأى طريق ورفضوا أن يتدخل التشريع الإلهي في التعامل المالي فلم يقبلوا التنظيم الرباني في الكيل والوزن وما يتبع ذلك من أخذ وعطاء غبي شتى النواحي المالية فسفهاوا من يدعوهم لذلك بل لنظرتهم الخاطئة فصلوا المعاملات عن العبادات ولذلك أوعدوا من يتبع التشريع الإلهي في الأموال بالخسران كما سبق ان قرأنا في قوله تعالى ﴿ قالوا يا شعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لآنت الحليم الرشيد ﴾ (١) تلك قضية يعايشها الدعاء

في كل عصر يظهر فيه من يفصل بين العبادات وبين التعامل المالى وغيره ما يحتاج إليه الناس في حياتهم الدنيا . والحقيقة أن التعامل المادى عند ذوى النظر الفاحص والفكر الثاقب يصبح من باب العبادات أو الروحيات وذلك حينما تخلص النيات وتصفو الطويات في امتثال الأوامر الواردة بخصوص تنظيم التعامل المادى ومن هذا القبيل عدم تحكيم شريعة الله في المنازعات واتخاذ القوانين الوضعية منهجاً للحياة والأخذ بالرأى محاربة لله ورسوله ، كما هو واضح في قوله تعالى ﴿ وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ النَّاسِ لِفَاسِقُونَ ﴾ (١) ، وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٢) ومثل ذلك ما جاء بخصوص الدين فيما رواه البخارى في صحيحه من حديث أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد اتلافها أتلفه الله . " (٣)

-
- (١) سورة المائدة آية ٤٩ .
(٢) سورة البقرة آية ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(٣) أخرجه في كتاب الاستقراض انظره بشرحه فتح البارى ج ٥ / ٥٤ باب من أخذ أموال الناس .

٢ - ان القوم كانوا لا يابهون أو يخشون أية قوة غير قوة القبيلة والعشيرة وهذا معناه أنهم كانوا في غاية من الضلال والفساد فلا ضائر لهم تنهاهم عن البطش والقهر وبالتالي بلغوا درجة قصوى من الفرور بما أعطاهم الله من نعم ومنها كثرتهم في العدد فنسوا الذي خلقهم ورزقهم فلم يلتفتوا الى مظاهر قوته المنتشرة في كل موجود كما سبق ذكر ذلك في قوله تعالى * وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعملون محيط * (١)

وبعد الحديث عن قصة شعيب وبيان موطن الابتلاء فيها نتبعها بقصة موسى مع فرعون تأسيسا بالقرآن حيث نراه دائما يتبع قصة موسى لقصة شعيب على نبينا وعليهما أفضل الصلاة والتسليم وذلك أن فرعون طفا وعثا في الأرض فسادا فاستعبد بني اسرائيل وأذلهم وذبح أطفالهم وأهان نساءهم فكان مجتمعا مليئا بالظلم والقهر حتى بلغ درجة من الفساد فأصبح في حاجة إلى الاصلاح من لدن العليم الخبير بارسال الرسل وتلك سنة الله كلما أوغلت البشرية في الانحراف ، وكلما عم الفساد الحياة كلها . فأرسل الله موسى إلى فرعون مؤيدا بالمعجزات الباهرة التي لا يخالف حقيقتها ريب ، فدعا موسى فرعون ومعه أخوه هارون يعينه ويؤازره في مقابلة فرعون الطاغية ، دعاه الى الايمان بالله رب العالمين وترك بني اسرائيل في حال سبيلهم ويفاجأ فرعون

بدعوة موسى فيسلك سبيل المراوغة ممتنا على موسى بما سبق من تربيته له في بيته وما قد وقع بينك موسى وبين القبطي الذي اعتدى على الاسرائيلي ، فيرد عليه موسى مفهما اياه ، موضحا له بأن تربيته له لا تقابل استعباد بني اسرائيل شعب بأكمله وبأن ما وقع بينه وبين القبطي كان ذلك قبل أن يختار للرسالة ، ويرجع فرعون في حديثه فيسأل موسى عن رب العالمين ، فيدله على آثار قدرته وشاهد خلقه وجبروته فهو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما ، وهو الذي بسط الأرض وجعل فيها رواسي وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرج به نبات كل شيء نباتا منوعا من أزواج شتى كما جاء في قوله تعالى ﴿ قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ (١) وقوله ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم ، إن في ذلك لآيات لا ولي للنهى ﴾ (٢) ، فيتهمه فرعون أمام ملائه بالجنون مغالطا قومه مهددا إياهم إن اتبع الهـا غيره بالسجن ، وذلك ما قصه الله في قوله عز وجل ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بنائيتنا الى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني اسرائيل ﴾ (٣)

(١) سورة طه آية ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) سورة طه آية ٥٣ ، ٥٤ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

وفي قوله عز وجل * وإن نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم
فرعون ألا يتفون قال رب إنني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق
لساني فأرسل إلى هارون ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون ، قال كلا فإذهب
بثأبتنا إنا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين
أن أرسل معنا بني إسرائيل قال ألم نريك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك
سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين قال فعلتها إذا وأنا
من الضالين ففرت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من
المرسلين ، وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ، قال فرعون
وما رب العالمين قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين
قال لمن حوله ألا تسمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم
الذي أرسل إليكم لمجنون ، قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم
تعقلون قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين * (١)

وبعد هذا التهديد من فرعون لموسى يدخل معه في إقامة
الحجة المحسوسة والبينة الساطعة على صدقه فيعرض عليه موسى اظهار
البينة الخارقة وهما البرهانان اللذان جاء بهما موسى لفرعون أحدهما العصا
التي انقلبت حية ، وثانيهما يده التي يخرجها بيضاء بعد أن كانت سمراء
ثم ترجع الى لونها الأصلى . وعندها يصطدم فرعون بالحقيقة المرة التي
تنزع منه السلطان وتحبسه عن العدوان فينسل أمام قومه معلنا أن موسى
ساحر يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره ويجاريه رؤساء القوم في دعواه

(١) سورة الشعراء آية ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ،
١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ،
٢٨ ، ٢٩

فيشيرون عليه بجمع المهرة من السحرة. ويضرب لهم موسى يوم عيدهم الذي يجتمعون فيه موعدا وذلك لتكون الفضيحة معلنة مرةً ية للكثير من قوم فرعون . ويصل وقت الموعد وفرعون قد حشر العدد الكثير من السحرة الذين بلغوا الدرجة العليا في السحر، وقبل بدء الخبارة يعظ موسى عليه الصلاة والسلام السحرة بأن لا يسلكوا طريق الافتراء والبهتان فيحك عليهم عذاب الاستئصال . ويمضى السحرة مفرورين فرحين بما وعدهم به فرعون من العطايا وبما سيمن به عليهم من تقريبتهم الى مجالسه وجعلهم ممن خاصته فيأتي يوم الزيتة ويظهر السحرة بمهارتهم فيه فيلقون ما معهم من عصي وحيال بهروا بها أعين الناس ، وما يلبث فرعون وقومه في نشوة مما رأوه من سحر عظيم قام به السحرة حتى يرسل موسى عصاه فتبطله بابتلاعها ما جاءوا به من عصي وحيال وساعتها أبلج الحق وانهار فرعون (١)

وخسر السحرة ساجدين قائلين * اٰمنا برب العالمين رب موسى وهارون *

ويقلب فرعون القضية فيتهم السحرة بأنهم تعلموا السحر من موسى وأنهم يريدون هم الآخرون أن يخرجوا فرعون وقومه من بلدتهم وهذا يصدر من فرعون بعد أن كان يريد منهم غلبة موسى وما ذاك إلا للتمويه على قومه واظهاره نفسه أمامهم مظهر القوى المحق في سلطانه ، ولذلك ما لبث أن هدد السحرة بالتصليب والتقطيع من الأطراف ، لكن السحرة عرفوا الحق وخالج الايمان قلوبهم ومن هنا أعلموا فرعون بأنهم لا يعباون بما سيفعل بهم من أضرار في الدنيا ، لأنهم آمنوا بربهم الذي سيرجعون

إليه طالبين منه المغفرة حيث كانوا أول من آمن بموسى كما أخبرنا العليم
القدير عز وجل في قوله ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين
حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتم ببيئته من ربكم فأرسل
معى بني إسرائيل قال : إن كنت جئت بثأية فأت بها إن كنت ممن
الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء
للناظرين قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم
فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأطوك بكل
ساحر عليم ، وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ،
قال نعم وانكم لمن المقربين ، قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون
نحن الملقين قال : ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا
بسحر عظيم وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ، فوق
الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة
ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ، قال فرعون أمنتهم
به قبل أن آذن لكم إن هذا لكم مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها
فسوف تعلمون لا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لا صلبنكم أجمعين
قالوا إنا إلى ربنا منقلبون ، وما تنقم منا إلا أن آمنا بثأية ربنا لما
جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴿ (١) وهكذا يشير فرعون شبهات
ويلقيها إلى آذان عوام القبط وذلك لما عاينوا ارتفاع أعلام المعجزة وشاهدتهم
لخضوع أعناق السحرة لها فلم يتمالكوا حتى آمنوا بها ، فليخالط الأقباط

(١) سورة الأعراف آية ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧

ادعى أن إيمان السحرة مبني على الموازنة بينهم وبين موسى وأن هدفهم من ذلك اخراج القوم من المدينة وابطال ملكهم . وقال هذا لما في مفارقة الأوطان المألوفة والنعم المعروفة من مشقة على النفوس . وساعتها يثبت القبط على ما هم عليه ويزداد هيجان عداوتهم لموسى عليه السلام ويتضح هذا أيضا في قوله تعالى ﴿ قالوا أجبنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشروا الناس ضحى فتولى فرعون فجمع كيدته ثم أتى قال لهم موسى ويلكم لا تغفروا على الله كذبا فيسحتكم (١) بعذاب وقد خاب من افتري فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ، قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى فألقى السحرة سجدا قالوا ﴿أنا برب هارون وموسى ، قال ﴿أنتم له قبيل أن أذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلا تقطن أيديكم وأرجلكم

(١) أي يستأصلكم بعذاب من السحت وهو الأهلاك والاستئصال ،

ذكره الفراء في معانيه ج٢/ ١٨٢ وأنشد قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا ومجلف
وانظر اللسان ج٣/ ١٩٤٩ نشر دار المعارف القاهرة .

والمجلف ، معناه : الشيء الذي أخذ من جوانبه ، قاله ابن مندور
في اللسان ج١/ ٦٦٠ .

من خلاف ولاّصلبكم في جذوع النخل وتعلمن آينا أشد عذابا وأبقسى
قالوا لن نوءشرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض
إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا ءامننا بربنا لئيفغر لنا خطايانا وما أكرهتنا
عليه من السحر والله خير وأبقى ﴿١﴾ وبعد أن وضح الحق وتبين الطريق
القويم وفشل فرعون في اثبات مزاعمه وتمويهاته لجأ الى التهديد بقتل
موسى بدعوى الخوف من أن يبدل دين القوم وأن ينشر الفساد في الأرض
وهي دعاوى يتخذها أعداء الحق ترسا يخفون به أباطيلهم ويوءلبون
به الجماهير من حولهم على الناس الصالحين المصلحين وذلك حينما يرون
شهواتهم التي يتمتمون بها ءائلة للسقوط تحت أقدام رسل الحق وهي
دعاوى ما تلبث قليلا حتى تنكشف أمام الأمة ولذلك نرى فرعون لما لجأ
الى سبيل القضاء على صاحب الدعوة يخرج له من ءاله من يفحسه بالحجة
ويجعله أمام الجمهور في موضع لا يستطيع بعده التمويه على أحد من قومه
فيقف لفرعون رجل ءامن على ضوء البينات التي جاء بها موسى فينكر
على فرعون قتل رجل لا ذنب له إلا الدعوة إلى الإصلاح والاعتراف
بالربوبية لمن يستحقها مدعا دعوته بالدلائل الشاهدة على صدقه ،
وعلى فرض عدم صدقه فالنتيجة راجعة عليه فكيف وهو صادق بما أظهره
من معجزات باهرة ، فان كذبتوه تكون العاقبة خسراكم كما وعدكم ولا ناصر
لكم إذا حل بكم العذاب ، وينازع فرعون الرجل الموءمن فيتدخل أثناء
خطابه لقومه ، مما يدل على شدة خوف فرعون من انفلات زمام أمر القوم

(١) سورة طه آية ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥،
٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣.

من يديه فيوء منون بالنور والهدى الذى جاء به موسى ولذلك نيقطع فرعون الطريق عليه ويقول لهم . ما ذكر القرآن عنه بقوله * ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ^(١) ولكن الرجل الموء من يمضى في نصيحته لقومه مذكرا اياهم بما أصاب الأمم التي سبقتهم من عذاب أحاط بهم في الدنيا وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بتكذيب الرسل كما حذرهم من عذاب الآخرة : ذلك ما نتلوه في قوله عز من قائل * وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم وأن يظهر في الأرض الفساد وقال موسى إني عدت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب وقال رجل موء من من فرعون يكم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصببكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ، وقال الذى من قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضل الله فما له من هاد * ^(٢) ويصر فرعون - بعد هذا البيان الآخذ من أعماق القلوب - على التويه والتضليل بعد أن تأكد من صدق رسالة موسى

(١) سورة غافر آية ٢٩ .

(٢) سورة غافر آية ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .

فيدعو وزيره هامان لتشيد الصرح ليطلع إلى إله موسى إن كان هناك
إله والا فهو لا يصدق موسى وان كان متأكدا من حقيقة ما جاء به .
وهو بذلك يرتكب حماقة تدل على هلمه وجزعه على فقدان جبروته
وعظمته على العباد وشدة حبه للملك الذي خشي أن يفلت من يديه
وحينئذ يفكره الجمهور ويصبح مساويا لهم في العبودية بعد أن كان يدعى
الالوهية كما أخبر سبحانه * وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا
لعلني أبلغ الأسباب السموات فأطلع إلى إله موسى واني لأظنه
كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون الا في
تاب * (١) . وبعد هذا التمويه يصير الرجل المؤمن من على مواصلة
النصح لقومه مينا لهم أن دعوة موسى هي الطريق الرشيد فمن اتبعه
نجا يوم القيامة واستقر في دار الخلد والنعيم المقيم . ومن اتبع هواه
وأشرك مع الله غيره كان من الأشقياء المسرفين كما قال عز وجل * وقال
الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة
الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها
ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة
يرزقون فيها بغير حساب * (٢)

ولما يئس مؤمن من آل فرعون من ايمان قومه نبههم إلى أنهم
سيندمون على عدم اتباع موسى وتركهم حزينا على عدم ايمانهم مفوضا الأمر
إلى الله عز وجل كما قال سبحانه * ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة

(١) سورة غافر آية ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) سورة غافر آية ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

وتدعونني إلى النار تدعونني لا كُفراً بالله وأشرك به ما ليس لي به علم
وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار لا جرم^(١) أنا تدعونني إليه ليس له دعوة
في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن السرفين هم أصحاب
النار فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد *^(٢)
ويترك الرجل المؤمن من فرعون وقومه ، ويمضي فرعون في سبيل الضلال
والتضليل سالكا طريق التمويه على العامة بما من الله به عليهم من نعم
كالزروع والأنهار الجارية وبما يتمتع هوفيه من سلطة على القوم
أقامها على التضليل والاستغلال كما قال عز وجل * ونادى فرعون في
قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا
تبصرون أم أنا خير من هذا الذي هو مبين ولا يكاد يبين فلولا ألقى عليه
أساورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف^(٣) قومه
فأطاعوه وإنهم كانوا قوما فاسقين *^(٤) وهكذا يضل فرعون قومه
فيتبعونه بعد أن وضع الحق وثبت صدق موسى . ومع ذلك رحمة بهم
ابتلاههم الله بالمصائب عليهم يرجعون إلى الحق ويتركون البغي والظلم .
فتتابع عليهم الشدائد والأحوال فلما انفجرت عنهم واحدة أخذتهم
أخرى ينكسهم للعهد التي يلتزمون بها عند اشتداد البلاء عليهم

(١) كلمة تأتي بمعنى تحقيق الشيء ، فمعناها وجب وحق كما في قول القائل :

ولقد طعنت أبا عبيدة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يخضبوا

انظر حاشية الشهاب ج ٧ / ٣٧٤ نشر دار صادر ، وروح المعاني

للألويسي م ٨ / ج ٢٤ / ٧٠ نشر دار الفكر .

(٢) سورة غافر آية ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ .

(٣) أي استفزهم . انظر كتاب معاني القرآن للفراء ج ٣ / ٣٥ ،

ط / الثالثة ١٤٠٣ هـ .

(٤) سورة الزخرف آية ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ .

كما قال عز وجل ﴿ فلما جاءهم بنائيتنا إننا هم منها يضحكون وما نريهم من آية إلا أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلمهم يرجعون وقالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون فلما كشفنا عنهم العذاب إننا هم ينكثون ﴿ (١) وهكذا أخذهم الله بالسنين فحل بهم الجذب والنقص كي يذكروا ويرجعوا الى الحق لكن القوم تمردوا واستمروا في عنادهم ونصبوا العداوة لموسى ومن معه حتى تشاء موا بهم فنسبوا مجيء الخيرات لأنفسهم والجائحات لموسى إن حلت بهم وما دروا انهم هم السبب فيما يصيبهم باعراضهم عن الحق فيستحققون الجزاء على كفرانهم بنعم الله الذي خلقهم ، ولما لم يؤمنوا بالآيات التي جاء بها موسى أرسل الله عليهم الطوفان فأتلف زروعهم وثمارهم وعندما اتجهوا لموسى طالبين منه أن يدعو ربه ليكشف ما حل بهم من طوفان ووعدا بأنهم سيؤمنون ويتركون بني اسرائيل في حريرتهم ويكشف الله عنهم الطوفان لكنهم نكثوا العهد أيضا ويسلط الله عليهم الجراد فأكل الأخضر واليابس ويتجهون لموسى بمثل ما قالوا في الآولى ويكشف الله عنهم وينكثون ويسلط الله عليهم القمل منعهم الاستقرار في الأكل والملبس ويتجهون لموسى بمثل ما سبق ويكشف الله عنهم وينكثون ويسلط الله عليهم الضفادع حتى أجهدتهم في بيوتهم وأطعمتهم ويتجهون لموسى فيدعو الله فيكشف عنهم وينكثون ويسلط الله عليهم الدم فاستحالت مياههم دما فلم يجدوا ما يشربونه ويتجهون لموسى كما سبق (٢) .

(١) سورة الزخرف آية ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج١/٢٦٦ الطبعة الثانية .

يقول عز وجل * ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم
يذكرون فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا
بموسى ومن معه آلا انما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون وقالوا
مهما نتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين فأرسلنا
عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا
وكانوا قوما مجرمين * (١)

وهكذا استكبر فرعون وقومه فحق عليهم العذاب كما قال عز
وجل * إن الذين حقت عليهم كلمتك بك لا يؤمنون ولو جاءتهم
كل آية حتى يروا العذاب الأليم * (٢)

وحينما أعيا فرعون التمويه على قومه وانكشف أمره قرر هو والملا
من قومه القضاء على موسى كما حكى القرآن الكريم * وقال الملا من
قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال
سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون * (٣)

ولما لم يروع فرعون عن غيه وحبس دعوة الله عن الوصول إلى
القوم وبالتالي أراد القضاء على صاحب الدعوة حق عليه ما حق على أمثاله
من الضالين ، وتلك سنة الله في القوم المجرمين ، فدعا موسى ربه بأن
يهلك فرعون وقومه وأن يطمس على أموالهم وأن يطبع على قلوبهم لأنهم
أصبحوا في درجة لا يرجى منهم إيمان بعدها فتأتي الخاتمة السيئة

(١) سورة الاعراف آية ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ .
(٢) سورة يونس آية ٩٦ ، ٩٧ .
(٣) سورة الاعراف آية ١٢٧ .

فيأمر الله موسى باخراج من آمن معه من بني اسرائيل فيسلك بهم البحر بعد أن ضربه بعصاه فانحبس وظهرت الهابسة واستمر موسى مع قومه في السير في البحر. ويتبعهم فرعون بجيشه الكبير ليسلك الطريق الذي سلكوه ظاناً أنه مثلهم سيسلك البحر من حيث سلكوه وما درى أن ذلك خاص بأهل الايمان الذين صفت قلوبهم لخالقهم الذي يحميهم من الظلم والبغي وأن حتفه حان أو انه فما إن توسط فرعون وقومه البحر حتى أطبق عليه الموج وعلى من معه من فئة اليفي فيصرخ معلناً إسلامه بعد أن أدركه الفرق وحاق به أسوأ العذاب في الدنيا وأقبح منزلة في جهنم وذلك ما أخبرنا به الله في قوله عز وجل ﴿ وقال موسى ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الفرق قال آمنتم أنه لا اله الا الذي آمنتم به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ (١) وفي قوله عز وجل ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون ، فأرسل فرعون في المدائن حاشرين إن هو إلا لشرذمة قليلون وإنهم لنا لفائضون ، وإننا لجميع حذرون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني إسرائيل فاتبعهم مشرقين فلما تراهم الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال كلا

وإن معي ربي سيهدين فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق
فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين ، وأنجينا موسى ومن
معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين
وإن ربك لهو العزيز الرحيم * (١) وفي قوله تعالى * ولقد فتنا قبلكم
قوم فرعون وجاءهم رسول كريم أن أدوا (٢) إلي عباد الله إني لكم رسول أمين
وأن لا تعملوا على الله إني أتاكم بسلطان مبين وإني عذت بربي وربكم
أن ترجمون وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون فدعا ربه أن هو له قوم
مجرمون فأمر بعبادى ليلا إنكم متبعون واترك البحر رهوا (٣) وإنهم
جند مفروقون * (٤)

موطن البلاء في قصة فرعون وقومه :

من خلال المحاورات التي حدثت بين موسى وفرعون وملائكته
والتي أظهرت الحق الذي جاء به موسى وكشفت عن الباطل الذي اتخذه
فرعون وأشرف قومه تضليلا وتمويهها للحفاظ على مآربهم الشهوانية :

- (١) سورة الشعراء آية ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ،
٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ .
- (٢) معناه ارفعوهم الي وأرسلوهم معي . انظر كتاب معاني القرآن
للغزالي ج ٣ / ٤٠ .
- (٣) معناه سا كنا كما نقل عن ابن عباس وكما في قول القائل :
يهشين رهوا فلا الاعجاز خازلة ولا الصدور على الاعجاز تتكل
معاني القرآن للغزالي ج ٣ / ٤١ ط / الثالثة ١٤٠٣ روح
المعاني للألوسي م ٩ / ج ٢٥ / ص ١٢٢ .
- (٤) سورة الدخان آية ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .

١ - ندرك أن فرعون كان يسلك دائما سبيل التمويه على العامة مهما بلغت القرية من السخافة والاختلاق فهو بعد أن ادعى على موسى السحر فيما جاء به من معجزات أخضعت المهرة من السحرة للتسليم لله رب العالمين فثامنوا غير مكترئين بتهديد فرعون لهم ، ورغم أنه هو الذي حشدهم وجاء بهم ووافق على المباراة بعد ذلك يتهمهم بأن موسى هو الذي علمهم السحر لأنه اصطدم بالحقيقة التي لا يريدونها والتي تؤكد من صدقها . ورغم أنه رأى بأمر عينه السحرة يوم منون ويستغفرون ربهم مما سبق منهم من خطايا وبالتالي لم يعبأوا بتهديده وهو صاحب السلطة والقوة في ذلك المجتمع فيقولون له بثبات واطمئنان " قالوا لا ضير لنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطيئنا أن كنا أول المومنين * (١) بعد هذه الدعاوى الواضحة للايمان يظهر بغربة أخرى فيدعي أنه سيطلع لاله موسى إن كان هناك اله . والغريبة هذه بينت أن فرعون جن على استعباد العباد اذ فقد التوازن في نظره للأشياء . فيدعو إلى الصعود إلى إله موسى .

٢ - يخرج لفرعون وقومه مؤمن من إله الذين كانوا يتمتعون بسلطانه فبين لهم الحق فيما جاءهم به موسى وحذرهم من مغبة عدم ايمانهم برسالته ووضعهم بين مفرق الحق والباطل ان كانوا يريدون التمييز بينهما وذلك أنه قال لهم : إن كان موسى كاذبا فلا يصلحكم ضرمن كذبه ان اتبعتموه ، وان كان صادقا وقد جاءكم بالبينات

الدالة على صدقه فلكم الويل ان لم تتبعوه . لكن فرعون وقومه أخفقوا
في اتباع نصيحة أخيهم لهم فلم يؤمنوا .

٣ - يسلك فرعون في تضليل قومه الاستدلال بما يملك

من متاع زهيد وسلطة جائرة في مكان محدود وهو بهذا يريد استغلال
قومه من طريق الماديات التي تعلق بها الانسان ويشق عليه التخلي
عنها لما يكمن فيه من دوافع شهوانية ولذلك نرى فرعون يلفت نظر
قومه الى أن موسى يفقد ما عنده هو من زخارف فلا يملك زهبا ولا ملكا
ناسلطة وبالتالي لا يستطيع حتى الافصاح عما يريد النطق به . وذلك
قبل أن يذهب عنه ما كان به من لكمة . وبالتالي لو كان صادقا لجاء
معه ملائكة يوازرونه ويقفون بجانبه ضد من يخالفه وهو بذلك يموه على
قومه فأخفقوا فيما بصرهم به موسى من آيات الحق والنجاة فحقت عليهم
كلمة الله .

٤ - لما أخفق قوم فرعون في الايمان بالدلائل التي جاء

بها موسى والتي هي من باب النعم اختبرهم الله بالمصائب التي حلت
بهم تترا ، فكلما ضاقوا بمصيبة وقد علموا مصدرها بدليل أنهم يطلبون
من موسى دعاء ربه ليكشف عنهم تلك البلية فتكشف بدعاء موسى وما
يلبثون أن ينقضوا العهد الذي ألتزموا به أنفسهم من الايمان بموسى
وبرفع الظلم عن بني اسرائيل وهم بذلك أيضا أخفقوا في إصابتهم
الحق من خلال ما تعرضوا له من شدائد وأهوال ، فلم يراعوا ولم يتبصروا
حتى أخذهم الله بعذاب من عنده فأغرقهم من حيث ظنوا النجاة

﴿ فلما أسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفا ومثلا
للآخرين ﴾ (١) وهذا يدل على كمال قساوة قلوبهم ونهاية جهلهم وغاوتهم
وذلك أن الشدائد ترقق القلوب وتلين العرائك لا سيما بعد مشاهدة
الآيات البينات .

وبعد هذه المواطن الابتلائية التي ظهرت لنا من خلال تنقلنا
حول مراحل ومواقيت الرسائل التي تعاقبت على العصور الماضية بأجيالها
الغابرة والتي يدرك المتأمل من استعراضها كأن البشرية كانت في حاجة
إلى الترقى الفكري مما جعل الرسائل تتتابع حسب وصول الانسانية الى
درجة معينة من النضوج الفكري ، ومن هنا نجد أن الرسل السابقين
لخاصة الرسائل مفرقين بين الأمم والشعوب بحيث يرسل الرسول لأمة
خاصة أو لشعب خاص ونلاحظ أن الرسول كان يرسل لبني جلدته وقومه
الذين ينتسب إليهم وهكذا حتى وصلت الأمم إلى درجة عالية من التفكير
تستطيع التجمع حول رسالة واحدة عامة توافق تشريعاتها كل الناس في
أى مكان وفي أى حين ، فبعث الله أفضل الخلق سيدنا محمد بن عبدالله
صلى الله عليه وسلم حاملا هذه الرسالة إلى الناس كافة بادئا بقومه
قريش فقد تحمل صلى الله عليه وسلم أقسى الشدائد وأصعب الملمات فلاقى
من كفار قريش في سبيل الدعوة أذى كثيرا ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم
صدع بالدعوة فبدأ بقومه حينما جاءه الأمر الكريم ﴿ وأنذر عشيرتک
الأقربین ﴾ (٢) كما جاء في الحديث عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما

(١) سورة الزخرف آية ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) سورة الشعراء آية ٢١٤ .

قال : " لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأُقربين ﴾ صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفا فجعل ينادى يا بني فهر يا بني عدى - لبطون من قريش - حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو . فجاء أبولهب وقريش فقال أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم صدقي ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقا . قال : فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبولهب : تبأ سائر اليوم ، ألهذا جمعتمنا ؟ فنزلت ﴿ تبأ يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ (١)

بدأ صلى الله عليه وسلم بدعوة أقرائه لاقامة الحجة على من سيدعوهم من بعدهم ولدفع ما قد يتوهم من محاباة لقومه ، فكانت قريش ألد الناس عداوة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وأشدهم بغضا حيث دأبوا على عبادة الأصنام وأوغلوا في التقرب إليها جواربيست الله العتيق الذي كانت القبائل تحج إليه فكبر عليهم أن يدعوا عبادتها حتى قال قائلهم : ﴿ أجعل الالهة الها واحدا إن هذا لشيء عجاب ﴾ (٢) ومضى صلى الله عليه وسلم في دعوة قومه يعالج صلفهم وتعنتهم مثل الطبيب الشفق على مرضاه فتحمل منهم شتى ألوان الأذى كذبوه فيما جاءهم به واتهموه بالسحر والجنون كما جاء في قوله عز وجل ﴿ وكذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون فتول عنهم فما أنت بملوم وذكرفإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ (٣)

(١) أخرجه البخارى في صحيحه انظره بشرحه فتح البارى ، كتاب التفسير

ج ٨ / ٥٠١

(٢) سورة ص آية ٥٠

(٣) سورة الذاريات آية ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥

وفي قوله عز وجل ﴿ وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾ (١) وفي قوله عز وجل ﴿ ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لسك لا جراً غير ممنون وانك لعلى خلق عظيم فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (٢) وهكذا أنكرت قريش محبته صلى الله عليه وسلم لبشريته وهذه الغيبة تتابعت الأقسام على التعليل بها استكباراً وعتاداً لأنهم هم بشر فلم يرضوا لأن مثلهم من البشر ما أنعم الله عليهم به من تشریف واختيار للرسالة كما جاء في قوله عز وجل ﴿ وقالوا ما ل هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبععون إلا رجلاً مسحوراً انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ (٣) ولما جابهم النبي صلى الله عليه وسلم بالقضية الكبرى والحجة العصاة اتضح كبرهم ووضح تعنتهم وانكشف حسدهم، تلك هي معجزة القرآن الكريم نعمة الله على البشرية ، لما جابهم القرآن بالحقيقة بدأوا يتخبطون فيما تنازعهم فيه أنفسهم من داخلها وفيما تضسفت عليهم فطرتهم فيه للإيمان بالحق الذي أبلج فتراهم مرة يفرون من الإيمان طالبين نزول كتاب في قرطاس ، ومرة يطلبون نزول الملائكة كما حكى القرآن في هذا الصدق فقال ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً

(١) سورة ص آية ٤ .

(٢) سورة ن آية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ .

(٣) سورة الفرقان آية ٧ ، ٨ ، ٩ .

لقضي الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبعضنا عليهم ما يلبسون ولقد استهزؤا برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون ﴿ (١) وكما في قوله عز من قائل ﴿ وقالوا يأبها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون ﴿ (٢)

فهذه الآيات الكريمة كشفت دعاويهم الواهية كما جاء أن النضر ابن الحارث وعبدالله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد قالوا (٣) لرسول الله صلى الله عليه وسلم : " لن نؤمن من لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله تعالى ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله فنزل ﴿ ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم ﴿ الآيات الآتية الذكر وعلى كلا الأمرين فهم يقصدون بهما التعجيز وكما رأينا فإن القرآن فضح مقصدهم بأنهم مهما جاءتهم الدلائل والآيات البينات سلكوا سلك الالتواء وتسلسلوا في الدعاوى الباطلة ، لأنهم أعرضوا عن الإيمان من منطلق الكبر والعناد كما قال عز وجل ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا كبيرا ﴿ . وهكذا هم ماضون في استكبارهم فلو نزلت إليهم الملائكة أو كلمهم

الموتى أو أخبرتهم الأمم السابقة بصدق رسالتك ما آمنوا بها كما قال

-
- (١) سورة الأنعام آية ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .
(٢) سورة الحج آية ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ .
(٣) انظر الألويسي م ٣ / ج ٧ / ص ٩٥ .
(٤) سورة الفرقان آية ٢١ .

عزوجل * ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم
كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم
يجهلون * (١)

ويحضى صناديد قریش في الالتواء والتعجيز والعناد فيها هم
تراهم مرة يضمنون القرآن بالسحر ومرة يطلبون تبديله بقرآن غيره ومرة
يطلبون تفجير المياه من العيون ومرة يطلبون اسقاط السماء عليهم ومرة
يطلبون معاينة الله والملائكة ، يسلكون هذه الأباطيل وهم يعترفون بطهارة
الرسول صلى الله عليه وسلم وأمانته حتى إنهم كانوا يسمونه بالأأمين قبل
بعثته كما اعترف بذلك أبوسفیان وهو رئيس القوم حين سأله هرقل ملك
الروم ، كيف نسبه فيكم ؟ قال هو فينا ذو نسب ، قال : كنتم تتهمونه
بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا . وقضية وضع الحجر شاهدة
على اتفاقهم في نزاهة النبي صلى الله عليه وسلم من أي شبهة وذلك لما
اختلفت قریش وتحزبت طوائف : كل يريد وضع الحجر فانتهى بهم
الأمر الى تحكيم أول داخل عليهم فاذا النبي صلى الله عليه وسلم داخل
فقالوا : هذا محمد ، هذا الأمين قد رضينا به . (٢) هذا قبل نبوته

فكيف بالقوم ينكرون صدقه فيما جاءهم به من نور ، ومع ظهور بطلان
تلك الدعاوى يرد عليهم القرآن الكريم فاضحا مراوغتهم ، وذلك ما جاء
في قوله عزوجل * واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون
لقاءنا آتت بقرآن غير هذا أو بدله قل لها يكون لي أن أبدله من تلقاء

(١) سورة الأنعام آية ١١١ .

(٢) انظر الشفاء للقاضي ج٢/ ١٥٦ ، ١٥٧ بشرح نور الدين القارى .

نفسى إن اتبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم
عظيم ، قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من
قبله أفلا تعقلون * (١) وقوله تعالى * ولو فتحنا عليهم بابا من السماء
فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون * (٢)
وفي قوله عز وجل * وقالوا لن نؤمن بك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا
أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط
السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي باله والملائكة قبلا (٣) أو يكون
لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن بك حتى تنزل علينا
كتابا نقروءه . قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ، وما منع الناس
أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ، قل لو
كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ،
قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا * (٤)

وبعد هذا الافهام المسكت وهذه الحجج الساطعة تمضي قريش
في المراوغة والتحايل والتعجيز فيطلبون آية تدل على صدقه في نبوته ،
فيسخر الله القمر فينفلق فلقين حتى رآه أهل مكة وغيرهم من البلدان
البعيدة كما جاء في حديث عبدالله بن مسعود : " قال : انشق القمر
ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم فصار فرقتين فقال لنا اشهدوا وأشهدوا "

-
- (١) سورة يونس آية ١٥ ، ١٦ .
(٢) سورة الحجر آية ١٤ ، ١٥ .
(٣) معناه كقبلا شاهدا لك بصحة ما تقول وضامنا ما يترتب على قولك
أو مقابلا بمعنى عيانا . انظر معاني القرآن للفراء ج ٢ / ١٣١
وانظر معالم التنزيل للبيضاوي بحاشية الشهاب ج ٦ / ٦٠ نشر دار
صادر بيروت .
(٤) سورة الاسراء آية ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ .

وروى أيضا من حديث أنس رضي الله عنه قال : " سأل أهل مكة أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر " . (١)

ولم يؤمنوا بل أصروا بعد هذا على العناد وكرسوا الجانب الأكبر في مشاقتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم محاولين النيل من القرآن والطعن فيه ، إذ القرآن هو الذى قض مضاجعهم وزلزل مناصبهم وجعلهم حيارى ينازعون أنفسهم من داخلها حيث تيقنوا بأن القرآن حق من عند الله وأنه ليس بكلام بشر ، ولذلك مرة يقولون إفك افتراه فهو أساطير الأولين وتلى عليه كما قال عز وجل * وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تلى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيفا * . (٢)

وهم ببهتانهم هذا ودعواهم الكاذبة ندرك أنهم أصبحوا يتخبطون وينطقون بألسنتهم دون أن يفكروا بعقولهم إذ هم على علم وبيئة من أن محمد صلى الله عليه وسلم لا يعرف من الكتابة شيئا ولا القراءة أيضا فقد تربى بين ظهرانيتهم وعلى مرأى منهم ، وإنما ينكرون الحق الذى وافق فطرتهم ينكرون عنادا وكبرا فتراهم مذيبين مضطربين لا يستقر لهم قرار ولم تثبت لهم حجة شأن أى منكر للحق كما قال عز وجل :

(١) أخرجهما البخارى فى صحيحه انظره بشرحه فتح البارى كتاب التفسير باب وانشق القمر ج ٨ / ٦١٧ ، وانظر الشفاء لعياض شرح القارى ج ٣ / ١ الى ص ١٥ مطبعة المدنى القاهرة . وانظر البداية لابن كثير حيث نقل الاجماع على وقوع ذلك ج ٣ / ١١٨ ، ط / الأولى .

(٢) سورة الفرقان آية ٤ ، ٥ ، ٦ .

﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون قل ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ما ءامنت قبلكم من قرية أهلكتها ، أفهم يومئذ منون ﴾ (١)

وتعجز قريش في التدليل على دعواها تلك لا سيما حينما تحداهم القرآن وهم الفصحاء الذين يضرب بهم المثل في البلاغة وهم الذين كثر شعراءهم وخطباؤهم . وهم الذين دأبوا على أن يتحدى بعضهم بعضا في المساجلة (٢) والمقارضة بالقصيد (٣) والخطب ثقة منهم بقوة الطبع ولهم في ذلك مواقف ومقامات في ألسنتهم ومجامعهم فتحداهم القرآن بالآتيان بمثله ومعهم الجن كما جاء في قوله عز وجل ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ (٤) ثم نزل معهم إلى الآتيان بعشر سور مفتريات كما جاء في قوله تعالى ﴿ أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله الا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ (٥)

-
- (١) سورة الأنبياء آية ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ .
- (٢) معناها المفاخرة والتبارى في الشعر بحيث يخرج أحد المساجلين ما يخرج الآخر. اللسان ج٣ / ١٩٤٥ ، ط/ دار المعارف ، مصر مادة : سجل .
- (٣) معناها قول الشعر ، يقال : قرضت الشعر أقرضه اذا قلته . اللسان ج٥ / ٣٥٩٠ - مادة قرض .
- (٤) سورة الاسراء آية ٨٨ .
- (٥) سورة هود آية ١٣ ، ١٤ .

ويعجزون وينزل معهم القرآن الى الاتيان بسورة واحدة مع تحديهم
بما يستغزهم ليفعلوا لو كانوا قادرين كما جاء في قوله تعالى ﴿ وإن
كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم
من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار
التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ (١) وفي قوله عز من
قائل ﴿ أم يقولون افتراء قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعم من
دون الله إن كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم
تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ (٢)
وهكذا نرى القرآن تحداهم بأن يأتوا بمثل القرآن أو بما
يستطيعون منه فما استطاعوا بل تحداهم بأنهم لن يستطيعوا ذلك ، وحينما
ظهر عجزهم وبان عوارهم لجأوا الى الاتهامات الكاذبة والاغراء بالمباهة
والرضا بالدنيئة كقولهم ﴿ قلوبنا في أكنة ﴾ وكقولهم ﴿ لا تسمعوا لهذا
القرآن ﴾ كما جاء في قوله تعالى ﴿ وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا
إليه وفي آذاننا وقر من بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾ (٣) وفي
قوله تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم
تغلبون ﴾ (٤)

(١) سورة البقرة آية ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة يونس آية ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) سورة فصلت آية ٥ .

(٤) سورة فصلت آية ٢٦ .

ولما سمع الوليد بن المغيرة القرآن رق قلبه فقد روى عن عكرمة
عن ابن عباس قوله (١) : " إن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله
عليه وسلم فقرأ القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فقال أي عم ان قومك
يريدون أن يجمعوا لك مالا . قال : لم ؟ قال : يعطونك فانك أتيت
محمدا تتعرض لما قبله قال : قد علمت قريش أنني أكثرها مالا ، قال فقل :
فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال وأنتك كاره له ، قال : فما أقول فيه ؟
فوالله ما منكم من رجل أعلم بالاشعار مني ولا أعلم برجز مني ولا بقصيده ولا
بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا . والله لا يرضي
قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعني حتى أفكر فيه ، فلما فكر قال : هذا
سحر يآثره عين غيره فنزلت * نرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا
مدودا وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان
لآ ياتنا عنيدا سأرهقه صعودا إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف
قدر ثم نظر ثم عبس وبسر (٢) ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر
إن هذا إلا قول البشر سأل عليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر
لواحة للبشر عليها تسعة عشر * (٣) إن فصحاء قريش أو العرب قاطبة

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک وقال على شرط البخاری ج ٢/ ٥٠٧ هـ
كتاب التفسیر .

(٢) معناه الاستعجال في العبوس والكفح وهذا من قولهم بسر الفعل

الناقة ضربها قبل أن تطلبه وكما في قول القائل :
وقدر ابني منها صدور رأيتة ولإعراضها عن حاجتي وسورها
انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤/ ٤٤٢ نشر دار التراث
القاهرة والبيت من بحر الطويل . انظر المفردات للأصمعي ص ٤٦
مادة بسر .

(٣) سورة المدثر آية ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ،
٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩

وأشرفهم ما استطاعوا أن يماثلوا القرآن يقول ولومفتري ولا بحكمة
هادية فأعرضوا عنادا واستكبارا .
موطن الابتلاء في دعوة قريش :

ذلك أنهم جاءهم كتاب مصدق لما بين يديه معجز في معناه
ومبناه فلم يستطيعوا رده بعد أن تحداهم بل لم يجدوا حيلة للوصول
إلى مرآهم المبني على الحقد والعناد حيث استبد القرآن بإرادتهم
في ذلك وغلب على طباعهم فيما جاءهم به من الأساليب والمعاني
الجامعة للأحكام والأخبار والتي فاقت تصوراتهم في الفصاحة ، فمال
بينهم وبين ما قصدوا إلى خلافه فانعقدت قلوبهم حتى فروا منه إليه
إذ المكابرة والمعاندة بما استقر في القلب وانعقد في النفس لا تتعدى
جوانب اللسان الذي يستطيع أن يخالف ما جزم به القلب ؛ لأن اللسان
عضو يستخدمه الانسان في النطق بالحق والباطل ولذلك اتجهت قريش
إلى أساليب السخرية والاستهزاء بصاحب الرسالة ووصمه بما هو برى منه
بالدليل القاطع كما رأينا ، مرة قالوا ساحر ومرة قالوا مجنون ومرة يرسلون
عليه النظرات الناقمة كما قال عز وجل * وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك
بأبصارهم لما سمعوا الذكرو ويقولون إنه لمجنون * (١) ، * وعجبوا أن
جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا ساحر كذاب * (٢) بل كانوا يستهزئون
بمن آمن به بل سلكوا طريق القسر والتعذيب للضعفاء من الذين آمنوا
كما جاء في قوله تعالى * إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون
وإذا مروا بهم يتغامزون * (٣)

(١) سورة ن آية ٥١ (٢) سورة ص آية ٤ .

(٣) سورة المطففين آية ٢٩ ، ٣٠ .

وهكذا سلكوا طريق الطغيان وحالوا بين قلوبهم وبين الحق
الذى اطمأنت إليه الأفتدة فلم يستغلوا ما رزقهم الله من اختيار للرغبة
في الايمان والتوجه الى الهدى .

وحكم الله في سننه الجارية على من سلك هذا الطريق هو الاضلال ،
لأنهم حادوا عن الطريق الذى يصلون من خلاله الى النجاة ولأنهم
جحدوا أو تعاموا عن الحقائق التى دلت عليها البراهين الواضحة والقاطعة
فصرفوا أنفسهم عما ثبت لديهم من دليل مشهود وعطلوا ما استقر فى
داخلهم من فطرة قويمه كما قال عز وجل * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم
كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون * (١) ، إذن
فالذين يتكبرون عن الخشوع للحق الثابت بالدلائل المنصوبة فى الآفاق
والأنفس والذين لا يتوجهون الى طريق الهدى والسداد ويتخذون لأنفسهم
مسلك الضلال باستمرار فلا يكادون يعدلون عنه نظرا لموافقته أهواءهم
وافضائه بهم الى شهواتهم ، أولئك يعرضون أنفسهم للصرف وقلوبهم للطبع
بحيث يصبحون لا يعتبرون بأى دليل ، لأنهم أصروا على الكبر والعناد يرون
لأنفسهم الارتفاع عن غيرهم والمزية على من سواهم من الخلق ولذلك لم
ينتفعوا بالآيات القائمة على الحق فزاغوا عنه فكانت النتيجة أن سلبت
الله عليهم الزيف المستمر كما قال عز وجل * فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم
والله لا يهدى القوم الفاسقين * (٢)

(١) سورة الأنعام آية ١١٠ .

(٢) سورة الصف آية ٥ .

فلما عدلوا عن اتباع الحق وهم عالمون به أمال الله قلوبهم عن

الهدى وحل فيها الشك والريب والخذلان . قال عز وجل * سأصرف

عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية

لا يهؤموا بها وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل

(١)

الذي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين *

والذين يرون لأنفسهم الارتفاع في الأرض والمزية على الخلائق

معرضون للطبع على قلوبهم فلا ينتفعون بآيات الله المنصوبة ولا يفتنمون

مفانم آثارها الدالة على عظمة الله وشرعه ، فكما استكبروا بغير حـق

أزلهم الله بالجهل .

الفصل الثالث

ابتلاء الأعم المدعوة بعد الاجابة

وبعد ، فقد تجلى للقارىء في الفصل الذى يليه هذا الفصل
أن أحوال الأمم وبلاءهم قبل الاجابة من حيث خروجهم عن جادة التوحيد
ولوازمه هم في ذلك قد حادوا عن براءتهم الاصلية وفطرتهم الصافية التي
تظهر في خضوعهم للواحد الأحد الذى يخلق ويرزق كما بدا لنا أن الله
عز وجل لم يترك البشرية منذ أن انحرفت عن طريق الهدى هملابل من
عليها بإرسال الرسل وإنزال الكتب كي ترجع إلى سبيل الرشدين نصب
الأدلة القاطعة على وجوب اعتقاد تفرده بالخلق الموجب لتفرده بالعبادة
لكن ما يحزن المؤمن من حقا أن قسما كبيرا من بني آدم سلكوا سبيل الفساد
فتكبروا وأبوا الا التمسك على ما أنعم الله به عليهم من دلائل موصلة للنجاة
فكانت مواقفهم أمام دعوة أنبيائهم محزنة ، مواقف شيبيت رسول الخلق
أجمعين صلى الله عليه وسلم كما جاء في حديث ابن عباس قال : قال
أبو بكر : يا رسول الله قد شيت قال : شيبيتني هود وأخواتها ^(١) .
وبعد هذه التجلية فيما يتعلق باستعراض مراحل ابتلاء الأمم التي انحرفت
بفطرتها ، وشوهت سلوكها بكفران نعمة خالقها يقتضي الأمر استعراض مواقف
الأمم الشاكرة بالاستجابة لأمر ربها ووفائها لما سبق أن أخذ عليها من
عهد وارد في قوله تعالى * وان أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم
ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألت بربكم قالوا بلى * (٢) ، ومن
المؤسف أن الكثرة الكاثرة من الأمم المدعوة لم تستجب لرسول الله ، ولذلك
وجد أن اتباع الأنبياء السابقين كانوا من القلة التي لم تجعل القرآن

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه وقال على شرط البخارى ووافقه الذهبي

ج ٢ / ٣٤٣ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

يتعرض بالبيان لمواقف وقفوها أو بلايا تعرضوا لها اللهم إلا ما كان من بني اسرائيل مع موسى أومع عيسى . ولذلك الجانب الأكبر في ابتلاء الذين آمنوا نجده يشمل حياة أصحاب محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ، كما نجد الثبات والصبر على الايمان هو من ديدنهم أيضا . ويتجلى ذلك في أن بني اسرائيل كانوا في عيشة ذليلة وتحت سلطان قاهر زمن فرعون فأذاقهم الطاغية شتى ألوان الذل والهوان ، فمن الله عليهم بارسال موسى عليه الصلاة والسلام لينقذهم من تسلط فرعون عليهم فسلك بهم البحر ابتغاء تخليصهم من بطشه وحينما اتبعهم فرعون وقومه أغرقهم الله ونجى موسى ومعه بنو اسرائيل من عدوان فرعون عليهم إذ كان يعذبهم أشد العذاب ويستأصل أعقابهم بتقتيل أبنائهم كما أخبر سبحانه في معرض المنة على بني اسرائيل . ولفت نظر اليهود الذين عاصروا دعوة النبي محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : * وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم * (١) . وقوله تعالى * وإذ قال موسى لقومه انكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم * (٢) ، وقوله * واذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم * (٣) .

-
- (١) سورة البقرة آية ٤٩ .
(٢) سورة ابراهيم آية ٦ .
(٣) سورة الأعراف آية ١٤١ .

فآيات الكرمات تدل على أن فرعون سلط على بني اسرائيل
أنواع العذاب والقتل سواء بالتذبيح أو بغيره كما يدل عليه لفظ يقتلون
في الأعراف وكما يدل عليه عطف جملة يذبحون في ابراهيم وذلك أنه في
البقرة وردت جملة يذبحون بدون واو وكذلك في الأعراف ، فالعطف
بالواو يدل على أن فرعون كان يسوم بني اسرائيل أقصى أنواع العذاب
مع ذبح أبنائهم لأن العطف يقتضي المغايرة ^(١) أما حذف الواو
في البقرة والأعراف إنما هو بناء على بيان العذاب بجملة يذبحون ويقتلون
وذلك للاتصال الكامل بين المفسر والمفسر بفتح السين ^(٢) وذكر الواو
في ابراهيم بناء على أن التذبيح والتقتيل أشد أنواع العذاب فعطف على
ما قبله من باب عطف جبريل على لفظ الملائكة . كما تدل تلك الآيات
على أن الله أنعم على بني اسرائيل بأن أنجاهم من تسلط فرعون ومع
ذلك ما إن تجاوزوا البحر وآمنوا مما كان مسيطرا عليهم من الخوف والرعب
من إدراك فرعون لهم حتى أشركوا بالله الذي أنجاهم فطلبوا من موسى
أن يجعل لهم إلهة يعبدونه حينما رأوا قوما يعبدون أصناما وغفلوا عن
مهمة موسى الأولى وهي غرس التوحيد في نفوسهم وإخراجهم من دائرة
التقليد ولذلك وصفهم موسى بالجهل وبين لهم أن عبادة غير الله
باطلة وموءبة إلى القضاء بالهلاك على أصحابها فكيف يطلبون ذلك

(١) جامع الأحكام للقرطبي ج١/٣٨٥ الطبعة الثالثة .

(٢) روح المعاني للألوسي م ٥/٣/ص ١٨٩ وانظر التخليل

للقرطبي ص ١٢٨ نشر دارالكتاب بيروت وانظر حاشية الشهاب ج٥/٢٥٢

نشر دار صادر بيروت وانظر البحر المحيط ج٥/٤٠٦ الطبعة الثانية

نشر دار الفكر .

بعد أن أنعم الله عليهم بالإنجاء من فرعون وبتفضيلهم على كثير من العالمين في زمانهم . وبقى بنو إسرائيل مع موسى وقد كانوا في حاجة إلى نظام لحيا تهم وشريعة تقودهم إلى الحسنى فاصطفى الله نبيه موسى ووعده أربعين ليلة ليأتي إلى الطور لتلقي الألواح التي فيها التوراة المتضمنة لأنواع الهداية من أصول التشريع كالعقائد والآداب وأحكام الحلال والحرام نورا للمؤمنين وحجة على المتكبرين الذين أوعدهم الله بصرفهم عن طريق النجاة وذلك لأنهم تكبروا عن الإيمان بالله وكذبوا بآياته ، فإذا وضح لهم طريق الهدى والنجاة أعرضوا عنه وإذا رأوا طريق الغي اتجهوا إليه عنادا وتكبرا ولذلك استحقوا الختم على أفئدتهم واستوجبوا صرفهم عن الاهتداء بآيات الله البينات قال الله عز وجل * سأصرف من آيتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ولن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بئائتنا وكانوا عنها غافلين * (١) وكقوله عز وجل * ولقد زرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون * (٢) ولما مضى موسى إلى ربه وعد قومه بالغياب عنهم ثلاثين ليلة غير أنه لما سمع كلام ربه وخطابه له لبث أربعين ليلة بزيادة عشر (٣)

(١) سورة الاعراف آية ١٤٦ .

(٢) سورة الاعراف آية ١٧٩ .

(٣) وقد قيل أن موسى أفطر خوفا من أن يكلمه الله وهو صائم مما سيؤدى

إلى تغيير رائحة الفم فأمر الله بزيادة العشر ليأتي بعدها وهو صائم .

انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٢ / ٢٤٣ . وروح المعاني

للأوسى م ٣ / ج ٩ / ٤٣ .

كما أخبرنا سبحانه وتعالى * و وعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتمناها بعشر
فتم ميقات ربه أربعين ليلة * (١) وحق لموسى ذلك إذ اللقاء قد لا يتكرر
وهو لقاء العبد الفقير بربه الغني . بالفوز بمناجاته والقرب من رعايته
مأرب مطلوب وقصد كريم مرغوب فلا يناله إلا المقربون .

وموسى على هذه الحال وقومه قد سلكوا من بعده طريق الضلال
بما تسبب لهم فيه السامرى من نصبه لعجل ودعوتهم لعبادته فعبدوه إلا القليل
منهم ، صنعهم من ذهب مما يدل على سفههم وتصقمهم في الغفلة ،
يعبدون عجلا مصنوعا لا حول له ولا قوة لا يستطيع تكليمهم ولا ارشادهم
سواء أظاعوه أو عصوه فأخبر الله موسى بما وقع فيه قومه من فتنة * واتخذ
قوم موسى من بعده من حلبيهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم
ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم
قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويفر لنا لنكونن من الخاسرين * (٢)

يعكفون على عبادة العجل رغم محاولة هارون الذى كان قد

خلفه موسى في غيابه على القوم كما أخبر سبحانه في قوله * وقال موسى

لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين * (٣)

فحاول هارون تقديم النصح لهم ببيان أن الله هو ربهم وأنه هو الذى يستحق

العبادة وحده فأبوا إلا الاستمرار في عبادة ذلك العجل حتى يرجع إليهم

موسى ، وحينما رجع موسى بالألواح ووجدهم عاكفين على عبادة العجل

(١) سورة الأعراف آية ١٤٢ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٤٢ .

أخذ يوء نب أخاه هارون على ما وقع فيه بنو إسرائيل من عبادته ظنا من موسى أنه فرط في نصح القوم وارشادهم الى الحق فبين له أنه لم يأل جهدا في النصح لهم والمحافظة على جمعهم وهو على ذلك حتى كادوا يقتلونه حينما استضعفوه ولذلك فهارون لا يستحق ما يجعل أعداءه يسمتون فيه ، وساعتها التفت موسى الى القوم يوء نبهم ويعيب عليهم الاستعجال في أثناء غيبته واستبطاهم رجوعه فخلفوه الى عبادة العجل متعللين بأنهم عبده لا من طواعية واختيار ولكن السامري هو الذى سول لهم ذلك . وهو عذر لا تقوم به حجة فلو تمكن الايمان من قلوبهم وعرفوا الله حق معرفته ما ليس عليهم السامري بصنعه العجل. هذا ما أخبرنا به الله في قوله ﴿ وما أعجلك من قومك يا موسى قال هم أولاء على أشري وعجلت إليك رب لترضى قال فانل قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفضال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم فقد فناها كذلك ألقى السامري ، فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمان فاتبعوني وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى . قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمرى قال يبئو م لا تأخذ بلحيتي

ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولِي ﴿١﴾ .
ولما ذهب عن موسى الغضب وهدأ روعه التفت إلى السامري رأس
الفتنة وداعية الضلالة يريد كشف أمره وأخذ اعترافه بما قام به من فتنة
فكانت عاقبته الخسران في الدنيا والاخرة ، ففي الدنيا بعزله عن مخالطة
البشر بدعوة موسى عليه فلا يمس انسانا ولا يمسه انسان ، وفي الاخرة يساق
الى النار ليلقى جزاء ما اقترفت يده وبئس المصير . وبالقضاء عليه
وعلى عجله بالحرق والنسف قضى موسى على فتنة جعلت بني اسرائيل
يسقط في أيديهم كما قال عز وجل ﴿ قال فما خطبك يا سامري ؟
قال : بصرت بما لم يبصروا فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴿٢﴾ فنبذتها
وكذلك سولت لي نفسي ، قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول
لا مساس وإن لك موعدا لن نخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه
عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في السم نسفا إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو
وسع كل شيء علما ﴿٣﴾ .

وكذلك عاقب الله بني اسرائيل بظلمهم أنفسهم بعبادة العجل
فأهرهم بقتل أنفسهم . وسواء قلنا في كيفية القتل إن كل من عبد العجل
أمر بقتل نفسه أو قلنا إن الذين لم يعبدوا العجل أمروا بقتل الذين عبدوه
فالمقصود أن الله عاقبهم بالأمر بقتل أنفسهم مع ما من به عليهم من توبة

(١) سورة طه آية : ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ،

٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) في معنى هذه الآية يقول جمهور المفسرين أن السامري أخذ قبضة
من أثر فرس جبريل لما أرسله الله للقضاء على فرعون وألقاها على
الحلى المذاب فكان ما كان من أمر العجل .

انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ / ٦٣ ، ١ نسر مكتبة التراث
القاهرة وروح المعاني للألوسي ج٦ / ١٦٦ ، ٢٥٣ نشر دار الفكر .

(٣) سورة طه آية : ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ .

وعفوا عنهم كرما وتفضلا منه كما أخبرنا الله عز وجل في قوله ﴿ وَإِذْ قَالَ
مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا أَتاكم بِأَنفُسِكُمْ فَاتَّخَذتُمْ الْعِجْلَ مَنَاقِبًا
بَارِكُمْ فَاذْكُرُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١).

وهكذا لطف الله ببني اسرائيل - كما رأينا في الآية الكريمة -
ورحمهم فعفا عنهم بعد أن تابوا واستجابوا لقتل أنفسهم . وبعد ذلك
تتوالى نعم الله على بني اسرائيل فمن عليهم بالبعث بعد أن أخذتهم
الصاعقة وذلك أن موسى اختار من قومه سبعين رجلا للذهاب معه
كي يتوبوا الى الله ما فعل قومهم من عبادة العجل فما لبثوا هم
الاخرون حتى طلبوا من موسى أن يريهم الله جهرة فأخذتهم الصاعقة عقابا
لهم كما قال عز وجل ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا
أَخَذتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِيَّاى أَتَهْلِكُنَا
بِمَا فَعَلْنَا السَّفَهَاءَ مَنَا إِن هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تُشَاءُ وَتَهْدِى مَن
تُشَاءُ أَنْتَ وَلِينَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ (٢) وهو لا
السبعون هم الذين طلبوا من موسى رؤية الله جهرة كما في قوله تعالى
﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّوَدِعُكَ مِنَ لَدُنِّهِ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذتْكُمْ
الصاعقة وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعثْنَاكَ مِن بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣)

-
- (١) سورة البقرة آية ٥٤ .
(٢) سورة الأعراف آية ١٥٥ .
(٣) سورة البقرة آية ٥٥ ، ٥٦ .

نستدل لهذا بما أخرجه ابن جرير عن الربيع عن أنس في قوله تعالى ﴿ فَأَخَذْتُمْ الصَاعِقَةَ ﴾ أنه قال : هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه ، وقالوا له : اطلب لنا ربك لنسمع كلامه قال سمعوا كلاما فقالوا ﴿ لن نوء من لك حتى نرى الله جبهة ﴾ قال فسمعوا صوتا فصعقوا . يقول : ماتوا ، فذلك قوله تعالى ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ فبعثوا من بعد موتهم ، لأن موتهم ذلك عقوبة لهم فبعثوا لبقية آجالهم . (١) وقال ابن كثير عن قوله تعالى ﴿ واذ قلتم يا موسى لن نوء من لك حتى نرى الله جبهة ﴾ : المراد السبعون المختارون منهم ولم يحك كثير من المفسرين سواء . (٢) فطلب بني اسرائيل من موسى أن يبروا الله دليل على غفلتهم المستمرة وعلى جهلهم بمعرفة الله وعلى عدم اكرامهم بما من الله به عليهم من نعم ومعجزات شاهدوها بأعينهم كما يدل على أنهم رأوا على التمرد على أوامر الله والكفران بما يسديه إليهم من نعم فكان جزاؤهم أن أخذتهم الصاعقة لا لمجرد طلبهم الرواية فقط ولكن لسلوكهم طريق التعنت وفرط العناد وذلك شأن كل ملحد يعرض عليه الايمان فيتذرع بما لا يستطيع

(١) قال ثنا بن المثنى قال ثنا اسحاق قال ثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع . جامع البيان في تفسير القرآن ج١/٢٣٢ ط الأثرية وفيه : عبد الله بن أبي جعفر وصفه في التقريب بأنه صدوق يخطي . ج١/٤٠٧ وأبوه عيسى بن أبي عيسى وصفه أيضا في التقريب بأنه صدوق سي . الحفظ ج٢/٤٠٦ ، والربيع بن أنس صدوق له أوهام . فيه التقريب ج١/٣٤٢ وباقي رواه ذكروا في الثقات ، انظر التقريب .

(٢) تفسير القرآن العظيم ج١/٩٤ نشر مكتبة دار التراث القاهرة .

عمله أوبما ان حصل سينهسي مستلزمات الاختيار المبني على الابتلاء
بمعنى أنه له رأوا الله جهرة لم يبق معنى للاختبار الذي يظهر من
خلاله عمل الانسان ومن هنا لما لم ينتفع الجاحدون بما أنزل الله
من كتب وما أظهر من بينات وهدى وبلغوا درجة يستحقون بها الاستئصال
جاء التهديد في القرآن الكريم بأن القوم لو عاينوا الملائكة ولم يؤمنوا
لحق عليهم القضاة فكيف لو عاينوا رب العزة والجلال كما قال عز وجل
﴿ ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون ﴾^(١) يقول الشوكاني في
تفسيره لهذه الآية ما نصه : " أي لا هلكناهم إذ لم يؤمنوا عند نزوله
ورؤيتهم له ، لأن مثل هذه الآية البينة وهي نزول الملك على تلك الصفة
إذا لم ينفع الايمان بعدها فقد استحقوا الاهلاك والمعالجة بالعقوبة.
(٢)
يؤيد هذا المعنى أيضا ما قاله الحافظ ابن كثير^(٣) في تفسيره للآية
" أي لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب كما قال
الله تعالى ﴿ ما تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين ﴾^(٤)
وقوله تعالى ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ﴾^(٥) وهكذا
يتضح أنه لو أرسل الله إليهم ملكا ورأوه عيانا لحق عليهم الاستئصال
ولم يبق معنى للاختبار لأن قضية الايمان أصبحت واضحة لا تحتاج

(١) سورة الانعام آية ٨٠

(٢) كتاب فتح القدير ج ٢/١٠١ نشر دار المعرفة بيروت.

(٣) تفسير القرآن العظيم ج ٢/١٢٤ نشر دار التراث القاهرة.

(٤) سورة الحجر آية ٨٠

(٥) سورة الفرقان آية ٢٢

إلى دليل ولأن التكليف أيضا مبنى على الاختيار فاذا رأوا الملك ولم
يوءمنوا وجب إهلاكهم^(١) وهذا ما يعنيه أيضا القول الكريم * هل ينظرون
إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك ، أو يأتي بعض آيات ربك يوم
يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت
في إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون *^(٢) هذه الآية الكريمة
تقطع حجة الذين يعرضون عن الإيمان ويأبون الخضوع لتعاليم الاسلام
فيسلكون سبيل العناد والجحود بأن يعلقوا إيمانهم بالرسول والكتب
المنزلة على حصول روءيتهم لله عيانا وهذه دعوة باطلة كثيرا ما أشاعها
الملحدون ، وضللوا بها السذج من المتعلمين وأفسدوا بها كثيرا من
الشباب التائهين ، ولولا أن هذه الأمة هي آخر الأمم لحق على الذين
يطلبون روءية الله ما حق على من سبقهم من الأمم كبني اسرائيل أخذتهم
الصاعقة لولا أن الله عفا عنهم ومعشهم لقطع دابرههم . وتتوالى نعم
الله على بني اسرائيل بأن أوحى الله الى موسى أن يذهب بهم الى
الأرض المقدسة لفتحها وقاتل من فيها من أعدائهم ووعدهم الله بالنصر
والظفر عليهم ولكنهم ما لبثوا عندما سمعوا كلمة الجهاد أن نكصوا واستخذوا
فقالوا إن فيها قوما جبارين رغم أن رجلين منهم نصحا لهم بالدخول
وشراهم بالغبلة إن كانوا مؤمنين لكنهم لم يستجيبوا واستمروا على
التمرد مسترئين الراحة والجبن وقالوا لموسى : لن ندخلها فذهب
أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون فخالفوا أمر ربهم فاستحقوا العقاب

(١) انظر في هذا المعنى ، تفسير أبي السعود ج٢/١٢٧ . نشر

دار الفكر بيروت .

(٢) سورة الأنعام آية ١٥٨ .

بالتيه في الأرض أربعين سنة حتى انقضى الجيل الذي أَلْفَ الذل والهوان
وخلفهم جيل كسب القوة والتجلد قال الله عز وجل ﴿ يا قوم ادخلوا
الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا
خاسرين قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى
يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فانا داخلون ، قال رجلان من الذين
يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون
وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، قالوا يا موسى إنا لن ندخلها
أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون قال
رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال
فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأمن على القوم
الفاسقين ﴿ (١)

فموقبوا بالتية يسرون ولا يبهتدون وخلال هذه المدة أنعم

الله عليهم أيضا بنعم وافرة :

١ - ظللهم الغمام وأنزل الله عليهم أطيب الأَطعمَة

وأشهاها كالمن والسلوى وذلك دون نصب في تحصيله كما أخبر سبحانه في

قوله ﴿ وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا إليكم المن والسلوى كلوا من طيبات

ما رزقناكم وما ظلمونا لكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿ (٢)

(١) سورة المائدة آية ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) سورة البقرة آية ٥٧ .

٢ - مَنْ اللّٰه عليهم بالماء بعد أن اشتد بهم العطش في
التيه فاستقى لهم موسى ربه فأمره بضرب الحجر فانفجر منه اثنتا عشرة
عيناً على أعداد الأسباط منهم فعرف كل سبط منهم مكان شربه الخاص به
دون تزاحم أو مشاحنة بل كل سبط يأخذ ماءه دون عناء ، وهذه نعمة
أخرى كما أخبر سبحانه في قوله ﴿ واذ استسقى موسى لقومه فقلنا
اضرب بعصاك البحر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم
كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ (١)

وينواسرائيل هم بنواسرائيل يأبون إلا أن يبجدوا نعم الله
المتوالية عليهم إلى درجة أنهم يستبدلون الذي هو خير بالذي هو
أخس وأقل درجة في البهجة والسرور أبدلوا المن والسلوى وهما ألذ
الأطعمة بالهصل والعدس والتوم وما يتبعهما من يقول فلم يشكروا
ما رزقهم الله من طعام سهل المنال لذيق المذاق فطلبوا بدله طعاما
صعب التحصيل قليل النفع رخيص الثمن وذلك ما امتن الله به عليهم
في قوله ﴿ واذ قلت يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك
يخرج لنا ما تنبت الأرض من يقلها وقتائها وفومها وعدسها وبصلها
قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خيرا هبطوا مصرا فان لكم
ما سألتم وضريت عليهم الذلة والمسكنة وهاء وبغضب من الله ذلك بأنهم
كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما صوا وكانوا
يعتدون ﴾ (٢)

(١) سورة البقرة آية ٦٠ .

(٢) سورة البقرة آية ٦١ .

يقول ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية : " أى قال لهم موسى
(١)
أُتخذون الذى هو أخص خطرا وقيمة وقدرا . وذلك كان استبدالهم ."
وبعد هذه الاختبارات التي تنقل فيها بنو اسرائيل كي يرجعوا
الى طريق الطاعة ولا^٢ وامر مولاهم بعدما رأوا الآيات ، وبعد الذى ذاقوه
من عقوبات على مخالفتهم تلك والتي انتهت بهم الى التيه أربعين سنة
بعد ذلك كله يكرمهم الله فيأمرهم بالدخول الى بيت المقدس وهو
المقصود بالقرية كما ثبت^(٢) عن ابن عباس وابن مسعود ليعيشوا عيشة
مرضية وليشكروا الله على نعمه وليتوبوا فيطلبوا المغفرة منه سبحانه
ويسألوه التجاوز عما فرط منهم . وليحط عنهم ما تحملوه من أوزار
بمصيبتهم وأوامره وتمردهم على شرعه . ولكن اليهود قوم بهت فهم
هم يقول عز وجل * وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث
شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد
المحسنين فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين
ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون *^(٣)

يرشدهم الله إلى كيفية الشكر الذى يجب عليهم لخالقهم ،
ويوجههم الى الطريق السهل الذى ينجيهم بأن يدخلوا من باب
المدينة المفتوحة لهم خاشعين ساجدين ضارعين إلى الله عز وجل

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن ج١/٣١٢ ط / الألفية .

(٢) انظر روح المعاني للأوسى ١٢ / ج / ٢٦٥ .

(٣) سورة البقرة آية ٥٨ ، ٥٩ .

ليحط عنهم ما اقترفوه من آثام وليصحو عنهم ما سلف من مخالفات وعصيان .
فقوله عز وجل ﴿ وقولوا حطة ﴾ * معناه كما نقل عن الحسن وقتادة (١)
(احطط عنا خطايانا) فبدلوا ما قيل لهم وذلك أنهم بدل أن يدخلوا
ساجدين دخلوا على أستاذهم ، وبدل أن يطلبوا حط ذنوبهم ويقولوا
حطة قالوا : حبة في شعرة كما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قيل لهنى اسرائيل ﴿ ادخلوا الباب
سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ﴾ فبدلوا فدخلوا يرحفون على
استأهمهم وقالوا : حبة في شعرة (٢) فخالفوا السجود بالزحف وقالوا
حنطة بدل حطة فظلموا أنفسهم بعدما استيقنوا صحة شرع الله
فأصابهم العذاب نتيجة عصيانهم وجحودهم لنعم الله عليهم فأنزل الله عليهم
عذابا من عنده بسبب التواضع عن الطريق المستقيم واصرارهم على التمرد
كلما أدركتهم رحمة الله بالعفو كما جاء في قوله تعالى ﴿ وان قيل
لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا
الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا منهم
قولا غير الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون ﴾ (٣)
وهكذا جمع بنو اسرائيل بين الفسق والظلم بتعمقهم فسي
الخروج عن الطاعة وغلوهم في التمرد على أوامر خالقهم وتبديلهم نعم الله

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١/٩٨ .

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه انظره بشرحه فتح البارى ج٨/٣٠٤ ،
كتاب التفسير .

(٣) سورة الأعراف آية ١٦١ ، ١٦٢ .

الوافرة عليهم وذلك ما استحقوا به عقاب الله الشديد كما قال عز وجل
في معرض التقرير والتوبيخ على جحودهم ذلك * سل بني اسرائيل
كم اتيناهم من آية بيينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان
الله شديد العقاب * (١)

ويتوالى ارسال الانبياء في بني اسرائيل كلما زاغوا عن طريق
الاستقامة أو أحدثوا ما يناقض لوازم العمودية من صرفها لغير الله أو
تحريف للأحكام ولا سيما أن بني اسرائيل دأبوا على التعنت والتكلف
وامتثال الأوامر فكانوا اذا طلبوا تحقيق أمر لهم واستجيب لهم لا يستطيعون
القيام به لجبنهم وعنادهم كما قص الله علينا من أنهم سألوا أحد أنبيائهم
نصب أمير عليهم ليقاتلوا في سبيل الله . وقد سبق أن علمنا أن منهم من
قال * فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون * (٢) ولذلك
هم في حاجة الى الاختبار ليعلم صدقهم من كذبهم .

فها هم طلبوا نصب مالك عليهم ليتأمرؤا بأمره ويقاتلوا تحت
رايته أعداءهم من العمالقة والكنعانيين الذين تسلطوا عليهم بعد أن
فقدوا التابوت الذي كانوا ينصرون به وبالتالي بادت ملوكهم وهلكت
أعظم أموالهم ولما كتب عليهم ما طلبوه من قتال نكصوا وخانوا العهد .
فحينما بعث الله لهم طالوت ملكا أخذوا في اللجاج والتعننت
فرفضوا تنصيبه ملكا عليهم متعللين بأنهم أحق بالملك منه
لأنه لم ينحدر من بيت أهله أهل ملك وما لم ينظروا إلى أن الله

(١) سورة البقرة آية ٢١١ .

(٢) سورة المائدة آية ٢٤ .

هو الذى اختاره واصطفاه عليهم ، وهو الذى جعله يفوقهم فى العلم والجسم كما قال عز وجل ﴿ ألم تر الى الملائكة من بنى اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله قال هل حسبتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين ، وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤت من يشاء والله واسع عليم ﴿ (١) فبين لهم فى هذه الآية خطأهم فى استبعادهم تنصيب طالوت ملكا عليهم لما كان فقيرا وما دروا أن ملاك الأمور بيد العليم الخبير وقد اصطفاه من بينهم إذ هو العليم بمصالح القوم وبالتالى هو وحده الذى له التصرف فى ملكه يولى من يشاء على من يشاء ويغنى من يشاء ويفقر من يشاء .

وما دام الأمر كذلك فيجب على بنى اسرائيل أن يقبلوه ملكا عليهم . وإن أرادوا علامة ملكه عليهم فذلك حينما يأتيه التابوت . كما روى عن ابن عباس (جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعت بين يدي طالوت والناس ينظرون) (٢) فمجيء التابوت ظاهرة دالة على صدق ذلك النبي وعلى صحة تولي طالوت عليهم ملكا وفي التابوت أيضا سكينه . واختلف المفسرون فى المراد بالسكينه

(١) سورة البقرة ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١/٣٠١ نشر مكتبة التراث القاهرة .

منهم من عبر عنها بما هو مادي كمن جعلها طستا من ذهب ومنهم من جعلها حيوانا يتكلم ومنهم من جعلها شيئا معنويا وهو الموافق لمدلوهها اللغوي إذ لا دليل عن المعصوم يوحي بدلالاتها على ما هو مادي ومن هنا فالذي ينبغي المصير إليه هو ما ذهب إليه عطاء حيث^(١) نقل عنه ابن جريج قوله: ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه وهذا ما عبر عنه الألوسي^(٢) بقوله أيضا: "أى في آياته سكنون لكم وطأئينة".

وقوله تعالى * وبقية ما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة *^(٣) نقل عن ابن عباس قوله: (عصاه ورضاض^(٤) الألواح).^(٥)

والمهم في هذا أن الله عز وجل أرسل لهم التابوت علامة على صدق نبيهم وشهادة لاستحقاق نصب طالوت ملكا عليهم حيث قال سبحانه * وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتكم التابوت فيه سَكِينَةٌ من ربكم وبقية ما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين *^(٦) ويمضي طالوت ملكا عليهم فيعد جيشا من الذين مضوا

-
- (١) انظر تفسير ابن كثير ج١/٣٠١ نشر دار التراث القاهرة.
- (٢) روح المعاني للألوسي ج١م/١٢٩/٢٠١٢٩.
- (٣) سورة البقرة آية ٢٤٨.
- (٤) معناه: مكسراتها. انظر المصباح المنير ج١/٢٧١، والنهاية لابن الأثير ج٢/٢٢٩.
- (٥) جامع البيان لابن جرير حيث قال فيه: حدثنا ابن المثنى قال ثنا أبو الوليد قال ثنا حماد بن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس. رواه وصفهم ابن حجر في تقريبه بأنهم ثقات. راجع الجامع بتحقيق محمود محمد شاكر ج٥/٣٣١ الطبعة الثانية.
- (٦) سورة البقرة آية ٢٤٨.

عازمين على القتال بعد أن اختبرهم ليظهر عزيمة من يثبت معه ويصبر على لأواء الحرب وشدة القتال وذلك لما مروا بنهر وقد اشتد بهم العطش وأصابهم الظم فأمرهم طالوت بأن لا يشربوا منه الا غرفة واحدة فمن صبر على عدم الشرب الا بالقدر الذي أجازته الأُمير فسوف يتحمل الآلام ومزاراة الظم مع وجود الماء ويسره ويدل ذلك أيضا على صلاحه وثبات عزمته وثقته بالله وبالتالي يدل على أن هذا الصنف من الناس يستطيع خوض المعارك وتحمل الصعاب فيها حينما يشتد وطيس الحرب فينفع الناس وينتفع هو أيضا بعكس من خالف الأُمير ولم يصبر على تحمل الظم فسوف يتراخى في الأُمير ويطلب الدعة والاستسلام ومن كان كذلك لا يصلح لمصاحبة المجاهدين لما ينالهم بسببه من التشبيط والخور. وينواسرائيل من الصنف الذي لا يتحمل الشدائد ومن النمط الذي طالما خيب آمال أنبيائه فيما يبرون به من اختبار وفي هذه القصة يخبرنا الله عز وجل بأنهم شربوا من الماء الا القليل * فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف غرفة بيده فشرى منه الا قليلا منهم * (١)

ويضي الذين صبروا وتحملوا المشاق معتمدين على ايمانهم القوى

بنصر ربهم لهم في مقابلة جالوت رغم كثرة عدده وعدته فيسبرله داود

ويقضي عليه ويريح الناس من شره وظلمه كما أخبرنا عز وجل في قوله

* فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده

قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بل إن الله والله مع الصابرين ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بل إن الله وقتل داود جالوت وإتاه الله الملك والحكمة وعلمه ما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين * (١)

ويتوالى إرسال النبيين إلى بني إسرائيل يحكمون فيهم بالتوراة كما أخبر سبحانه في قوله * إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بئائتي شيئا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون * (٢)

ومع طول المدة وقساوة قلوب بني إسرائيل وتمردهم كلما طال عليهم العهد كانوا في حاجة إلى رسول جديد ليصلح لهم ما حرفوه من شريعة التوراة وليردهم إلى سبيل التوسط بعد أن اعتادوا على التمسك بالافراط أو التفريط وبعد أن تَطَّعوا وبدلوا وحرفوا فيما جاءتهم به التوراة من أحكام وهم في هذه الحال يرسل الله إليهم عيسى ابن مريم رسولا موهبا يدا بمعجزة لا تدع سبيلا للارتياح في صدق رسالته كصنع الطير من الطين والنفخ فيه فيتحرك حيا طائرا بل إن الله وكبره الأكمه والأبرص وكتليم الموتى وكخبارهم بما يأكلون وما يخترنونه للأكل .

(١) سورة البقرة آية ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ .

(٢) سورة المائدة آية ٤٤ .

وبالتالي جاءهم عيسى عليه السلام ليبشرهم بقرب بعثة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم كما أخبر الله تعالى في قوله ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة واتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ﴾ (١) وفي قوله ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولا إلى بني اسرائيل اني قد جئتكم بآية من ربكم اني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ولأبرى الأكمة والأبرص وأحياى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تآكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ﴾ (٢)

جاء عن الربيع بن أنس أنه قال : (كان الذى جاء به عيسى ألين ما جاء به موسى عليهما السلام وكان قد حرم عليهم فيما جاء به موسى عليه السلام لحوم الابل والثروب (٣) فأحلها لهم على لسان عيسى ، وحرمت عليهم شحوم الابل فأحلت لهم فيما جاء به عيسى (٤) وذلك أن الله كان قد حرم عليهم أشياء عقوبة لهم على ما صدر منهم من مخالفات كما قال عز وجل ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ومصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربوا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعدنا للكافرين/عذابا ألما ﴾ (٥)

- (١) سورة المائدة آية ٤٦ .
(٢) سورة آل عمران آية ٤٨ ، ٩٠ ، ٤٠٠ .
(٣) جمع ثرب بوزن فلس الشحم الرقيق الذى يكون على الكرش والأمعاء .
كتاب النهاية لابن الأثير ج ١ / ٢٠٩ ، والمصباح المنير ج ١ / ١٠١ ،
نشر دار الكتب العلمية بيروت . ابن
(٤) أخرجه ابن جرير في جامعه قال حدثني /المنثي حدثنا اسحاق قال حدثنا
ابن أبي جعفر عن عبد الله بن الربيع ج ٦ / ٣٩٩ تحقيق محمود محمد شاكر
انظر بيان درجة رواته في ص : ٣٥٧ .
(٥) سورة النساء آية ١٦٠ ، ١٦١ .

ومع هذه النعم التي جاء هم بها عيسى بن مريم فبنوا اسرائيل هم بنوا اسرائيل دأبوا على العصيان والجحود ، فما إن جاء هم عيسى برسالته وبين لهم فيها ما اختلفوا فيه من أمور التكليف . حتى ظهر منهم الكفران والعناد وهموا بقتله ولم يؤمنوا به إلا قليل منهم وهم الحواريون كما قال عزوجل * فلما أحس عيسى منهم الكفر ، قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله * أمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ربنا * أمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين * (١) وقوله عزوجل * ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم * (٢) وكقوله عزوجل * وإن قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل إني رسول الله اليكم صدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ، فلما جاء هم بالبينات قالوا هذا سحر مبين * (٣) ولما أدى عيسى مهمته بتبليغ بني اسرائيل الانجيل وبين لهم الحق فيما كانوا فيه يختلفون رفعه الله إليه بعدما تأمروا على قتله لكن الله عزوجل نجاه منهم وشبهه لهم فرفعه إليه كما أخبر عزوجل في قوله * وإن قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * (٤) وقوله عزوجل

(١) سورة آل عمران آية ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ .
(٢) سورة الزخرف آية ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ .
(٣) سورة الصف آية ٦
(٤) سورة آل عمران آية ٥٥ .

﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ (١) روى عن ابن عباس (٢) أن رهطا من اليهود سبوه عليه السلام وأمه فدعا عليهم فمسخوا قردة وخنازير فبلغ يهودا رأس اليهود فخاف فجمع اليهود فاتفقوا على قتله فساروا إليه ليقتلوه فأدخله جبريل عليه السلام بيتا ورفعته منه إلى السماء ولم يشعروا بذلك فدخل عليه أحدهم ليقتله فلم يجده وأبطأ عليهم فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام فلما خرج قتلوه وصلبوه .

وهكذا رأينا أن بني اسرائيل استمروا على التمرد على أنبيائهم وأرادوا قتل عيسى عليه السلام لكن شبه لهم بصاحبهم فقتلوه واعتقدوا أنهم قتلوا عيسى وأصبحوا في ريب من أمره كما قال عز وجل ﴿ وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيم ﴾ (٣) .

والى هنا تقف بنا الرحلة مع بني اسرائيل باستعراض مواقفهم التي كشفت عن خسراتهم فيما اختبروا به من جهة أنبيائهم .

موطن الابتلاء في قصص بني اسرائيل :

١ - يتجلى ذلك في أن بني اسرائيل ما إن نجوا من تسلط فرعون عليهم باذلالهم وقهرهم حتى رجعوا الى ما علق في قلوبهم من خنوع وتذلل فطلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة عندما رأوا أقواما عاكفين على أصنام لهم يعبدونها .

-
- (١) سورة النساء آية ١٥٧ .
(٢) روح المعاني للألوسي م ٢ / ج ٦ / ص ١٠٠ .
(٣) سورة النساء آية ١٥٧ ، ١٥٨ .

٢ - نقضهم الميثاق حيث إن موسى عليه السلام ذهب ليأتي

لهم بالتوراة التي فيها نظام حياتهم وما لبثوا وراءه هنيهة حتى خانوا
الأمانة وعبدوا العجل وتمردوا على هارون بل كادوا يقتلونه .

٣ - التشكك الدائم ويتضح ذلك في السبعين الذين

اختارهم موسى للميثاق ليعلموا توبة القوم من عبادة العجل فما لبث
هو^١ مع موسى - ورغم المعجزات التي رأوها - حتى طلقوا إيمانهم بما جاء
به موسى على رؤ^٢ية الله معاينة .

وفي أمر الحواريين الذين طلبوا من عيسى انزال مائدة من
السماء وبصيغة فيها التشكك والاستفهام كما جاء في قوله عز وجل ﴿إِنْ قَالَ
الحواريون يَا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من
السماء قَالَ اتقوا الله إِنْ كُنْتُمْ مَوْءِئِينَ قَالُوا نريد أن نأكل منها وتطمئن
قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ﴾ (١) ألا ما أقسى
قلوبهم وما أشد تبلد حسهم وعنادهم .

٤ - استمرار تمردهم على الأوامر الإلهية حيث إنهم كلما
جاءهم أمر نكصوا على أعقابهم وتلكأوا في امتثال أمر ربهم وتعنتوا فيما
يوجههم إليه أنبياءهم وذلك كعدم التزامهم بأحكام التوراة وابتائهم
العسل بها حتى رفع الله فوق رؤسهم جبلا فسجدوا مكرهين وهم ينظرون
إليه خوفا من أن يقع عليهم كما أخبر سبحانه بذلك في قوله ﴿وَإِذ
نَتَقْنَا الْجِبَلِ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا
ما فيه لعلكم تتقون ﴾ (٢) وكتمردهم لما أمروا بالدخول إلى الأرض المقدسة

(١) سورة المائدة آية ١١٢، ١١٣ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٧١ .

لقتال من فيها من الجبابرة كان موقفهم مخزيا وكاشفا للتاريخ البشرى عن مدى جبنهم وخذلانهم حيث قالوا لموسى ﴿ فإذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ (١) فحلت بهم عقوبة التيه وخسروا ما كانوا يستمتعون به من نعم لو دخلوا الأرض المقدسة لكن جبنهم وخوفهم جعلهم ينكصون على أعقابهم وامتنعوا من الدخول فضربت عليهم الذلعة والمسكنة وتاهوا في الأرض أربعين سنة وهم فاسقون . وحتى عندما انتهت مدة التيه وأحل الله لهم الدخول عاندوا وحرفوا صفة الدخول وغيروا للهيثة في الفعل والقول التي أمروا بالدخول عليها بحيث أمرهم الله أن يدخلوا ساجدين طالبين حط الذنوب عنهم فدخلوا يزحفون وغيروا القول في حطة فقالوا : حنطة .

٥ - جحودهم نعم الله عليهم بل نزول طبائعهم السيئ الأخط والأخس من الأشياء يتضح ذلك فيما من الله به عليهم أثناء التيه من الأذى كالمن والسلوى فأبوا إلا طلب الأذى من البصل والثوم .

٦ - سوء الهم ما لا يستطيعون القيام به يتجلى ذلك في سوء الهم القتال تحت ملك يختار من بينهم فلما أعطوا ما طلبوا تولوا وتمردوا على من ولاه الله عليهم إلا زمرة قليلة بل حتى تلك الزمرة منهم التي خرجت معه حينما اختبرهم طالوت بعدم الشرب من النهر عصوه فشربوا إلا القليل منهم .

(١) سورة المائدة آية : ٢٤ .

٧ - وأخيرا دأب بنو اسرائيل على قتل أنبيائهم كما أخبرنا

الله عز وجل حيث قال ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعبذاب أليم ﴾ (١) وفي قوله عز وجل ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ (٢)

ولذلك لما جاءهم خاتمة أنبيائهم عيسى عليه الصلاة والسلام كذبوه

وبيتوا قتله لولا أن الله رفعه إليه ولعل الدارس لأخبار بني اسرائيل

لا يخالجه شك في أن بني اسرائيل أخس الأمم التي قص الله علينا خبرها

فيما قد مرت فيه من امتحانات وأنها أقسى الأمم قلوبا وأخبثهم مكرًا

وأبشعهم بطشا وأشدهم تعنتا والتواء عن سبيل الهدى والرشاد

وسيطهر لنا المزيد من ذلك عندما نتعرض لمواقفهم من خاتمة الرسالات

ونرى كيف سلكوا سبيل الخيانة الفاضحة والتدمير والتلبيس والتشيط ،

سنتأكد من الفرق الشاسع بينهم وبين خير أمة أخرجت للناس . وذلك

أنه قد سبق معنا في الفصل قبل هذا استعراض ابتلاء كفار قريش لإبان

دعوة النبي صلى الله عليه وسلم فأبوا إلا الفساد والتنكيل بمن أسلم فتتابع

أزاهم لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . ولما أخرجوهم من ديارهم

وتركهم شذرمدر هاجرت طائفة منهم إلى الحبشة في أول الأمر . وبعد

فترة تمت المعاهدة بين النبي صلى الله عليه وسلم والأَنْصار عند بيعة

العقبة فبدأ المسلمون يهاجرون الى المدينة من أجل الحفاظ على دينهم .

(١) سورة آل عمران آية ٢١ .

(٢) سورة آل عمران آية ١١٢ .

والثبات على عقيدتهم وتتابع نكال قريش للمسلمين ولما اشتد الأذى
بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه و أصبحوا مهددين في أرزاقهم بقطع
كفار قريش وسائل الحياة عنهم في تحركهم واتخاذ وسائل التعذيب
في حق من أسلم كما فعل بنو مخزوم بآل ياسر فكانوا يخرجون عمار
ابن ياسر وأمه وأباه اذا حميت الظهيرة فيعذبونهم برمضاء مكة ويمسر
بهم النبي صلى الله عليه وسلم فيقول صبرا آل ياسر موعدكم الجنة (١)
وكان أمية بن خلف الجمحي يعذب بلالا بن رباح رضي الله عنه أشد أنواع
العذاب فيخرجه الى الرمضاء ويضع على صدره صخرة عظيمة ثم يقول له
لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول
رضي الله عنه : أحد ، أحد (٢) كما كان أبو جهل يفرى بمن أسلم من
الضعفاء ويؤنب من له منعة وشرف ويخزيه بالتسفيه في العقل
والتخطفة في الرأي والتحرير على عدم التعامل مع من كان تاجرا
من المسلمين . (٣) وهكذا والت قريش صب البلاء على المستضعفين من
المسلمين واستمرت على حبسهم وتعذيبهم بالضرب والجوع والعطش
حتى كاد بعضهم يفتتن في دينه فلم يكن بد من الهجرة أمام هذا
الوضع القائم فأذن صلى الله عليه وسلم لمن لم يصبر بالهجرة الى
الحبشة واستمر من صبر في مكة كما جاء في سيرة ابن هشام حيث يروى
لنا القول " فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من
البلاء وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب وأنه

(١) انظر سيرة ابن هشام ج١/٣٢٠ الطبعة الثانية الحلبية.

(٢) انظر السيرة لابن هشام ج١/٣١٨.

(٣) انظر سيرة ابن هشام ج١/٣٢٠.

لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا ما أنتم فيه فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم (١).

ثم استمرت قریش في أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين لا زالوا معه ولم يهاجروا بعد . فكان الصحابة رضي الله عنهم يطلبون من الرسول الاستنصار من الله لكن سنة الله في الموتين الاختبار والامتحان كما قال عز وجل * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب * (٢) وقوله سبحانه * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين * (٣) وقوله جل شأنه * أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا الموتين وليجة * (٤) وقوله عز وجل * ألم يعلم أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * (٥)

-
- (١) ج ١ / ٣٤١ .
(٢) سورة البقرة آية ٢١٤ .
(٣) سورة آل عمران آية ١٤٢ .
(٤) سورة التوبة آية ١٦ .
(٥) سورة العنكبوت آية ١ ، ٢ ، ٣ .

وكذلك ما جاء في الصحيح من حديث خباب يقول : * أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة - فقلت يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال : لقد كان من قبلك ليمشط بالحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه . وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله * وفي رواية والذئب على غنمه . (١)

فهذه النصوص الظاهرة تعطينا أن من سنة الله في عباده حينما يرسل إليهم الرسل أن يمتحنهم بالتكاليف كالمهاجرة والمجاهدة وكالاعراض عن الشهوات وكالتعرض لفنون المصائب في الأنفس والأموال ليتميز المخلص من المنافق والراسخ في الدين من المتزلزل فيه فيعامل كل واحد بما يقتضيه حاله فيجازى الجميع بناء على مراتب أعمالهم فلا مناص من الاختبار بأمور يظهر فيها أهل العزم ويبدو فيها حال الصادق من الكاذب وذلك هو ما مر منه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا به أول الأمر في مكة . ولما اشتد البلاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويسر الله له منغذاً آخر لانطلاق الدعوة بما تم بينه وبين الأنصار من مبايعتهم له على أن يمنعوهم ما يمنعون منه نساءهم وأبنائهم أمر صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة إلى المدينة . ولما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه . كتاب مناقب الأنصار باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين . فتح الباري

علمت قريش بذلك ضاقت ذرعا وأحست بأفول غطرتها وقرب زوال كبريائها
اجتمع صناديدها . قرروا النظر في الأمر والبت فيه قبل انفلات الزمام من
أيديهم بظهور هذا الدين وانتصاره على من وقف مضادا لمبادئه فاجتمعوا
في دار الندوة يتشاورون ويبرمون الأمر فانتهى الأمر بهم أن اتفقوا
على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم - فداه أبي وأمي - وحينذاك أخبر
الله رسوله بأمر قريش وتآمرهم على قتله وأذن له بالهجرة من مكة بعد
أن مكث فيها ثلاث عشرة سنة يدعو إلى توحيد الله عز وجل وإلى شهادة
أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقد لقي في تلك الفترة أشجع
ألوان الفتن والمحن فكان صابرا متحملا حتى أمر بالهجرة إلى المدينة
ونزلت عليه الآية الكريمة ^(١) * وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني
مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا * ^(٢) فخرج صلى الله
عليه وسلم من بين ظهرانيهم ولم يروه فخذلوا وسقط في أيديهم ثم
اصطحب معه الصديق رضي الله عنه وخرجا حتى أتيا غار ثور واختفيا
فيه ما شاء الله أن يختفيا فتتبع قريش أخبار أمره من كل جهة وصوب
وجعلوا مائة من الابل لمن يأتي به أو يخبره قبل أن يصل إلى مهجره .
وهكذا قد تولى البحث عنه وتتبع آثاره بعض رجال قريش أنفسهم
حتى وقفوا على باب الغار ^(٣) ولما رأهم أبو بكر رضي الله عنه فزع وخاف
أن يروهما لكن الله أعمى أبصارهم وطمس بصائرهم فعادوا خائبين

(١) سورة الاسراء آية ٨٠ .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه من حديث ابن عباس وقال حسن صحيح .

انظره بشرحه تحفة الأحوذى للمباركفوري . التفسير ج ٨ / ٥٧٤

نشر دار الفكر .

(٣) انظر السيرة لابن هشام ج ٢ / ٤٨٥ .

يجرون أن يال الخزي والشنار ونجى الله رسوله من مكرهم وأيده على
سطوتهم كما ذكر تعالى * وإلا تنصروه فقد نصره الله إن أخرجه الذين
كفروا ثاني اثنين إذ هما في الفار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله
معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا
السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم * (١) وفي قوله تعالى
* وإن يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون
ويمكر الله والله خير الماكرين * (٢) وكما جاء في الصحيح من حديث
أبي بكر قال : " قلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الفار لو أن أحدهم
نظرتحت قدميه لأبصرنا فقال : ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما " .
(٣)
وهكذا ينجو صلى الله عليه وسلم من مكر كفار قريش ويصل إلى المدينة
ويقيم فيها دولة الاسلام لينتشر النور من هناك في ربوع أرجاء الأرض ،
وبذلك تنتقل الدعوة الى الجهر بها والقوة في مسارها ويتخذ
الابتلاء طريقا جديدا ولونا آخر وذلك في دار الهجرة التي أصبحت
معقلا للاسلام يشع منه النور . فقد أصبحت الدعوة تواجه عدوا ثلاثيا
اشنان من الداخل اليهود والمنافقون وواحد من الخارج كفار قريش
فكانت المهمة صعبة والثنم باهظا لاقامة دولة اسلامية تمتد الى الافاق
وتتجاوز مبعثها في الجزيرة . ولاتمام هذا الأمر باقامة دولة محمية من
أعدائها قوية في كلمتها وأمرها تجاه من أذاقوا أفرادها أصناف الأذى .

(١) سورة التوبة آية . ٤ .

(٢) سورة الانفال آية . ٣٠ .

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه انظره بشرحه فتح البارى ج٨/٧

كتاب فضائل الصحابة .

وفتنوهم أشد فتنة حتى اضطروهم الى الهجرة المتتالية ، وليجد الانسان
- أيضا - حرية في اعتقاده وفي تأدية شعائريته الذي اختاره لنفسه
وقد اضطهد من أجل معتقده . من أجل ذلك يجب على المسلمين أن
يجاهدوا عدوهم الذي يتربص بهم الدوائر ويحاول فتنهم حتى
لا يستطيعوا أن يمارسوا قواعد الاسلام . اذن يجب الجهاد
أولا حتى يصرف العدو عن محاربة المسلمين فأذن الله لنبيه بالقتال
حتى يكون الانسان حرا فيما يختاره لنفسه من عقائد وإن لا يكره في الدين
كما قال عز وجل ﴿ لا يكره في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ (١)
فجاء الاذن بقتال المعتدين كما في قوله تعالى ﴿ اذن للذيــــن
يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ (٢) وكما قال عز وجل
﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان
إلا على الظالمين ﴾ (٣) وفي قوله عز وجل ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون
فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير ﴾ (٤)
يلاحظ حذف لفظ كل في آية البقرة وذكره في آية الأنفال وذلك
أن آية البقرة جاءت بخصوص مشركي مكة وآية الأنفال جاءت لعموم
الكفار فناسب ذكر كل فيما هو عام وحذفه فيما هو خاص (٥) والله أعلم
بمراده . وهذا أيضا ما ذهب اليه الجمل في حاشيته حيث قال :

-
- (١) سورة البقرة آية ٢٥٦ .
(٢) سورة الحج آية ٣٩ .
(٣) سورة البقرة آية ١٩٣ .
(٤) سورة الأنفال آية ٣٩ .
(٥) بر روح المعاني للألوسي م ١ / ج ٢ / ٧٦ وما ذهب اليه
الألوسي يستقيم على القول بتخصيص إحدى الايتين وعموم
آخرهما وإلا فلا والظاهر أن العبرة بعموم اللفظ
لا بخصوص السبب ومن هنا لا يستقيم توجيه الألوسي .

”وترك هنا كله “ وذكره في الأفعال ، لأن القتال هنا مع أهل مكة فقط ،
وتم مع جميع الكفار فناسب ذكره ” . (١) وقوله تعالى ﴿ وما لكم
لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان
الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من
لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا ﴾ (٢) وقوله تعالى
﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير
الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا
دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد
يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ (٣)
هذه الآيات العظيمة تكشف لنا أن المشركين هم الذين كانوا
يوء زون المؤمنين لا لشيء إلا لأنهم اعتقدوا ما هو الحق الذي ثبت
بالدليل القاطع فمنعوا من حرية معتقدتهم فأذاقوهم شتى ألوان
العذاب وبالتالي أخرجوهم من ديارهم ومنعوا أموالهم . وكان
المؤمنون يأتون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ما بين مضروب ومشجوج
ويتظلمون إليه صلى الله عليه وسلم فكان يأمرهم بالصبر أخرج الترمذي من
حديث ابن عباس قال ” ولما أخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة
قال أبو بكر أخرجوا نبيهم ليهلكن فأنزل الله تعالى ﴿ أذن للذين
يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ الآية فقال أبو بكر:
لقد علمت أنه سيكون قتال ” (٤) ولذلك لما هاجروا أذن لهم بالقتال

(١) حاشيته على الجلالين ج١/١٥٤ ط / الحلبية .

(٢) سورة النساء آية ٧٥ .

(٣) سورة الحج آية ٣٩ ، ٤٠ .

(٤) أخرجه في جامعه وقال هذا حديث حسن انظره بشرح
المباركفوري أبواب التفسير ج٩/١٥ نشر دار الفكر بيروت .

دفاعا عن عقيدتهم كي يعمل بها مختارين وكي يبلفوها للناس كافة
فقال تعالى : ﴿ فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اخذتموهم
فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب اوزارها ذلك
ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ (١) فكانت غزوة
بدر الكبرى التي ابتلى فيها المؤمنون أشد البلاء وذلك أن طائفة من
قريش كانت قادمة من الشام بعير تحمل تجارتهم برئاسة أبي سفيان
فما إن علم المسلمون بمرور القافلة حتى خرجوا لطلبهم ولما علم أبو سفيان
بخروجهم بعث لقريش يستنجد بهم فخرجوا مدججين بالسلاح والمؤمنون
لحماية القافلة لكن خروجهم في الحقيقة عند النظر والتأمل قد تم بتدبير
من الله سبحانه ليقتضي على صناديد الكفر وزعماء الضلال بدليل أن أباسفيان
غير وجهته بمحاذاة البحر ما جعله ينجو من قبضة المسلمين فليتم ما
أراد الله من ازهاق الباطل واطهار الحق أصركفار قريش على محاربة
الرسول صلى الله عليه وسلم وجنده من المسلمين في موقعة بدر التي التقى
فيها الجمعان بغير موعد . ورغم تلكه بعض المسلمين الذين كانوا
يريدون طائفة العير لما فيها من الأموال والغنائم ورغم أن بعضا من
كفار قريش لما علموا بنجاة العير أشاروا على جندهم بالرجوع ولكن
كما قلت سابقهم قدر الله لحتف انوفهم وذلك ليتم ما أراد الله
من اختبار الفريقين باقامة الحجة على الكفار وليبتلى المؤمنون بالنصر
والغنيمة ولاحباط فئة الكفر والضلال ، ليعلموا علم التوحيد ويتم احقاق

الحق كما أخبر سبحانه في قوله * وإن يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون * (١)

والتقى الجمعان على جانبي الوادي، جمع الهدى والحق بقيادة خير الخلق صلى الله عليه وسلم وجمع الضلال والخسران يومهم الشيطان الذي خذلهم بعد أن أوقعهم في شرك المذلة وبوء رة الخسة فتولى عنهم فارا من عقاب الله كما روى عن ابن عباس (٢) قال : لما كان يوم بدر سار ابلهس برايته وجنوده مع المشركين وألقى في قلوب المشركين أن أحدا لن يغلبكم وأني جار لكم فلما التقوا ونظر الشيطان إلى امداد الملائكة نكص على عقبه . قال رجع مدبرا وقال : «إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب» كما أخبر في قوله سبحانه وتعالى * وإن زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبه وقال إني برىء منكم وإني أرى ما لا ترون وإني أخاف الله والله شديد العقاب * (٣)

- (١) سورة الانفال آية ٨٠٧ .
(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره فقال : حدثني القاسم قال ثنا الحسين قال حدثني حجاج عن ابن جريج قال قال ابن عباس جامع البيان ج ١٠ / ١٤ ط / الاولي ١٣٢٧ هـ فيه الحجج المصيصي ثقة ثبت لكه اختلط بآخرة . انظر في شأنه التقريب ج ١ / ١٥٤ وانظر الكواكب النيرات في معرفة من اختلط لابن الكمال ط / الاولي ص ٤٥٦ . وفيه ابن جريج عبد الملك بن عبد العزيز ثقة فقيه فاضل وكان يدلس جعله ابن حجر في الثالثة . التقريب ج ١ / ٥٢٠ / كتاب تعريف أهل التقديس : ص ٩٥ نشر دار الكتاب العلمية بيروت . وباتي رواته زكروا في الثقات انظرهم في التقريب .
(٣) سورة الانفال آية ٤٨ .

بأنهم
أما جمع الهدى لما أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم/أصبحوا
أمام واقع حربي لا مفر منه . قال المهاجرون قولتهم الخالدة على لسان
المقداد بن عمرو حيث قال : يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن
معك والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك
فقاتل إنا ها هنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكما
مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (١) لجالدنا
معك من دونه حتى تبلغه .

ويطلب صلى الله عليه وسلم الاستشارة من الانصار فيقول سعد
ابن معاذ على لسانهم (فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت
به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة
لك فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق
لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد
وما نكروه أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء
ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله) (٢) ويمضي
رسول الله صلى الله عليه وسلم مسرورا بما سمع من المهاجرين والانصار . وعدد
الجميع يومئذ بضعة عشر وثلاثمائة كما جاء في صحيح البخارى (٣) من
حديث أبي اسحاق قال (سمعت البراء رضي الله عنه يقول حدثني
أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ممن شهد بدرا إنهم كانوا عدة أصحاب

(١) بفتح الباء وكسرهما وضم العين وكسرهما أيضا اسم موضع باليمن

النهاية لابن الاثير ج١/١٢١ .

(٢) رسيرة ابن هشام ج١/٦١٥ الطبعة الثانية / الحلبية .

(٣) أخرجه في المغازى باب عدة أصحاب بدر انظره بشرح فتح

البارى ج٧/٢٩٠ .

طالوت الذين جازوا معه النهر بضعة عشر وثلاثمائة) وكفار قريش ما بين
الستمائة والالف (١) وبعد أن أجمع المسلمون أمرهم وصموا على قتال
أعدائهم وهياً وأماكنهم الحصينة واقترب الوعد الحق . وأخذ صلى الله
عليه وسلم يشد من العزائم ويقيم الصفوف والتجأ صلى الله عليه وسلم
الى القوى العزيز رافعاً يديه الى السماء وهو يقول : (اللهم إني
أنشدك عهدك ووعدك . اللهم إن شئت لم تعبد ، فأخذ أبو بكر بيده
فقال حسبك : فخرج وهو يقول : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) (٣)
ويلتقي القوم وقد هياً الله الأسباب لنصرة جند الحق فجعل كلا من
الجمعين قليل العدد في أعين الآخرين ليتطلع ويطمع فريسيق
المسلمين في الانقراض والقضاء على المشركين فهم قلة في أعينهم في
حين أن الله صور المسلمين قلة قليلة في أعين المشركين حتى لا يعطوا
كبيراهتمام وعظيم شأن لمقاتلة المسلمين ومحاربتهم وذلك ليقتضي الله
أمراً كان مفعولاً . قال الله تعالى ﴿ وان يريكم وهم إذ اتقيتم في
أعينكم قليلاً و يقللکم في أعينهم ليقتضي الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع
الأمور ﴾ (٤) وما إن تداخل الفريقان حتى أكرم الله رسوله والمؤمنين

بالنصر والعون بأن استجاب الله لنصرة أوليائه بانزال الملائكة
فأمدهم بثلاثة آلاف ثم زادهم حتى وصلت خمسة آلاف كما روى عن

(١) سيرة ابن هشام ج١/٦١٧ .

(٢) أخرجه البخاري من حديث ابن عباس انظره بشرحه فتح الباري

كتاب المغازي ج٧/٢٨٢ .

(٣) سورة القمر آية ٤٥ .

(٤) سورة الأنفال آية ٤٤ .

الربيع بن أنس قال (أمد الله المسلمين يوم بدر بألف ثم زادهم فصاروا ثلاثة آلاف ثم زادهم فصاروا خمسة آلاف) (١) ثم قال ابن حجر بعد نقله لهذا الأثر وكأنه جمع بذلك بين آيتي آل عمران والأَنْفَال وهذا يدل على أن القول الصحيح أن الملائكة إنما نزلوا في غزوة بدر كما يدل عليه أيضا صحيح البخاري في صحيحه ان اقتصر على نزول آيتي الملائكة في غزوة بدر حيث قال (باب قصة غزوة بدر وقول الله تعالى * ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون إن تقول للمؤمنين ألن يكفئكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع الله طرفا من الذين كفروا أو يكبتلهم فينقلبوا خائبين * (٢) ثم قال : (باب قول الله تعالى * إن تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم إن يخشاكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام إن يوحى ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألني في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب * (٣)

(١) رفتح الباري ج٧/٢٨٥ .

(٢) رر صحيحه بشرحه فتح الباري ج٧/٢٨٤ كتاب المغازي، آل عمران ،

(٣) انظر البخاري بشرحه فتح الباري ج٧/٢٨٦ كتاب المغازي . الأنفال ، آية ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤ .

ويؤيد هذا ما نقله القرطبي في تفسيره (١) عن الشعبي

في نزول آية آل عمران حيث قال : بلغ النبي صلى الله عليه وسلم
وأصحابه يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين
فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين فأنزل الله
تعالى ﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ - أَلَمْ يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ - مَسُومِينَ ﴾ .

وأيا كان الوضع فالله عز وجل هياً أسباب النصر لعباده

المؤمنين . فأنزل إليهم الملائكة وغيثهم النعاس تثبتاً لهم واطمئناناً
لأنفقتهم كما أنزل الله إليهم ما يحتاجون من الماء في طهارتهم ابطلا
لما قد يوسوس به الشيطان لهم من حيث عدم تطهرهم من الحدثين
وفيما قد جعل الرمال متماسكة حتى لا تسيخ فيها أقدامهم عند التحام
المعركة ، بما من الله به من تسديد رمي رسول الله صلى الله عليه وسلم
كفار قريش بالحصيا ، وبعد ذلك كله يمن الله على عباده المؤمنين بالقضاء
الربح في قلوب أعدائه الكافرين فأباح بوضتهم حيث قتل منهم الكثير
وسبى منهم عدد كبير فحاض المسلمون معهم في وطيس المعركة
وعددهم لا يتجاوز ثلث المشركين لكن إيمانهم الصلب وثبتت الله لهم
وطمأننته لأنفقتهم جعلت المعركة في صالح أولياء الله بالقضاء
على أعدائه والغنيمة لأوليائه ، نستدل لذلك بقوله عز وجل ﴿ إِنْ
يَخْشَيْكُمْ النُّعَاسُ أَمِنَهُ مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ
رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ إِنْ يُوْحِي رَبُّكَ

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ٤ / ١٩٥ .

(٢) سورة الأنفال آية ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين
كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ذلك بأنهم
شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ذلكم
فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ﴿١﴾ . ومن قوله ﴿ فلم تقتلوهم
ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمن
بلاء حسنا إن الله سميع عليم ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴿١﴾ .
وهكذا جعل الله الغلبة للمسلمين والمحق على الكافرين وهذا في حد
ذاته معجزة عظيمة وحجة قوية على صدق رسالة محمد بن عبدالله فيما
أخبر به من وعد بالنصر والظفر من الله فالذين هلكوا قد شاهدوا
هذه المعجزة فكانت حجة عليهم . وفي هذه المعركة أيضا رأينا أن النصر
كان مع الصابرين رغم قلة العدد والعتاد وما ذلك إلا من تحصيل ركائز
النصر التي إن حافظ عليها المؤمن غلبوا أعداءهم مهما بلغت قوتهم
وطالت شوكتهم وذلك أن الله أمر عباده بالثبات عند لقاء العدو ونهى
عن الفرار من وجهه وتولى الأدبار وجعله من أكبر الكبائر وأخبر أن عقوبة
التولى هي غضب الله وسخطه كما قال عز وجل ﴿ يأيها الذين
آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ
دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله
وأواه جهنم وبئس المصير ﴿٣﴾ .

-
- (١) سورة الأنفال آية ١١، ١٢، ١٣، ١٤ .
(٢) سورة الأنفال آية ١٧، ١٨ .
(٣) سورة الأنفال آية ١٥، ١٦ .

كما أمرهم سبحانه بالاستمرار في ذكر الله عز وجل بالقول والفعل مع التزام طاعة الله ورسوله فيما يخص المعركة وغيرها ومع جمع الصف وعدم تشتيت الآراء بالتنازع / يوهى^{الذي} الى الغشل والاحباط ورأينا أيضا كيف أن المهزيمة حلت بساحة الذين دأبوا على العناد والطغيان والمفاخرة والرياء فقد خرجت قريش من ديارها الى بدر بطرا وخيلاء واستكبارا في الأرض ولذلك وقفوا في سبيل نشر الحق بمحاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم فباءوا بالخزى والعار وتفرقوا أشتاتا قال عز وجل * يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا/ كثيرا لعلمكم تغلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورعاه^{الناس} ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط * (١) .

موطن الابتلاء في معركة بدر :

١ - ذلك واضح في تجلد المؤمن وهم أمام قوة تفوقهم في عدد الأفراد وعدد السلاح كما يظهر في مفاجأة المعركة ان المؤمن خرجوا وليس في حسابهم قتال فلم يكونوا مستعدين لمجابهة أعدائهم الذين يفوقونهم في القوة الظاهرة لكن ثبات المؤمن منين ومضائهم وبالتالي عمق ثقتهم بالله كما ظهر في قولتي المقداد ابن عمرو نيابة عن المهاجرين وسعد بن معاذ نيابة عن الأنصار . وهنا يظهر الفرق الشاسع بين خير أمة أخرجت للناس وبين بني اسرائيل الذين كان موقفهم مخزيا حيث عصوا أمر أنبيائهم .

٢ - يظهر ذلك أيضا أن الانتصار في المعارك التي تشتعل

نارها بين أهل الايمان وأهل الضلال والالحاد يكون الاعتماد فيها على العقيدة الصالحة الخالصة التي يظهر أثرها في فعل الانسان وقوله صحيح أن الاستعداد المادى ضرورى لكن بدون عقيدة صحيحة يتصل صاحبها بالخالق المالك لا يوجد انتصار حقيقي ثابت الجذور فسي المجتمع الانساني على مدار الأعمار والأزمان .

٣ - التمسك بالصبر المصاحب للتقوى بمعناها الشامل يقلب

القوة لصالح أصحاب الحق وبالتالي يتسبب في تتابع الامدادات من الله المعبود بحق ومن هنا لم ينفع كفار قريش الأسباب المادية من حيث نزولهم في أحسن موقع ومن حيث حصولهم على كثير من الآلات الحربية وحتى على الأرض التي كانوا معسكرين عليها كانت صلبة بالنسبة لموقع المسلمين ، وبالتالي كانت العير المحملة بصنوف الامدادات خلف ظهورهم يتوقعون المدد منها في كل لحظة كل ذلك ولم تقم له قائمة ولم يجنوا فائدة أمام صبر المؤمنين وشدة عزيمتهم المنبثقة من عمق إيمانهم بقوة ربهم وخالقهم . هذا ولما رجع المشركون من هذه المعركة بالخيبة والعار وذاقوا شر هزيمة جلبت عليهم المذللة والخزى تأججت في قلوبهم نار النقمة واشتعل في صدورهم أوارها فقرروا الكرة بعد فترة وجمعوا الجموع من جديد وتقاسموا لذلك فيما بينهم الطريف والتلذذ . وعلى رأسهم أبو سفيان فأعدوا العدة الكاملة طوال سنة وهم يتجهزون بغية محاربة الدين الحق

وأهله كما قال عز وجل * إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن
سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين—
كفروا إلى جهنم يحشرون ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث
(١)
بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون *
وهكذا خرج كفار قريش بنسائهم يشجعون مقاتلتهم حتى وصلوا إلى
جبل أحد مقابل المدينة . وما إن سمع المسلمون بتجمعهم حتى تجهز
رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن استشار أصحابه في الخروج أو عدمه ،
فأشار عليه الكثير منهم بالخروج إليهم لئلا يظن الكفار أننا جنباء
وضعفاء فاستقروا على الخروج إليهم فخرجوا وهم ألف رجل والمشركون
ثلاثة آلاف وحينما وصل المسلمون إلى أحد خذلهم رأس المنافقين ابن
أبي فرجع ومعه ثلاثمائة رجل فأصبح جيش المسلمين سبعمائة (٢) ،
وبرجوع ابن أبي كادت طائفة بني سلمة وبني حارثة تصاب بالخور والتثبيط
لولا أن الله ثبتهما كما جاء في صحيح البخارى من حديث جابر رضي الله
عنه قال أنزلت هذه الآية فينا * إذ همت طائفتان منكم أن تغشلا *
(٣)
بني سلمة وبني حارثة وما أحب أنها لم تنزل والله يقول * والله وليهما * .
فاحتل المسلمون مواقعهم ونظم الرسول صلى الله عليه وسلم صفوفهم كما
قال عز وجل * وإن غدوت من أهلك تبوء الموءنين مقاعد للقتال والله
سميع عليم * (٤) . وكما جاء في البخارى من حديث البراء رضي الله عنه

-
- (١) سورة الانفال آية ٣٦ ، ٣٧ .
(٢) انظر الهداية والنهاية لابن كثير ج٤ / ١٣ .
(٣) انظره بفتح البارى ج٧ / ٣٥٧ كتاب المغازى باب " إذ همت
طائفتان منكم أن تغشلا " .
(٤) سورة آل عمران آية ١٢١ .

قال (لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشا من الرماة وأمر عليهم عبدالله وقال لا تبرحوا . ان رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وان رأيتموهم ظهوروا علينا فلا تعينونا فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتردن (١) في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة فقال عبدالله عهد النبي صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا فلما أبوا صرفت وجوههم فأصيب سبعون قتيلا (٢).

هذا الحديث الكريم يفيدنا أنه لما تقابل الفريقان وبدأت المبارزة

واشتد الاحتدام ظهرت الجولة في صالح المسلمين حيث بدأ الكفار يولون أديبارهم وهم كذلك إلى أن خالف الرماة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنزولهم من اماكنهم يبتغون عرض الدنيا وقال قائلهم :

الغنيمة الغنيمة فخرجوا عن وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو القائد - وتطلعوا الى متاع الدنيا الزائل كما قال عز وجل ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إن تحسبونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ (٣) ومعنى قوله تعالى (تحسبونهم) أي تقتلونهم كما نقل عن

ابن عباس (٤) وأنشد عليه قول عتبي الليثي :

-
- (١) يفتح أوله وسكون المعجمة وفتح المثناة بعدها دال مكسورة ثم أخرى ساكنة معناه يسرف في المشى وقال في النهاية يعدون .
الفتح ج ٧ / ٣٥٠ والنهاية لابن الأثير ج ٢ / ٤٥٢ ،
نشر دار الفكر بيروت .
- (٢) كشرحه فتح الباري ج ٧ / ٣٤٩ كتاب المغازي باب غزوة أحد .
- (٣) سورة آل عمران آية ١٥٢ .
- (٤) روح المعاني للألوسي ج ٢ م / ٤٩ / ٨٩ والبيت من الطويل .

نحسبهم بالبيض حتى كأننا نفلق منهم بالجمام حنظلا
ويخرج الرماة من موقعهم حصل لهم الاختبار حيث انسل خالد بن
الوليد بجيشه من الجهة التي كان فيها الرماة وانقض على جيش المسلمين
فأشيع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قتل ما زاد الاضطراب في صفوف
المسلمين وحصول الارتباك لدى بعضهم فأصيبوا بغمين : غم ما حل
بهم من القتل والجرح وما حصل لهم من الارحاف بقتل النبي صلى الله
عليه وسلم وفوت الغنمة . (١)

وأشفاؤ ذلك بين الله على المؤمنين بما هبت في قلوبهم الطمأنينة
والأمن حيث غشيم النعاس كما جاء في البخارى من حديث أبي طلحة
رضي الله عنه قال : " كنت فيمن يغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط
سيفي من يدي مرارا يسقط وأخذه ويسقط فأخذه . " (٢)

والحالة هكذا مليئة بالروع والارتباك يثبت الرسول صلى الله
عليه وسلم رغم ما أصابه في ربايته وشج في وجهه وأصيب في شفتيه
فينادى في المسلمين إلی عباد الله إلی عباد الله واستطاع أن يجمع
الجيش حوله بعد أن فعل المشركون فعائلهم فمثلوا بقتلى المسلمين
وفي مقدمتهم حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم الذي طعنه وحشي من
خلفه . وفي هذا الظرف الذي بلغ الغاية في الشدة يظهر نموذج من
المسلمين فريد وصل إلى الدرجة العليا في الوفاء بالعهد والثبات على المبدأ

وذلك لما شاع خبر قتل النبي صلى الله عليه وسلم وانتهاز الفرصة المنافقون

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١/٤١٧ وروح المعاني

للأوسى ٢م / ٤ج / ٩٢ .

(٢) انظره بشرحه فتح الباري ج٧/٣٦٥ كتاب المغازي .

بالتشكيك في نبوته حتى عن لبعض المسلمين أن يأخذ الأمان من رأس المنافقين ابن أبي. (١) ويظهر أنس بن النضر فيقول : يا قوم إن كان قد قتل محمد فان رب محمد لا يموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلوا على ما قتل عليه وموتوا على ما مات عليه ثم قال : اللهم إني اعتذر إليك ما يقول هو له لا ثم سل سيفه فقاتل حتى قتل رحمه الله ورضي عنه .

ومر بعض المهاجرين بأنصارى يتشخط في رمة فقال يا فلان أشعرت أن محمدا قد قتل ؟ فقال : إن كان قد قتل فقد بلغ قاتلوا عن دينكم فنزل (٢) قوله تعالى ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفلمن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا موء جلا ومن يرد ثواب الدنيا نوء ته منها ومن يرد ثواب الآخرة نوء ته منها وسنجزي الشاكرين وكأين من نبي قاتل معه ربيون (٣) كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴿ (٤)

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج٤ / ٢٣ الطبعة الاولى بالمطبعة السلفية .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ / ٤٠٩ والتفسير الكبير للرازي م ٥ / ج ٩ / ٢١

(٣) معناه جموع كثيرة وهو المنقول عن ابن عباس واستشهد له بقول حسان : وانا معشر تجافوا عن القصد ادأملنا عليهم ربيبا

والبيت من الخفيف . انظر روح المعاني م ٢ / ج ٤ / ٨٣ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ .

موطن الابتلاء في وقعة أحد :

١ - أقول والله أعلم إن انتصار المؤمن في بدر لا شك أنه من باب النعم وحتى لا يذهب المؤمن مذهب النسيان لنعم الله أراد الله أن يذكرهم بفضلهم فأيقظهم من نشوة الانتصار في بدر ورغم ذلك فإن ما حدث في أحد كان بسبب العصيان والمخالفة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الرماة هم الذين تركوا الفرصة تسنح للمشركين أن يفعلوا بهم ما فعلوا كما قال عز وجل ﴿ أولما أطابتكم مصيبة قد أصبتم مثلها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير ﴾ (١).

فمخالفة الرماة لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطينا أن العصيان لأمر الله ورسوله يجلب على المخالفين الشر والخسران وجميع البلياء.

٢ - ما حدث في أحد أظهر المخلصين في إيمانهم الثابتين على عهودهم ومواثيقهم كما ميز المتخاذلين الذين لم يخالطوا إيمان قلوبهم كرجوع ابن أبي بثلث الجيش الإسلامي كما ظهر التشكك في بعض المسلمين لما وقعت النكسة ولذلك لما ظهر الأمر أنزل الله النعاس على طائفة المخلصين الصابرين فظهر الذين يشبتون في السراء والضراء وينتفعون بوقائع المحن كما انكشف المنافقون الذين قالوا : ﴿ لو نعلم قتالا لاتبعناكم ﴾ وهم الذين قالوا في شأن إخوانهم الذين قتلوا

(١) سورة آل عمران آية ١٦٥.

* لو أطاعونا ما قتلوا * فنطق المتخاذلون بما كشف عن وهنهم وسوء

نيتهم كما قال عز وجل * إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول

يدعوك في أخراكم فأثابكم بما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم

والله خبير بما تعملون ، ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاسا يخشى

طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن

الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون

في أنفسهم ما لا يبذون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا

ها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم

وليبتلى الله ما في صدوركم وليحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور

إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم (١) الشيطان ببعض

ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلیم * (٢)

وقوله تعالى * وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم

المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا

لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون

بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون الذين قالوا لاخوانهم

وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادبروا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين * (٣)

٣ - ما أصاب المؤمن كان من باب التربية والتهديب

والتحريض بالحن وإلا فما وقعوا فيه لا ينقص من مجدهم ولا يحط من

قدر دينهم شيئا وبالتالي لا يدل على خسرتهم يبين ذلك أنهم

(١) المراد أنهم اتبعوا وسوسة الشيطان حينما دعاهم الى الزلل.

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ .

يقاتلون من أجل الحق ، أما المشركون فانهم يقاتلون من أجل الباطل
كما قال عز وجل ﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون
(١)
في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ .
ولذلك ما يصاب به أهل الايمان من شدائد يقصد منه التحريض
والمران على تحمل الشدائد وليكرم الله عباده المؤمنين بدرجات عليا
جعل الوصول إليها عن طريق الاستشهاد في سبيله فلولا الاستشهاد ما
أكرم الله الذين ماتوا في غزوة أحد بتلك المنازل ، ولذلك حينما يتعمق
الانسان في حبل لقاء الله وتتطلع نفسه لتلك المنازل يلقي كل شيء وراءه
ويظهر هذا النموذج فيما رواه البخارى من حديث جابر بن عبد الله
رضي الله عنه قال : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد : أ رأيت
إن قتلت فأين أنا ؟ قال : في الجنة . فألقى ثمرات في يده ثم قاتل
حتى قتل (٢) ، إذن فما يصيب المؤمن من محن لا يحط من قدره
بل إن درجاته ترفع بتلك البلايا ولذلك ينهى الله عباده المؤمنين
الذين يتعرضون للمحن عن الاتصاف بالضعف والحزن لأن ما أصابهم
لم يكن بأكثر مما أصاب أعداءهم غير أن العاقبة تختلف ، فليؤمنوا
الجنة التي لا يحصى نعيمها ، وللكافرين النار كما قال عز وجل ﴿ ولا
تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يبسكم قرح
فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله
الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليحص

(١) سورة النساء آية ٨٦ .

(٢) انظره بشرحه فتح الباري لابن حجر ج٣ / ٣٥٤ كتاب المغازي باب
غزوة أحد .

الله الذين آمنوا ويحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم
الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين * (١)

ويحسن بنا أن ننقل من اللّلال (٢) في هذا المقام مامعناه
أن الله يربى بالابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرّخاء وحرارة الهزيمة
بعد الاختبار بالنصر فتتضح أسباب النصر وأسباب الهزيمة فيزداد
المؤمنون طاعة وتوكلا على الله وتماسكا بجانبه واحتما بركنه .

وما كان ينتهي صلى الله عليه وسلم من موقعة أحد حتى أخذ
المرجفون في المدينة يشككون في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ويظهر
ذلك في العدو والثاني من الداخل إذ كان الذين واجههم النبي صلى الله
عليه وسلم في المدينة من المحاربين للدعوة :

١ - اليهود بطوائفهم الثلاثة : بني قينقاع ، وبني النضير

وبني قريظة وهو لا ، جميعا عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا
يحاربوه ولا يمالئوا عليه أحدا .

٢ - قبائل من العرب بعضهم كان ينتظر ظهوره على أعدائه

كخزاعة وبعضهم كان ينتظر القضاء عليه كبنو بكر . وبعضهم كان يظهر
المعية للنبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر ويخفي العداوة في الباطن
وهم المنافقون .

أما اليهود فقد عانى منهم المسلمون منذ قدومهم المدينة

أشد البلاء ورغم أن اليهود من طبائعهم أنهم في عمل الله وبالله

إفساد المجتمعات الانسانية بحيث يرون أنهم خير البشر

(١) سورة آل عمران آية ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ .

(٢) ج ١ / ٤٧٥ ط / ونشر دار الشروق جدة .

وأنهم الشعب المختار ولذلك هم في إفساد دائم لبني الانسان إلا أنهم في سبيل محاربة الاسلام كانوا يتوددون للمنافقين في المدينة قصد إضعاف شوكة الاسلام واستئصالها وحينما سنعرض مواقفهم مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه سنعلم عمق عداوتهم لرسول الاسلام وحقدهم الذي لا يفتر ولا يكل ولا يمل ما دام منصبا على هدم ركائز الاسلام ولذلك لما رجع صلى الله عليه وسلم من موقعة بدر دعا يهود بني قينقاع وحذرهم إن لم يؤمنوا فسيحل بهم ما حل بقريش يوم بدر وما كان منهم إلا أن ردا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بلهجة مليئة بالصلف والتشنج فقد نقل عن ابن عباس وعاصم بن عمر بن قتادة قولهما (١) (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة

(١) أخرجه أبو داود في سننه قال حدثني مصرف بن عمرو الأيامي أخبرنا يونس - يعني ابن بكير - قال أخبرنا محمد بن اسحاق حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن سعيد بن جبيرة وعكرمة عن ابن عباس .
سنن أبي داود بشرحها عون المعبود . كتاب الفقه والخراج والامارة . باب كيف كان اخراج اليهود من المدينة ج ٨ / ١٣٠ .
نشر دار الفكر بيروت . وفي سننه يونس وصفه في التقريب بأنه يخطي ج ٢ / ٣٨٤ . ط الثانية ١٣٩٥ وقال ابن أبي حاتم نقلا عن ابن معين : كان صدوقا . الجرح والتعديل ج ٩ / ٢٣٦ وانظر تاريخ ابن معين ج ٢ / ٦٨٧ فقد وصفه بأنه ثقة مرة أخرى وفيه أيضا محمد بن اسحاق صدوق يدلس ورمي بالتشيع والقدر كما قال ابن حجر في التقريب ج ٢ / ١٤٤ ط / الثانية ١٣٩٥ هـ ، وجعله ابن حجر في الرابعة من المدلسين . كتاب تعريف أهل التقديس ص ١٣٢ نشر دار الكتب العلمية بيروت . ووصفه ابن معين في تاريخه بأنه ثقة لكن ليس بحجة . تاريخ ابن معين ج ٢ / ٥٠٤ .

جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم
الله بما أصاب قريشا فقالوا يا محمد لا يغررك من نفسك أن قتلت نفرا من
قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن
الناس وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله في ذلك * قل للذين كفروا ستغلبون
وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ، ، قد كان لكم آية في فتنتين اتقتا
فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونها مثلهم رأى العين والله
يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار * (١) وهم
الذين ^{نزل} فيهم أيضا قوله تعالى * يأيتها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود
والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله
لا يهدي القوم الظالمين فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم
يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من
عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم ناديين * (٢) وذلك فيما رواه ابن
جرير (٣) بسنده عن عطية بن سعد (قال جاء عبادة بن الصامت من

ط / الاولى . وفيه محمد مولى زيد وصفه ابن حبان بأنه ثقة
وقال في التقريب مجهول ج ٢ / ٢٠٥ . انظر كتابه الثقات ج ٧ /
٣٩٢ ط / الاولى حيدرآباد وباقي رواه ثقات . ورواية عاصم
انظرها في تفسير ابن كثير ج ١ / ٣٥٠ نشر مكتبة دار التراث
القاهرة وانظر أسباب النزول لابي الحسن علي بن أحمد الواحدى
ص ٦٢ نشر مؤسسه الحلبي القاهرة .

(١) سورة آل عمران آية ١٢ ، ١٣٠ .

(٢) سورة المائدة آية ٥١ ، ٥٢ .

(٣) يقول حدثنا أبو كريب قال ثنا ابن ادريس قال سمعت أبي عن

عطية بن سعد . جامع البيان ج ١٠ / ٣٩٥ نشر دار المعارف مصر

بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم وإنني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله فقال عبدالله بن أبي إنني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن أبي يا أبا الحباب ما بذلت به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهولك دونه قال قد قبلت فأنزل الله الآية الآتفة الذكر* .

وهكذا يظهر تحالف اليهود والمنافقين على محاربة الاسلام .
فأرأس المنافقين يتولى حماية بني قينقاع فيكشف ما كان مكتوناً في قلوبهم من مرض النفاق وهم الذين كانوا يقسمون أنهم مع المؤمنين كما قال عز وجل ﴿ ويقول الذين آمنوا أهولاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴾ . (١)

وبذلك نقض بنو قينقاع العهد وخانوا حينما هددوا بالحرب وسار على دربهم بنو النضير إذ سلكوا طريق الغدر وشدوا على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم العزم حينما قرروا قتله بالقاء صخرة من فوق عليه وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى ديارهم ليؤدوا ما عليهم من نصيب في دية الرجلين اللذين قتلتهما أحد المسلمين خطأ

====
وفيه عطية وصفه في التقريب بقوله صدوق يخطي* ويدلس .
ج ٢٤ / ط / الثانية ١٣٩٥ هـ وقال فيه يحيى بن معين لمسا
سئل عن حديثه قال صالح . تاريخ ابن معين ج ٢ / ٤٠٧ . وجعله
ابن حجر في المرتبة الرابعة من المدلسين انظر كتابه تعريف أهل
التقدم ص ١٣٠ نشر دار الكتب العلمية بيروت . وباقي رواه
وصفهم في التقريب أيضاً بالثقات . وانظر أيضاً أسباب النزول للواحدى
ص ١٣٢ نشر مؤسسة الحلبي القاهرة .
سورة المائدة آية ٥٣ . (١)

من بني عامر القدين كان بينهم وسين النبي صلى الله عليه وسلم عهد وأمان ولم يكن يعلم الرجل الذي قتلها بذلك فتحمل صلى الله عليه وسلم ديتهما . وهكذا لما وصل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ديارهم بخصوص أخذ ما يجب عليهم دفعه انتهزوا فرصة وجوده فتتآمروا على قتله حيث ندبوا أحدا ليلقى على الرسول صلى الله عليه وسلم - فداه أبي وأمي - حجرا من فوق الجدار الذي يجلس بجانبه فأخبره جبريل بذلك فنهض وأقبل على المسلمين وأخبرهم بغدر بني النضير وأمرهم بالتهيب للخروج إليهم فأحلوا بساحتهم الخراب والدمار رغم أنهم تحصنوا بحصون ظن المسلمون أنهم لا يخرجون منها ، فألقى الله في قلوبهم الرعب ودوا يخربون حصونهم من داخلها وهنا يظهر تخالف المنافقين مرة أخرى مع اليهود حيث أرسلوا إليهم يحضونهم على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن لا يخرجوا من ديارهم ووعدهم بالحماية وأنهم لا يتركون محمدا يخرجهم حتى يخرجوا هم معهم/ كما كشف الله عن ذلك في قوله :
* ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لخارجن معكم ولا نطيع فيكم أحد أبدا وإن قوتلتهم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأذبار ثم لا ينصرون لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم لا يفقهون ، لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم لا يعقلون * (١)

وقد كشف الله في هذه الايات جبن الفريقين وهلعهم وما هم عليه من العداوة فيما بينهم والتفرقة التي حلت في قلوبهم فحاصرهم صلى الله عليه وسلم حتى استسلموا للخروج بشرط أن لا يحملوا معهم سلاحا . فجعل الله سلاحهم وديارهم وأموالهم غنيمة للمسلمين كما أخبر سبحانه في قوله : * هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليجزى الفاسقين * (١)

ولم يهدأ لبني النضير شأن أو يستقر لهم قرار أو يسكن لهم جناب حتى بدأت جمعهم منطلقا تولى قبائل على محاربة النبي صلى الله عليه وسلم وتفرق أعداءه عليه فاجتمعت قريش وغطفان واليهود ومن تبعهم حتى صاروا في جمع عظيم وتحزب كبير واستمال اليهود قريشا حينما قالوا لهم دينكم خير من دين محمد وأنتم أهدي منه ومن اتبعه (٢) فأنزل الله تعالى * ألم ترالى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا * (٣) فلما قال اليهود ذلك لقريش

(١) سورة الحشر آية ٢، ٣، ٤، ٥ .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١/٣١٥ وأسباب النزول للواحدى ص ١٠٣ نشر مؤسسة الحلبي وشركاه القاهرة .

(٣) سورة النساء آية ٤٤، ٤٥ .

نشطت قريش لدعوى اليهود بمقاتلة المسلمين فاجتمعوا وتواعدوا لذلك فخرجت قريش وقائدهم أبوسفيان وغطقان وقائدهم عيينة بن حصين . فتلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر القوم وتأهب لمقابلتهم وأمر المسلمين بحفر الخندق وأثناءها يفاجيء بنو قريضة المسلمين بنقض العهد فأحاطت الأحزاب بالمسلمين من فوقهم ومن أسفل منهم فعظم الكرب واختلفت الظنون واشتد الخوف وبلغ الفزع منهم مبلغه حتى اضطر المنافقون الى كشف حقيقتهم بعدم تصديقهم ما يخبر به صلى الله عليه وسلم من فتح للأمصار فيما يأتي من الزمن حتى قال قائلهم : (كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الفائط)^(١) وبدأت تنكشف عوراتهم . وبعضهم نادى بالرجوع إلى المدينة وبعضهم سلك سبل الخداع والمراوغة فتعللوا راجعين بحماية بيوتهم من الأعداء فظهر أنهم أقرب إلى الكفر من الأيمان فلوجاءهم الكفار إلى بيوتهم وطلبوا منهم الدخول في الكفر لفعلوا وما دروا أن ما فروا منه وهو الموت ليس عنهم ببعيد فلا عاصم إذن من الله إلا اللجوء إليه وامتنال أوامره . فالنجاة من عذاب الله وعقابه هو التمسك بطاعته وهدية والفرار إليه .

فكشفت الله "أمر المنافقين ، فهم في السلم يدعون الشجاعة وفي النصر يحرصون أشد الحرص على أن يعطوا من الغنيمة لكن عند الشدة والبأساء جبناء متخاذلون مرجفون يقولون وقت الزحف متربصون

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٣ / ٤٧٢ .

بالمؤمنين المهزومة ويقبلون عند توزيع الغنائم . ذلك ما أخبر به عزوجل
في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءَكُمْ
مِنَ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ
وَتَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا إِذْ
يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَإِذْ
قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا وَلَوْ
دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوهُمَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا
وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِ لَا يُؤَلِّوْنَ الْإِسْمَ وَكَانَ عَهْدَ اللَّهِ
مَسْئُولًا قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَسْتَعِينُونَ
إِلَّا قَلِيلًا قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ
رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْقُومِينَ
مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِأَخْوَانِهِمْ هَلْمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا أَشْحَةَ عَلَيْكُمْ
فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ بِإِلَيْكَ تَدْوَرُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ
مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذُهِبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشْحَةَ عَلَى الْخَيْرِ
أُولَئِكَ لَمْ يَوْنُوا فَأَحْبَبَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا
يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابَ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ
فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١﴾

هذه الحالة هي التي رأب عليها المنافقون كلما قامت معركة لتقوية شوكة الاسلام وانتشاره بين الناس يعملون على تشييط المسلمين لكلا يلتحقوا بالجهاد . فينشرون البلبلة والارجاف في صفوف المسلمين كما يظهر ذلك في النداء الالهي للذين آمنوا محذرا إياهم من مكائد المنافقين المندسين بين صفوف المسلمين * يأيها الذين آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا وإن منكم لمن ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيدا ولكن أصابكم فضل ليقولن كأن لم يكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما * . (١)

وكذلك موقفهم حينما تخلفوا في غزوة تبوك واستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في التخلف مع أن الحقيقة أنهم كانوا في استئذانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ هم ليسوا بمؤمنين ولو كانوا مؤمنين ما استأذنوا في التخلف عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن المؤمن من يرى الجهاد قربة إلى الله فيبادر إلى مرافقة رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن المنافقين لما كانوا في شك من الايمان لا إلى هو لا ولا إلى هو لا لم يريدوا الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتداء وبالتالي فخرجهم مع جماعة المؤمن لقتال الكافرين لا يزيد المسلمين الا محنة وفتنة ولذلك شطهم الله عن الخروج إذ ليس في خروجهم إلا الفساد والشر والوقيعه في صفوف المسلمين لا سيما أن من

بين المسلمين من يختربهم فيشق في أقوالهم كما جاء في قول الله عز وجل ﴿ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كرهه الله انبعاشهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدین لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولا وضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ومنهم من يقول ائذن لسي ولا تفتني إلا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين إن تصبك حسنة تسوء هم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرا من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴿ (١)

هكذا كان المنافقون ، ثلثة عظيمة في جنب المسلمين نظرا لأن ظاهرهم الاسلام وباطنهم الكفر والجحود ومن كان كذلك كانت فتنته أخطر ونكايته أشد وأبلغ . بينما كان المؤمن حينما يأتي وقت الشدة يزدادون عزما ويكونون أصلب عودا وأقوى ايمانا لأن المؤمن يعتقد عندما يبلغ درجة عليا من الايمان أن الامتحان سنة جارية بل هو علامة على ^{تأصل} الايمان في القلوب فكلما كان البلاء قاسيا كان دليلا على تعمق الايمان في القلوب .

فالمؤمنون في الأحزاب لما اشتد بهم الخطب ودهمهم العدو وأحاطت بهم الجيوش من الداخل والخارج عرفوا أنه الاختبار الذي جعله الله سنة لتمييز أهل الايمان من غيرهم فازدادوا انقيادا

وتسليماً لا وأمر الله كما قال عز وجل * ولما رأوا المؤمنين من الأحراب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً * (١)

وكما جاء في صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه يقول:

(خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق فإذا المهاجرون والأَنْصار يحفرون في غداة باردة فلم يكن لهم صيد يعملون ذلك لهم فلما رأى ما بهم من النصب قال : اللهم إن العيش عيش الأخرى فاغفر للأَنْصار والمهاجرة فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما يقينا أبداً * (٢)

وما رواه مسلم في صحيحه من حديث إبراهيم التيمي عن أبيه قال كنا عند حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال له رجل لو أدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلت معه وأبليت فقال له حذيفة أنت كنت تفعل ذلك لقد رأيت مع رسول الله ليلة الأحراب في ليلة ذات ريح شديدة وقر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرجل يأتي بخبر القوم يكون معي يوم القيامة فلم يجبه منا أحد ثم الثانية، ثم الثالثة مثله ثم قال صلى الله عليه وسلم : يا حذيفة قم فائتنا بخبر القوم فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم فقال : ائتني بخبر القوم ولا تدعهم (٣) علي

(١) سورة الأحراب آية ٢٣، ٢٤.

(٢) انظره بشرحه فتح الباري ج ٣٩٢/٧ كتاب المغازي باب غزوة الخندق والبيت من الرجز.

(٣) معناه لا تفرعهم بل تحين في مشيك حتى لا يعلموا بك، انظر النهاية لابن الأثير ج ٢/١٦١.

قال فضيت كأنما أمشي في حمام^(١) حتى أتيتهم فاذا أبو سفيان يلقى^(٢)
ظهره بالنار فوضعت سهما في كبد قوسي وأردت أن أرميه ثم تذكرت
قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تذعرهم علي ولورميته لا صيته قال
فرجعت كأنما أمشي في حمام فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
ثم أصابني البرد حين فرغت قررت^(٣) فأخبرت رسول الله صلى الله
عليه وسلم^(٤) وهكذا ابتلى المؤمنون فزادوا إيماناً وصلابة
وظهر المنافقون فانكشفوا وباءوا بالذلة والهوان وانهمز الكافرون
فسلط الله عليهم ريحاً شتت جمعهم فرجعوا خائبين كما سلط الله عليهم
جنوداً من الملائكة فألقوا في قلوبهم الرعب والفزع حتى ارتحلوا مكرهين
كما قال عز وجل * ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى
الله المؤمن القتال وكان الله قوياً عزيزاً *^(٥) فرجع المؤمنون وقد
كفاهم الله القتال فأعز جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده .

(١) مشدد الميم واحد الحمامات المبنية كما قال الشاعر :

نهيتهما عن نورة أحرقتهما وحمام سوء ماءوه يتسعر

لسان العرب ج ٢/ ١٠٠٨ مادة حم نشر دار المعارف مصر .

والمراد انه لم يجد البرد الذي يجده الناس من تلك الرياح
الشديدة شيئاً بل عافاه الله منها . انظر شرح النووى لمسلم

ج ١٢/ ١٤٦ الجهاد باب غزوة الأحزاب .

(٢) أى يعرضه لحرها من شدة ما يجد من برد شديد من قولهم صلى
يلقى النار أى وجد حرها من باب تعب . المصباح المنير ج ١/

٤٠٩ مادة صلى نشر دار الفكر ببيروت .

(٣) بضم القاف وكسر الراء بردت أى لما سكنت وجدت مس البرد .
النهاية ج ٤/ ٣٨ .

(٤) صحيح مسلم بشرحه النووى كتاب الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب

ج ١٢/ ١٤٥ نشر دار احياء التراث العربي .

(٥) سورة الاحزاب آية ٢٥ .

وما إن وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم السلاح حينما قفل من وقعة الأحزاب حتى جاءه الأمر بالخروج إلى يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد التي كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومالتوا الأحزاب على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء في صحيح البخاري من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل عليه السلام فقال : قد وضعت السلاح والله ما وضعناه فاخرج إليهم قال : أين ؟ قال ها هنا وأشار إلى قريظة فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ^(١) فأمر المسلمين بالخروج إليهم وحشهم على الإسراع إلى مقابلتهم حيث قال فيما رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله عنه قال " قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب لا يصلين أحد العصر الا في بني قريظة فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم لا نصلي حتى نأتيهم ، وقال بعضهم : بل نصلي لم يرد منا ذلك فذكر للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يعنف ^(٢) واحدا منهم " ^(٣).

فخرج إليهم رسول الله في جيش المسلمين وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة فلما طال عليهم الحال واشتد عليهم الأمر نزلوا على حكم

-
- (١) بشرحه فتح الباري ج٧/٧٠٧ كتاب المغازي باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب .
- (٢) معناه لم يلم أحدا من الفريقين أو يعاتب عليه . انظر النهاية لابن الأثير ج٣/٣٠٩ نشر دار الفكر ببيروت والمصباح المنير ج٢/٥١٦ نشر دار الكتب العلمية ببيروت .
- (٣) بشرحه فتح الباري ج٢/٤٠٨ كتاب المغازي باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب .

سعد بن معاذ رضي الله عنه سيد الأوس وذلك لأن بني قريظة
كان الأوس حلفاءهم في الجاهلية (١) فظنوا أن سعدا سيحابيهم
ويحكم فيهم بما يبيحهم وهم الخائنون ينقضهم العهد فأرادوا طعن
المسلمين من حيث لم يكونوا يحتسبون فحكم فيهم سعد بما حكم الله
فيهم من فوق سبع سموات كما أخبر الصادق المصدوق فيما جاء في
صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بقوله :
(نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ فأرسل النبي صلى الله
عليه وسلم إلى سعد فأتا على حمار فلما دنا من المسجد قال للأَنْصار
قوموا إلى سيدكم - أو إلى خيركم - فقال : هو لا . نزلوا على حكمك
فقال : تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ، قال : قضيت بحكم الله .
وربما قال بحكم الملك (٢) وفعلا يتم القضاء على زمرة الخيانية
والحدق بالقتل والأسر وأخذ أموالهم غنية للمسلمين كما أخبر سبحانه
بذلك في قوله : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيتهم (٣)
وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم
وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا ﴿ (٤)

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج٤ / ١٢١ .

(٢) انظره بشرحه فتح الباري ج٧ / ٤١١ كتاب المغازي .

(٣) معناه من حصونهم جمع صيغة وهي كل ما يستنع به . انتهى

من روح المعاني للألوسي م٢ / ٧٢ ج٢١٥ / ١٧٥ وانظر معاني

القرآن للفراء ج٢ / ٣٤٠ ط / الثالثة ١٤٠٣ هـ .

وبهذا نتأكد من أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تمتاز عن غيرها من الأمم السالفة بالأمانة حيث بلغت أعلى قمة في الصبر والثبات لتأدية الأمانة التي تحملها الانسان حينما جعله الله خليفة في الأرض ظهر ذلك في استعراضنا لتلك المواقف التي بينت أن الايمان هو تحمل للشدائد وصبر على الامتحانات المزلزلة فلقد كانت - حقيقة - الأمة المحمدية خير أمة أخرجت للناس فهي أحق بتولي قيادة البشرية إذ كان فوزها في الابتلاء وكل ما امتحنت به يجعلها جديرة بتولى المحافظة على أمانة الخلافة في الأرض لأنه ما لا ريب فيه عند المنصفين أن جميع النحل والمعتقدات سوى عقيدة الاسلام كان أصحابها مذبذبون يفترون عند الشدة ينسون أنفسهم عند الرخاء .

موطن الابتلاء في غزوة الأحزاب :

١ - كشفت وقعة الأحزاب للمسلمين عن أعدائهم المنبئين بينهم من اليهود والمنافقين حيث تحالفوا مع القبائل المتحيزة لمحاربة المسلمين كبنو قريظة الذين كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً فنقضوها لما اشتد الأمر بالمسلمين وذلك بتعاونهم مع الأحزاب ومساعدتهم على محاربة المسلمين . وكارجاف المنافقين بيت الرعب والخوف وذلك فيما سلكوه من التكذيب لما وعد به الرسول أصحابه من النصر ومن أخذ كنوز كسرى وقيصر وفيما سلكوه من ايقاع الضعف والوهن في صفوف المسلمين باستأذانهم الرسول صلى الله عليه وسلم في الرجوع لحماية بيوتهم ختلاً وخداعاً حيث قالوا : * إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن

يريدون الا فرارا * (١) فانكشف أمر المنافقين لياخذ المسلمون حذرهم
فيما قد يأتى من مواقع وغزوات تستدعي قتالا وتضامنا بين المسلمين لمجابهة
أعداء الدين بحيث لا يتركون مجالا للمنافقين ينشرون من خلاله التشبيط
بين جماعات المسلمين .

٢ - ظهر خداع اليهود بنقضهم المواثيق التي بينهم وبين
الرسول صلى الله عليه وسلم ، بتكشيرهم عن أنياب البغض والعداوة فسي
وقت تجمعت فيه القبائل وتحزب بغاة الظلم والفساد . فأباح الله
بيضتهم وسلط جنده عليهم فأبادوهم بالقتل والأسر وجعل الله أموالهم
غنيمة لجند الحق وأئمة الهدى والعدل فانتصرت كلمة الحق وعلت راية
الايان بانهزام الأحزاب وبذلك تميز أهل الايمان من أهل الكفر
فثبت المؤمنون الذين صدقوا في ايمانهم في حالة تكالبت فيها عليهم
الأعداء وأحاطت بهم الجموع ، اليهود والمنافقون بالطعن والغدر
والكيد من داخل صفوفهم والكفار من خارج حدود مدينتهم حتى هلعت
قلوب بعض منهم وذلك عندما عظم الكرب أمامهم واشتد البلاء فكان
المؤمنون في قمة الثبات حيث ظنوا أن ما هم فيه من شدة هي ابتلاء
لبيان مقدار جهادهم ومدى صبرهم عندما يكون الحمل ثقيلًا والخطب أليما .
كما أن الكفار تميزوا بالخذلان والمقت نباءً وبالهلاك والدمار في الدنيا
وبالخلود يوم القيامة في النار .

٣ - أظهر الابتلاء في هذه الواقعة أيضا أن النصر أو

(١) سورة الأحزاب آية ١٣ .

الانهزام ليس بالكثرة في العدد والعدة وانا النصر من عند الله ، فهو وحده الذى يمن بالنصر والتأييد . صحيح أن الله ربط الأسباب بمسبباتها فلا بد من الاستعداد بما هو في العادة من أسباب النصر ، إلا أن القوة المادية بدون تأييد الله لا تغنى شيئا . وهذه حقيقة مقررّة في عدة غزوات كهنين التي أعجب بعض المسلمين فيها بكثرتهم وذلك أن بعض القبائل من هوازن وثقيف لم يسرهم انتصار المسلمين بفتح مكة فجمعوا الجموع وأقبلوا بقضهم وقضيضهم^(١) حتى نزلوا حنيننا على بضعة أميال من مكة من جهة عرفة يريدون قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما سمع المسلمون بذلك قال قائلهم : لن نغلب اليوم من قلة^(٢) فكانت الهزيمة لما انشغل المسلمون بالفنائم كما جاء في الخبر الذى رواه البراء^(٣) حينما سأله رجل من قيس أفررتم عنكم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين . فقال البراء ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر وكانت يومئذ رماة وانا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الفنائم فاستقبلونا بالسهم ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على بقلته البيضاء وان أبا سفيان بن الحارث أخذ بلجامها وهو يقول : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ، فمن نص هذا الحديث يظهر أن الكثرة من المسلمين خرجوا طامعين فسي

(١) أى بالكبير والصغير انظر النهاية لابن الاثير ج٤ / ١٦٠ .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ج٢ / ص ٤٤٤ ط / الثانية ١٣٧٥ هـ .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه انظره بشرح النووى ، كتاب الجهاد والسير

باب غزوة حنين ج٣ / ص ١٢١ .

الفنائم فوق الذعر في سائر الجيش وغزا الرعب قلوب المسلمين كما قال عز وجل * ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم * (١) ولما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين مذعورين دعا العباس وأمره أن يهتف بالانصار فنادى يا معشر الانصار يا أصحاب السمره (٢) هذا رسول الله يدعوكم فتجمع القوم نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعاد صفوفهم بعد أن ابتلوا أول الأمر حيث ظهر اندفاعهم نحو الفئيمة فعرفوا خطأهم وأدركوا أن الفرور بالكثرة مع الغفلة عند المدد من الله يوقع في الهزيمة . عقبها أمدهم الله بجنود من الملائكة من عنده (٣) فانتصروا على أعدائهم وانقلبت الهزيمة الى نصر وولت هوازن وأحلافها تاركة للمسلمين اسلابها (٤) وغنائمها . وهذا يعطينا أن المسلمين حينما يخلصون في الالتجاء إلى الله ينصرهم على عدوهم مهما بلغ من القوة والتجمع وكذلك في غزوة تبوك لم تجد كثرة جيش بني الاصحفر في مقابلة صبر المؤمن منين رغم ما كانوا فيه من الشدة وقلة العدد والعتاد .

(١) سورة التوبة آية ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) شجرة الرضوان التي وقعت تحتها البيعة .

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ / ٣٤٥ نشر دار التراث

القااهرة .

(٤) هو ما يؤخذ من سلاح وثياب ودابة وغيرها من المحاربين . انظر

النهاية لابن الاثير ج٢ / ٣٩٧ .

وذلك أنه ما إن استتب أمر المسلمين بعد الفتح العظيم لمكة حتى بدأ أعداء الاسلام من خارج الجزيرة يعدون عدتهم للغزو ومن أجل ذلك حشد الروم جيوشهم وهم أقوى ما يكونون في العدة والعدد ، فلما بلغ الأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالتهيء لمقابلتهم ، رغم بعد السفر وطول الشقة . استطابت نفوس المسلمين للجهاد واستعدوا للبلاء ولو كان في وقت اشتداد الحر وانتشار لبح الهاجرة وقرب جنسي الثمار وحصاد الزرع . فظهر المؤمن الصادقون وتميز المذبذبون . فمن خالجت نفسه التقوى لم يبال في تحمل مشاق الجهاد صيفا وشتاء ولا حرا وقرا . ولذلك ما إن دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخروج الى غزوة تبوك حتى سارع المؤمن باحضار أموالهم وأنفسهم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما المذبذبون الحائرون بين الايمان والكفر ما إن سمعوا بالدعوة الى الجهاد حتى طعنوا الشقة وخالفوا الدعوة وأرجفوا بسوء العاقبة والمصير فحاولوا أن يخذلوا المسلمين فلم ينجحوا وأرادوا تثبيطهم عن العزم فلم يفلحوا بحيث صبر المؤمن فلاقوا ما لاقوه من شدة في الأمر في سنة مجدبة وحر شديد وعسر من الزاد والماء حتى لقد كان الرجلان يشقان التمرة بينهما ، وحتى كاد بعضهم يرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم كما قال عز وجل ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد

(١) ما كان يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم *
تاب عليهم حيث قد استثقلوا التحمل في وقت تجمعت فيه عليهم
أنواع الشدائد ، شدة القيظ والقحط ، بعد المسافة مع الحاجة الى
الاستعداد الكثير الزائد على ما جرت به العادة في سائر الفزوات لمقابلة
عسكر الروم كما أخبر سبحانه في قوله * يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا
قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا
من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل الا تنفروا يعدبكم
عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضره شيئا والله على كل شيء
قدير * (٢)

(١) سورة التوبة آية ١١٧ .
(٢) سورة التوبة آية ٣٨ ، ٣٩ .

انگلیز

الخاتمة

وبعد :

فالحمد لله الذى من علي باتمام هذه الرسالة المباركة بعونه
تعالى وتوفيقه والتي يستفاد منها :

١ - أن هذا الموضوع تناول قضية العلم بها ضرورة في حياة
المؤمن إن لم نقل بضرورة معرفتها للانسان عموما .

يؤيد هذا أن الباحث المنصف فيما يتعلق بتوضيح معانسي
كتاب الله الكريم لا شك أنه يعترف بانطلاقه أى موضوع في هذا الباب
من معاني الابتلاء ، فمن الممكن جدا استطاعة ربط معاني أى موضوع
يتعلق بالتفسير بمعنى الابتلاء وذلك أن الله العليم الخبير اقتضت
حكيمته وإرادته الكونية أن يكون الابتلاء طريقا لظهار موقف المكلف من
الأوامر والنواهي التي تعبدنا الله بها على وجه الاختيار فكان الخلق
للابتلاء وسيلة لظهار نتيجة الخلق للعبادة فكل من الخلق للابتلاء والخلق
للعبادة لازم للآخر ومكمل له فمن اهتدى واتبع طريق الحق له العاقبة
الحسنى ، ومن كابر وجحد كان في عداد من تم خلقه للنار .

٢ - الخالق سبحانه في كل ذلك غني عن سواه ، له الكمال
التام في صفاته وأفعاله يفعل ما يشاء في ملكه وهو العليم والحكيم في كل
فعل يريد ، وينشئه .

يخلق الأشياء لا لنقص يكمل به ذلك الخلق ، ولكن يخلق
أظهارا للكمال المطلق والحكمة البالغة ان هو العليم بدقائق الأشياء
وأسرارها - علما أزليا - قبل خلقها .

٣ - من تلك الأشياء أن الله ابتلى الانسان من خلال ارادته الكونية ليميز بين عباده في الطاعة والمعصية فيظهر للمعيان من استجاب للامر بالعبادة ومن تنكب سبيل الهدى فأعرض عن الحق واتخذ الشيطان ولياً . كما قال تعالى ﴿ فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ﴾ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴿ (١) .

٤ - اظهر ذلك من كرم الله عزوجل على الانسان وذلك أنه بالابتلاء يعطي المستقيم حقه موفورا ويجازى الجاهد بالمعدل على كفرانه .

٥ - من طريق الابتلاء أدرك الانسان أن له قيمة التكريم على غيره من خلقه الله حيث جعل له حرية الاختيار فيما يريد .

٦ - الابتلاء يجعل الانسان يأخذ ويعطي وهذا أيضا شيء يجعل للحياة التي أراد الله استمرارها فوق هذه البسيطة حركة دائمة ينتفع الانسان من معطياتها في حياته ليصل من خلال تحركه ذلك - ان استقام - الى طريقة الفوز في دار الجزاء .

٧ - الانسان من نظره البعيد في تقلبات الحياة يدرك أن وجوده له غاية مثلى وفيه حكمة عظمى وهذا يدفعه ليصل في النهاية الى الايمان بمبعث شجرة الخير التي من ثفاً تحت ظلالها كان له الأمان والفوز في الدارين وهذا يعطينا أن الابتلاء طريق لاعداد الانسان الذي لم يغفل عن سر وجوده في الدنيا بحيث يهيئ نفسه لكي تصل الى السعادة السرمدية بعد فترة الامتحان .

(١) سورة الاعراف آية : ٣٠ .

٨ - للوصول الى ذلك من الله على الانسان بما يمهده له سلوك طريق النجاح فرزقه العقل المدرك من خلال ما يبصره أو يسمعه ومن عليه بالوحي ارشادا وبيانا لكيفية العبادة التي يجسد الانسان السوى نفسه مفطورة عليها . وتبياناً لمواطن الجزاء لمن اتبع الهدى حيث آمن بخالقه وخضع له بناءً على ما بلغه من مأمورات ومنهيات فأخبر الوحي بجنة فيها نعيم مقيم لمن اتقى كما أخبر بنار فيها عذاب أليم لمن خالف طريق الحق وغلب جانب العصيان على جانب الطاعة.

٩ - شاءت ارادة الله وحكمته البالغة أن تكون مواطن الابتلاء في ميدانسي الخير والشر .
ففي ميدان الخير بالصبر على الطاعة من حيث امتثال أمر الله واجتناب نهيه.

وفي ميدان الشر بالصبر على ما يلقي الانسان من مكاره ومصاعب . وكل من الخير والشر . سواها المادى منها أو المعنوى تتفاوت درجاته من الأعلى الى الأدنى فيقع الابتلاء بهما كمن دعي الى الايمان وهو أعلى الخيرات ومنطلقها . وكمن أعطى المال وهو أدنى خيرات الدنيا . وفي الحالين المرء مبتلى : هل ينقاد لطاعة الخالق ويعترف بالنعمة لمن مده بها أم ينكرها ويبتنع من ادائها الحقوق الواجبة فيها فتكون عليه نعمة ، كما أنه مبتلى أيضا هل يتذرع بالصبر حينما يصاب بنوع من أنواع الشر كالفقر والمرض فيحتسب معتمداً على الله راجياً منه الجزاء الا وفسى بالمعاقبة الحسنى أو يجزع فيغفل عما هو فيه من نعم لا تحصي ملتفتاً الى القليل ما قد أصابه وأخطأ غيره فينقلب انساناً حقوداً ناصباً العداة لمن يتمتع بما لم يصل اليه هو .

١٠ - الانسان بمعاشيته للخيرة تارة ، وللشر أخرى قد يصل
- ان كان من الذين لم يسلكوا طريق العناد والجحود - إلى ادراك سبيل
الهدى فيقدر للنعمة قدره بشكره بالاذعان والخضوع لما يطله من
أوامر ونواه من عنده ويلتجئ إلى ربه حينما تحيط به المكروهات طالبا
كشفها ومتذكرا نعم الله عليه .

١١ - بذلك يقدر الانسان النعم حق قدرها ومن ذلك يتميز
الذين يشكرون في حال النعم فيجتنبون الطغيان والكفران . والذين
يصبرون عندما يشتد بهم البلاء وتعلو رؤسهم المحن . من الذين
يطفون في الرخاء ويتسخطون في الشدة والبلاء فيقعون بذلك في طريق
الخسران .

١٢ - الذين شكروا في حال النعمة وصبروا في حال النعمة هم
الذين أحسنوا الخلافة . وهم الذين تعطى لهم القيادة باحسانهم العمل
حينما صبروا في وقت الترف والنعمة . يقول عز من قائل ﴿ وعد الله
الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف
الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من
بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾ (١)

١٣ - ولوصول تلك الدرجة كان لزاما أن يعد الانسان ويتربى
بمعاشيته للخير مرة وللشر مرة وليكون الانسان على علم بميادين الخير والشر
فيميز بينهما من الله عليه بنعمة التكليف ، فابتلاه بما هو ضروري لاكتساب
مصلحته وبما هو لا استغناء لا حد عن تعاطيه من أعمال تجعل حياة
الانسان في مأمن من الفساد والانحلال وينال الخيرية التي جاءت في
قوله عز وجل ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ (٢)

(١) سورة النور آية : ٥٥ .

(٢) سورة البينة آية : ٧ .

١٤ - إن الله ابتلى الإنسان بما رغبه فيه من خيرات ووعد عليها بالشواب ، وبما بين له من شرور ونهاه عن ارتكابها وأوعده بالعقاب على مخالفة نهيه بارتكابها . والواقع المشاهد أن الذين امتثلوا وسلكوا الطريق الذى يحافظون به على التكريم الذى من الله به عليهم من خلال ما كلفوا به من أعمال هي في الحقيقة سجاج لهم من أن تضيع إنسانيتهم كانت حياتهم في استقرار وثبات على المبدأ الحق مما سيفوزون به من حياة ، أعلى وأخلد في الآخرة بخلاف الذين ضلوا السبيل بمكابرتهم وعدم امتثالهم فيما أمروا به من أعمال يستطيعون اكتسابها بإرادتهم الحرة . أعمال هي لهم بمثابة الحصن من الوقوع فيما يدمرهم فيخسرون الحياة الكريمة الدائمة في دار الجزاء . ومن هنا استحقوا أن يوصفوا بالشر كما قال عز وجل * إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية * (١) كما كانوا أيضا من حيث التشبيه في مصاف الحيوان وذلك ما نطق به القرآن في حقهم لما قال * ولقد زرنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون * (٢)

وهذا الصنف وقعوا فيما قد وقعوا فيه حينما أطاعوا الشيطان الذى

حذرهم رب العزة والجلال من اتباعه فيما يوسوس به لهم ويزينه فسي طريقتهم . وأخذ عليهم العهد بعدم اتباعه . يقول عز وجل بصدور التقرير والتبكيك للخاسرين في الآخرة * ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون * (٣)

(١) سورة البينة آية ٦ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٩ .

(٣) سورة يس آية ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ .

١٥ - اتباع الشيطان ناتج من اطلاق الانسان العنان لهواه ،
لانه اذا لم يقيد هواه بتماليم التكليف أوقعه فيما لا تحمد عقباه بحيث
يضله عن سبيل النجاة فيقع في الظلام المانع من الاستبصار ، يوء يد ذلك
ما جاء في القرآن الكريم * أفرء يت من اتخذ الهه هواه وأضله الله
على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه
من بعد الله أفلا تذكرون * (١)

١٦ - أبواب الهوى التي يبتلى منها الانسان كثيرة ومتنوعة
الا أنها تنفرع من أمرين : جعلها الله ركيزة في استمرار الحياة وقوامها :
المال والولد ، فالمال قوام الحياة في حركاتها ، وزينتها المحببة للنفوس ،
والولد ضروري في استمرار وجود البشر في هذه الأرض . ومن هنا ابتلى
الانسان بهما فاما أن يظهر العمل الحسن بتأدية الحقوق الواجبة فيه
شاكرا نعمة المعطى وإما أن يظهر العمل السيء فيبسط النعمة لصاحبها
بعدم الامتثال فيما أوجب عليه من حقوق .

وانسان آخر حرم من نعمة المال فابتلى بالفقر . وذلك أيضا
لاظهار صبره وثباته بالتضرع الى الله وسوء اله ما عنده معتقدا أن الحالة
التي هو عليها هي الاصلح له والا سلم بناء على حكمة الحكيم . وإما أن
لا يصبر فيظهر جزعه بخروجه عن الطريق الحق الذي ينبغي للانسان
المكلف التحرك فيه فيخطي الضوابط التي أقيمت لتحديد ما ينبغي
من تعامل بين الناس في جلب غايتهم وقضاء شهواتهم .

١٧ - الانسان الكامل أمام هذه الوقائع لا يمكن أن يجعل
المال هو أساس القيم والمفاضلة بين الناس بدليل أن المال قد يوجد
عند من وصفهم الله بالشريعة ومن هنا يخطي الذين يتعاملون
مع غيرهم على هذا النحو فيقلبون القيم رأسا على عقب وبذلك تضحى

المجتمعات التي يسود فيها هذا الخطأ الى وحشية ضارية تفقد منها الرحمة وتلبس ثوب الرذيلة . ولا نصيب فيها لأصحاب الفضيلة الى درجة أن الحاكم في مثل هذه المجتمعات يقلب القضايا في سبيل المال الذي جعله ميزانا لتحركه يجعل الحق باطلا والباطل حقا فيختل المجتمع كله بانتشار الظلم وتصبح الكلمة لصاحب المال . فجرأ فسق .

١٨ - وكذلك نعمة الولد حينما يرزق الانسان به قد

يتابعه في كل ما يريد ارضاء له ولو كان ما أراد . يوءى خلافا في الحقوق الواجبة عليه بأن يدفعه حب الولد للمعصيان والتمرد عما يطالبه به التكليف من أوامر ونواه . هذا من جهةٍ ومن جهةٍ أخرى قد يفرض الأب في حقوق الولد الواجبة في تربيته فيهبطه غير مبال بالصفة التي ينشأ عليها . وهنا الطامة الكبرى والفاجمة المظلمة ان اهمال الولد ينتج عنه تدمير حياته في الدنيا والاخرة فكم من ولد انفس في الرذيلة بسبب اهمال الآباء له مما يجعل الأب متحملا مسئولية خسران ولده . فتكون الجناية على الأب والابن ، ذلك كله ظاهر في جانب الابتلاء بالخير .

١٩ - الانسان قد يبطل بما هو أيضا ضار في الظاهر مفيد

ومصلح في الباطن وذلك لاطهار حقيقته الايمانية فيكشف عن هو صادق في مواقفه بأن يتأكد للعيان موافقة باطنه لظاهره وبيِّن من ينهار وحينئذ يميز بين الموء من الحق بتحملة للمكروهات وبيِّن الانسان الذي يتلون ويتقلب مع شهواته ، يرى الحق حيث يحصل مثاربه ويلبى نوازع لذاته ، ومن كان كذلك لا يصلح لحمل تعاليم الاصلاح للمجتمع البشرى .

٢٠ - الموت من لا يبالي بما يصيبه من المكروهات التي تثنيه عند المضي في طريق الحق أو تجعله يجحد النعم التي لم تنفك عنه والتي لا يستطيع عدّها ولكنه يرى مصلحته فيما يصيبه من مكروهات بين الفينة والفينة في حياته ويراهها من جطة الكائنات التي أراد الله إخراجها من العدم . ومن هنا هو يعطى اهتمامه للتعاليم الإلهية التي أنزلها الله حفاظاً على كرامة الإنسان . ولا يشغل نفسه بقول لماذا وقع كذا بعد أن يقصع ولكن موقفه من المكروهات التحمل بقلب راض معتقداً الحكمة والمصلحة فيما وقع .

٢١ - بينما الكافر لما فقد تكريمه بتكبره للأمر والنواهي يرى تقلبه في الحياة كلها مشحوناً بالاضطراب وعدم التوازن فحينما يبتلى بالنعم تجده بطراً منوعاً ومتسخطاً عندما يبتلى بالمصائب كما يصدق ذلك قوله تعالى ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ (١) .

فكفر الإنسان بخالقه أعظم جرم يرتكبه الإنسان ولذلك لا جزاء له إلا النار . ومن هنا قد نرى الكافر في حياته قلما يعرض للمكروهات بالنسبة للإنسان الموت من الذي كلما ترقى في الإيمان كلما تعرض لأقسى الاختبارات بدليل أن الصفة من البشرية - وهم الأنبياء - يتحملون الشدائد والصعاب ، لأنهم أئمة الهدى ورسول الله بالأمر والنهي للناس . فامتحنهم الله بضروب المحن وفنون البلايا زيادة في منزلتهم ورفعة في مراتبهم ولاظهار حالاتهم في الصبر على البلاء والجهد مع الأعداء ، ولاظهار رضاهم بما قضى الله عليهم من السراء والضراء . والشكر على النعماء والآلاء ولاظهار التسليم في الأمور والتوكل في الصدور ،

والاعتماد على رب العباد فيما أراد ، ولاظهار حاجاتهم بالدعاء والرجاء .
والتضرع منهم حال الاستدعاء والاستكفاء . وبالتالي تذكرة لمن دونهم
في المنزلة . وموعظة لسواهم ليتأسوا بهم والصبر على البلاء ويقتصدوا
بهم في الالتجاء الى الله كما قيل :

(١)

هو المهرب المنجى لمن أهدقت به مكاره دهر ليس عنهن مذهب
وأیضا ابتلاهم لمحو ما صدر عن بعضهم من غفلات وما سلف منهم من نسيان
ليكون أجرهم أكمل وثوابهم أوفر وأجزل .
تبين

وهكذا إن الله ابتلى رسله بالمرسل اليهم والمرسل اليهم المدعويين
للايمان بالرسالة ، فجعل الله سبحانه أولياءه ابتلاء لأعدائه ، وأعداؤه
ابتلاء لأوليائه وذلك كله لظهار فضيلة الصبر والرضا والتوكل والجهاد
والعفة والشجاعة والحلم والعفو . ول يتم العطاء على ملاك ذلك كله
وهو الايمان لأن العطاء عليه لا يفوقه عطاء أواكرام .

٢١ - اعتقاد الانسان ترتب المصائب على اقتراف الذنوب

كما قال عز وجل * وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن
كثير * (٢) يجعل الانسان يشغل نفسه بالاستغفار الذي هو أعظم
الأسباب في دفع تلك المصائب .

٢٢ - العلم بأن البلاء دواء نافع ساقه الله لتكفير الذنوب

ما كانت تمحوا لولاه يفيد أن عقبى المصائب في صالح الانسان المؤمن من
بحيث يعفو عنه ، وهذا في حد ذاته خير وحسن كما قال عز وجل
* فمسي أن تركزوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا * (٣) وكما قيل :
لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل (٤)

-
- (١) البيت من بحر الطويل .
(٢) سورة الشورى آية ٣٠ .
(٣) سورة النساء آية ١٩ .
(٤) البيت من بحر البسيط .

كما يفيد أيضا أن الشدائد جاءت لتمتحن صبر المؤمن وتبتليه
فيتبين هل هو من أولياء الله وحزبه أم لا .
فان ثبت اجتهاد الله وألبسه ملابس الفضل والاكرام ، وان انقلب
على وجهه ، ونكص على عقبيه تضاعفت عليه الشدائد وهو لا يعلم ،
* ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا
فانصرنا على القوم الكافرين * .

فهرست الموقوفات
بیروت

فهرس موضوعات الرسالفة

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
<u>المقدمفة</u>	
بيان أن ما يلقاه الانسان من خير أو شر ليس هو من صدفة الحظوظ	٤٠٣
بيان المجال الذي يدور فيه ابتلاء الانسان	٦٠٥
أنواع الابتلاء	١٠
الشر والخير منهما مفيدان ومنهما مطلقان	١٠
امتزاج الخير بالشر لاطهار الصابرين والشاكرين	١٢
منهج المؤمن لف في اعداد الرسالفة مبنى ومعنى	١٣
<u>الباب الأول</u>	
<u>الغاية من خلق الانسان</u>	
فصل : خلق الانسان للابتلاء وللعبادة	
معنى الابتلاء لغة	٢٣
معنى الابتلاء اصطلاحا	٢٦
تحقيق أن الابتلاء في جانب الله معناه الظهور فقط	٢٧
معنى العبادة لغة	٢٩
معنى العبادة شرعا	٣٣
الجمع بين مسار الخلق للابتلاء والخلق للعبادة	٣٦
فصل : هكمة الابتلاء	
هل لله غرض في ابتلاء عباده	٤٠
أوامر الله عزوجل منطلقة من حكمته ومشيئته	٤٢
ابتلاء الله عباده لاطهار من آمن أو من أعرض ليرتب على ذلك	
الثواب أو العقاب	٤٤

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٤٧	ابتلاء الله عباده ثم يشيخهم لا ينافى الكرم في جناب الله
٤٨	الابتلاء يحقق للانسان مصالح جمة
٦٤	فصل : ٤٥ : أتاح الله للانسان ما يصحح به ابتلاءه
٦٤	وسيلة الفطرة
٦٩	الخروج عن الفطرة خروج عما تعيل اليه طبيعة الانسان
٧٠	وسيلة العقل
٧٣	وسيلة السمع والبصر
٧٧	وسيلة الوحي
٧٨	بيان الثمرات التي جناها الانسان من الوحي

الباب الثاني

الابتلاء بالخير والشر

	فصل : مفهوم الابتلاء بالخير والشر معنى وصفة وحكمة
٩٠	معنى الخير والشر لفة
٩١	معنى الخير والشر اصطلاحا
٩٣	بيان أن التكليف من الخيرات
٩٥	اصابة الانسان للخير أو الشر ليس اكراما أو اهانة له
٩٨	محمل القول في بيان حكمة الابتلاء بالخير أو الشر
١٠٢	فصل : الابتلاء بالتكليف
١٠٢	معنى التكليف لفة واصطلاحا
١٠٥	عدم جدوى المناقشة في قضية تكليف ما لا يطاق
١٠٦	ما في التكليف من مشاق لا تخرج عن كونها معتادة
١٠٦	التكليف حبس للنفس عن الوقوع فيما يضرها
١٠٧	بيان المجالات التي يدور فيها التكليف

- ١١١ ضرورة التكليف لسلامة العالم من الفساد
- ١١٤ الانسان واسطة بين كفتين
- ١١٦ الناس فريقان فيما ابتلوا به من تكاليف
- ١١٨ بيان المدارات التي بنيت عليها الاوامر والنواهي
- ١١٩ الانسان مسئول عن اختياره في مجالات التكليف
- واجب المكلف الاهتمام بالاوامر والنواهي والاعراض
- ١٢٢ عما هو غيب عنه
- ١٢٥ بيان المصالح التي يتحصل عليها الانسان من التكليف
- ١٣٠ الانسان قبل ورود الشرع غير مكلف
- ١٣٣ اتباع هوى الانسان يوقعه في الرذائل
- ١٣٥ الشريعة المحمدية صالحة لكل العصور
- ١٣٥ التكليف قد يكون لمحض الابتلاء
- ١٤٢ فصل : الابتلاء بالمال والولد
- ١٤٢ الاختبار بالمال والولد أخطر الفتن
- ١٤٣ بيان معاني الفقر والغنى لفة واصطلاحا
- ١٤٦ المال ضرورة اجتماعية
- ١٤٨ بيان المقصود بجعل المال زينة
- ١٥٣ بيان مواقف الشاكرين أو الجاهدين
- ١٥٩ نكران النعمة لصاحبها سبب لفقدانها
- ١٦٠ فقدان الانسان للمال يظهر صبره أو جزعه
- ١٦٢ من اتمام قضاء الحوائج اختلاف الناس في الفقر والغنى
- ١٦٥ الكافر والعاصي يعطيان المال استدراجا ومكرا
- ١٦٧ الابتلاء بنعمة الولد
- ١٦٨ بيان الابتلاء بالولد من حيث اسعاده ماديا

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
١٧٠	بيان الابتلاء بالولد من حيث اسعاده روحيا
١٧٢	بيان الابتلاء بالولد من حيث فقده أو تنوعه
١٧٦	فصل : الابتلاء بالمصائب
١٧٦	مأخذ لفظ المصيبة لغة وبيانها اصطلاحا
١٧٧	بيان أنواع ما يصاب به الانسان
١٩١	بيان اختلاف الناس في عاقبة المصائب
١٩٦	بيان أسباب تعرض الانسان للمصائب
١٩٩	بيان أن الكافر أو العاصي قليلي التعرض للمصائب
٢٠٢	بيان الفوائد التي يجنيها الانسان من المكاره
٢٠٤	فساد احتجاج الانسان البالغ بمن مات دون البلوغ

الباب الثالث

٢١٢	<u>الابتلاء في طريق الدعوة الى الله</u>
	فصل : ابتلاء الانبياء واتباعهم
٢١٤	بيان حاجة الانسان الى ارسال الرسل
٢١٧	ارسال الرسل لطف من الله بعباده
٢١٧	مأخذ لفظ النبي لغة
٢١٨	مأخذ لفظ الرسول لغة
٢١٩	الفرق بين مأخذ النبوة والرسالة اصطلاحا
٢٢١	الانبياء أكمل البشر فكانوا أشد بلاء
٢٢٢	الانبياء في دعوتهم موحدون
٢٢٥	ابتلاء نبي الله آدم من جهة الامر
٢٢٩	الهدى والضلال هما المعيار لمنزلة الانسان
٢٣٠	بيان نتائج الابتلاء في قصة آدم

- ٢٣٢ امتحان نبي الله نوح من جهة الولد
- ٢٣٥ لا رابطة بدون ركيزة العقيدة
- ٢٣٦ ابتلاء ابراهيم عليه الصلاة والسلام
- ٢٣٧ موقف نبي الله ابراهيم حينما رمي به في النار
- ٢٣٨ ابتلاء نبي الله ابراهيم بالضحية بولده
- ٢٤٠ ابتلاء نبي الله يعقوب بفقد ولديه
- ٢٤٢ ابتلاء نبي الله يوسف من جهة الشهوات
- ٢٤٧ نبي الله يوسف يختار السجن مقرا على مخالفة التكليف
- ٢٤٧ حفظ يوسف لآمر الله يبوؤه مكانة عالية
- نبي الله يوسف يقابل اخوته بالصفح الجميل وهو قادر
على الانتقام
- ٢٤٩
- ٢٤٩ ابتلاء نبي الله موسى عليه السلام
- ٢٤٩ القاء موسى في البحر ليتم هدم بيت الطفيان من داخله
- ٢٥١ نبي الله موسى يحارب الظلم ولو كان من قوم الحاكم
- ٢٥٢ نبي الله موسى يقف الى جانب الضعفاء دون طمع
- ٢٥٤ ابتلاء نبي الله داود من جهة النعم
- ٢٥٦ ابتلاء نبي الله داود من قبل الفصل في القضاء
- ٢٥٩ ابتلاء نبي الله سليمان من قبل النعم
- ٢٦٣ نبي الله سليمان يستل أيضا من باب الحرمان
- ٢٦٥ ابتلاء نبي الله أيوب بالنعم فشكر وبالنقم فصبر
- ٢٦٨ ابتلاء نبي الله يونس
- ٢٧١ ابتلاء خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

- ٢٧٥ فصل : ابتلاء الامم المدعوة قبل الاجابة
- ٢٧٥ الانحراف عن طريق الهدى طارىء على الانسان
- ٢٧٦ ابتلاء قوم نوح عليه السلام
- ٢٨٣ بيان مواطن ابتلاء قوم نوح
- ٢٨٦ ابتلاء قوم نبي الله عاد
- ٢٩٠ مواطن الابتلاء في قصة قوم عاد
- ٢٩٣ ابتلاء قوم نبي الله صالح
- ٢٩٧ بيان مواطن الابتلاء في قصة ثمود
- ٢٩٨ ابتلاء قوم خليل الله ابراهيم
- ٣٠٣ بيان مواطن الابتلاء في قصة قوم ابراهيم
- ٣٠٥ اختبار قوم نبي الله لوط
- ٣٠٩ مواطن الابتلاء في دعوة نبي الله لوط لقومه
- ٣١٠ دعوة نبي الله شعيب لقومه
- ٣١٧ مواطن الابتلاء في قصة قوم شعيب
- ٣١٩ بيان ابتلاء فرعون وقومه
- ٣٣٢ مواطن الابتلاء في قصة فرعون وقومه
- ٣٣٥ ابتلاء قريش بدعوة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم
- ٣٤٥ مواطن الابتلاء في مواقف قريش من الدعوة
- ٣٤٩ فصل : ابتلاء الامم المدعوة بعد الاجابة
- ٣٥٠ ابتلاء بني اسرائيل
- ٣٦٤ اختبار طالوت لبني اسرائيل
- ٣٧١ مواطن الابتلاء في قصص بني اسرائيل
- ٣٧٥ ابتلاء من آمن بدعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم
- ٣٧٨ اتفاق صناديد قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم

الصفحة

الموضوع

- ٣٨٠ اذن الله بالقتال لنبيه والمؤمنين معه
- ٣٨٣ وقوع غزوة بدر الكبرى
- ٣٩٠ مواطن الابتلاء في معركة بدر
- ٣٩٢ وقوع غزوة أحد
- ٣٩٤ ابتلاء المؤمن في غزوة أحد
- ٣٩٦ مواطن الابتلاء في وقعة أحد
- ٣٩٩ تحالف اليهود والمنافقين بعد أحد
- ٤٠٣ هم بني النضير يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم
- ٤٠٤ اليهود يؤلبون القبائل على محاربة رسول الله
- ٤٠٥ ابتلاء المؤمن في غزوة الخندق
- ٤١١ حصار يهود بني قريظة
- ٤١٣ مواطن الابتلاء في غزوة الأحزاب
- ٤١٥ ابتلاء المؤمن في غزوة حنين
- ٤١٧ ابتلاء المؤمن في غزوة تبوك

الخاتمة

٤١٩

فهرس الموضوعات

٤٢٩

المراجع

٤٣٦

مراجع الرسالة حسب حروف المعجم

- القرآن الكريم .
- أحكام القرآن للحافظ أبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي ،
الطبعة الحلبية مصر.
- ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود محمد العمادى
نشر دار المصحف القاهرة .
- أسد الغابة في تعريف الصحابة لعز الدين المعروف بابن الاثير ،
طبعة الشعب القاهرة.
- اصلاح المنطق لأبي يوسف المعروف بابن السكيت ،
مطبعة دار المعارف مصر.
- أضواء البيان لمحمد الامين الشنقيطي ،
الطبعة الثانية ١٤٠٠ .
- اقتصادنا لمحمد باقر الصدر ،
طبع دار الكتاب اللبناني بيروت .
- الاحكام في اصول الاحكام للحافظ أبي محمد علي بن حزم الاندلسي ،
مطبعة العاصمة القاهرة .
- البحر المحيط لمحمد بن يوسف أبي حيان الفرناطي ،
نشر دار الفكر بيروت .
- البداية والنهاية لابي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي ،
نشر مكتبة دار التراث القاهرة .
- البرهان في اصول الفقه لامام الحرمين عبدالملك المعروف بالجويني ،
توزيع دار الانصار قطر .
- التفسير الكبير ومفاتيح الغيب لفخر الدين محمد الرازي .
نشر دار الفكر بيروت .

- الثقات للمحافظ محمد بن حبان البستي ،
الطبعة الاولى حيدرآباد .
- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي ،
نشر دار الكتاب العربي القاهرة .
- الجرح والتعديل لعبد الرحمان بن أبي حاتم الرازي ،
نشر دار الكتب العلمية ببيروت .
- الحسنه والسيئة لشيخ الاسلام أحمد بن تيميه ،
مطبعة المدني القاهرة .
- الشفاء في شمائل صاحب الاصفاء للقاضي عياض ،
مطبعة المدني القاهرة .
- الفائق في غريب الحديث لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري ،
الطبعة الحلبية مصر .
- الفتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية ،
الطبعة الاولى .
- الفصل في الملل والنحل لأبي محمد علي بن حزم الأندلسي ،
نشر دار عكاظ جدة .
- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزآبادي ،
الطبعة الحلبية .
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم
جار الله محمود الزمخشري ،
نشر دار المعرفة بيروت لبنان .
- الكواكب النيرات في معرفة من اختلط من الثقات لأبي البركات محمد
ابن أحمد المعروف بابن الكيال ،
الطبعة الاولى .
- المحرر الوجيز للفسر عبد الحق بن عطية الأندلسي ،
طبعة قطر .

- المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله محمد الحاكم ،
نشر دار الفكر ببيروت .
- المستقصى لأبي حامد الفزالي ،
الطبعة الأولى القاهرة .
- المصباح المنير لأبي العباس أحمد العقري ،
نشر دار الكتب العلمية ببيروت .
- المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسن المعروف بالراغب الأصفهاني ،
الطبعة الحلبية القاهرة .
- الموافقات في أصول الشريعة لأبي اسحاق ابراهيم الشاطبي ،
نشر دار المعرفة ببيروت .
- الموافق للإيجي ،
نشر مكتبة الأزهري .
- الوحي المحمدي لرشيد رضا ،
مطبعة المكتب الاسلامي .
- النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين مبارك المعروف بابن الأثير ،
نشر دار الفكر ببيروت .
- انوار التنزيل لأبي سعيد عبد الله البيضاوي ،
نشر دار صادر ببيروت .
- ايثار الحق على الخلق لأبي عبد الله محمد المعروف بابن الوزير ،
نشر دار الفكر ببيروت .
- تاج العروس لمحمد مرتضى الزبيدي ،
نشر مكتبة الحياة ببيروت .
- تاريخ ابن معين تحقيق الدكتور أحمد نور سيف ،
الطبعة الأولى ١٣٩٩ .
- تأويل مشكل القرآن لأبي محمد مسلم بن قتيبة ،
الطبعة الثانية دار التراث القاهرة .

- تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس للحافظ أحمد بن حجر ،
نشر دار الكتب العلمية ببيروت .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير أبي الفداء إسماعيل ،
نشر مكتبة دار التراث القاهرة .
- تقريب التهذيب للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني ،
الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ .
- جامع البيان عن تأويل القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ،
نشر دار المعارف القاهرة .
- حاشية سليمان بن عمر المعجلي على الجلالين ،
الطبعة الحلبية .
- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب لمحمد الأمين الشنقيطي ،
الطبعة الثانية .
- ديوان الخنساء ، طبع دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٨ هـ .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لأبي الفضل محمود
الألوسي ، نشر دار الفكر ببيروت .
- زاد المعاد في هدى خير العباد لأبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية ،
الطبعة الحلبية الثالثة ١٣٦٩ هـ .
- سنن أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي بشرح السيوطي ،
نشر دار الفكر ببيروت .
- سنن أبي داود سليمان بن الأشعث بشرحها عون المعبود ،
نشر دار الفكر ببيروت .
- سنن أبي عيسى محمد/عيسى بن سورة الترمذي بشرحها تحفة الأحمدي ،
نشر دار الفكر ببيروت .
- سنن أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه ،
بتحقيق الأعمى الطبعة الأولى .

- سيرة أبي محمد عبد الملك المعروف بابن هشام ،
الطبعة الحلبية الثانية ١٣٨٥ هـ القاهرة .
- شرح الطحاوية في العقيدة السلفية لعلي بن علي المعروف بابن أبي العز ،
مطبعة العاصمة القاهرة .
- شرح مسلم ليحيى بن شرف النووي أبو زكريا ،
نشر دار احيا التراث بيروت .
- شرح منهاج الوصول في علم الأصول لجمال الدين عبد الرحيم الأسنوي ،
مطبعة صبيح مصر .
- شفاء العليل لأبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية ،
نشر مكتبة دار التراث القاهرة .
- صحيح الامام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري بشرحه فتح الباري
نشر وتوزيع دار الافتاء الرياض .
- صحيح مسلم أبي الحسين بن الحجاج النيسابوري ،
نشر مؤسسة الطباعة القاهرة .
- طبقات المفسرين لمحمد بن علي بن أحمد الداودي ،
نشر مكتبة وهبة القاهرة .
- عناية القاضي وكفاية الرازي على تفسير البيضاوي لشهاب الدين أحمد بن
عمر الخفاجي . نشر دار صادر بيروت .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ أحمد بن علي بن حجر ،
نشر وتوزيع دار الافتاء الرياض .
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي
الشوكاني ، نشر دار المعرفة بيروت .
- في ظلال القرآن للسيد قطب ،
مطبعة دار العلم والنشر جدة .



- ٤٤١ -

- قصر الانبياء لأبي الفداء اسماعيل بن كثير ،
الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ .
- لسان العرب لأبي الفضل محمد المعروف بابن منظور ،
نشر دار صادر بيروت .
- مجموعة الرسائل الكبرى لشيخ الاسلام بن تيمية ،
مطبعة صبيح القاهرة .
- مدارج السالكين لأبي عبدالله محمد بن قيم الجوزية ،
مطبعة السنة المحمدية القاهرة .
- مراقي السعود بشرحه نشر البنود لعبدالله بن ابراهيم الشنقيطي ،
مطبعة فضالة المحمدية المغرب .
- سند الامام أحمد بن حنبل الشيباني ،
نشر المكتب الاسلامي بيروت .
- مصباح الزجاجة للحافظ البوصيري ،
نشر دار العربية بيروت .
- معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء ،
الطبعة الثانية .
- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس ،
الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ .
- مقدمة أبي زيد عبد الرحمان بن خلدون ،
الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية القاهرة .
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال لأبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي ،
الطبعة الحلبية .
- ميزان العمل لأبي حامد محمد بن محمد الفزالي ،
الطبعة الأولى دار المعارف مصر .



فهرس الأبيات الشعرية

<u>الصفحة</u>	<u>البيت</u>
٣	فاذا سمعت بأن مجدود أحوى وإذا سمعت بأن محروما أتس
	عودا فأشرفني يديه فصدق ماء ليشربه ففاض فصدق

٣	ومالي لا تمس وتصبح في يدي
	كرائم أموال الرجال الغفائل

٣	لا تطلين بألة لك رتبة
	سكن السما كان السماء كلاهما
	قلم البليغ من غير حظ مغزل هدا له ربح وهذا أعزل

١٩	جرت الرياح على محل ديارهم فأرى النعيم وكل ما يلتهم به
	فكأنهم كانوا على ميعاد يوما يصير الى بلى ونفاد

٧٥	تأمل في نبات الأرض وانظر عيون من لجين شاخصات
	على قضب الزبرجد شاهدات
	الى آثار ما صنع الطييك وأحداقا كما الذهب السبيك
	بأن الله ليس له شريك

١٠٨	ثم الخطاب المقتضى للفعل وغيره الندب وما الترك طلب
	اولامع الخصوص أولا مع ذا لذاك والاباحة الخطاب
	جزما فاء يجاب لدى ذى النقل جزما فتحريم له الاثم انسب
	خلاف الاولى وكراهة خذا فيه استوى الفعل والاجتناب

البيت

الصفحة

حصان رزان ما تزن بريبة	وتصبح غرشي من لحوم الفواقل ١٨٧
حليلة خير الناس دينا ومنصبيا	نبي الهدى ذى المكرمات الفواضل
عقيلة حبي من لوى بن غالب	كرام المساعي مجدهم غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها	وطهرها من كل سوء واطسل
.....	
ولا عائد ذاك الزمان الذى مضى	تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر ٢٦٩
.....	
هو المهرب المنجي لمن أهدت به	مكاره دهر ليس عنهن مذهب ٢٢٧

فهرس الأحاديث

الصفحة

مطلع الحديث

- ٢ -

- ٢٢٥ ١ - أحب الصيام الى الله صيام داود
- ١٩٧ ٢ - اذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضت منهما الجنة
- ١٦٥ ٣ - اذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصية
- ١٩٠ ٤ - اذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة اقبضتم ولد عبدى
- ١٠٦ ٥ - اذا امرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم
- ٤٠٩ ٦ - أرجل يأتينى بخبر القوم يقوم معى يوم القيامة فلم يجبه منا أحد
- ٩٩ ٧ - الجنة أقرب الى من شراك نعله والنار مثل ذلك
- ١٦٩ ٨ - أكل ولدك نحلته
- ١٢٧ ٩ - الصيام جنة
- ٩٦ ١٠ - الكبرياء رداى فمن نازعنى رداى قصته
- ٣٨٦ ١١ - اللهم انى انشدك عهدك ووعدك
- ٤٠٩ ١٢ - الهم ان العيش عيش الآخرة فاغفر للانصار والمهاجرين
- ٢٢٤ ١٣ - الانبياء اخوة لعلات امهاتهم شتى ودينهم واحد
- ١٩٨ ١٤ - ان اعظم الجزاء مع عظم البلاء
- ١٠٢ ١٥ - أنا امتى براء من التكليف
- ١٠٤ ١٦ - أنا اغنى الشركاء عنى الشرك
- ٢٦٦ ١٧ - ان ايوب نبي الله لبت به البلاء
- ١٤٨ ١٨ - ان اكرا ما اخاف عليك ما يخرج الله لكم من بركات الارض
- ١٤٢ ١٩ - ان لكل أمة فتنة وفتنة امتى المال
- ١٥٦ ٢٠ - ان ثلاثة من بنى اسرائيل ابرص واقرعوا عمى
- ٩٤ ٢١ - ان من عبادى من لا يصلحه الا الفنى
- ٢٢٣ ٢٢ - ان مثلى ومثل الانبياء من قبلى
- ٣٤٤ ٢٣ - ان الوليد بن المغيرة جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم

فهرس الاحاديث



الصفحة

مطلع الحديث

- ٤١٥ - ٢٤- ان النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب
ب
- ١٣٩ - ٢٥- بينا الناس بقباء في صلاة الصبح
ب
- ٢٦٨ - ٢٦- بينما ايوب يغتسل عريانا خر عليه رجل جراد من ذهب
ب
- ٣٩٢ - ٢٧- بعد ان استشار اصحابه في الخروج او عدمه
ك
- ١٨٢ - ٢٨- تيب على كعب
ب
- ٢٤٦ - ٢٩- تكلم اربعة وهم صفار
ب
- ٣٨٧ - ٣٠- ثم زادهم فساروا خمسة الاف
ب
- ١٣٩ - ٣١- دعوني ما تركتكم
ب
- ٣٩٨ - ٣٢- رأيت ان قتلت فأين أنا؟ قال في الجنة
ب
- ٣٣- شيبيني هود واخواتها
ب
- ١٩٧ - ٣٤- عجب الامر المؤمن ان امره كل خير
ب
- ٣٣٦ - ٣٥- عن ابن عباس قال : الاسلام ثلاثون سهما
ب
- ٣٦٦ - ٣٦- عصاه ورضاض في الالواح
ب
- ١٧٠ - ٣٧- علمو الصبي الصلاة ابن سبع سنين
ب
- ٢٧٣ - ٣٨- فانا اللبينة وانا خاتم النبيين
ب
- ٤١٠ - ٣٩- فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم اصابني البرد حين فرغت فقلت
ب
- ١٦٩ - ٤٠- فهؤلاء رجال اسلموا من مكة
ب
- ٣٣٦ - ٤١- فقال : ارأيتم لو اخبرتم ان خيلا بالوادي
ب
- ٣٤١ - ٤٢- فقال لنا اشهدوا و اشهدوا فأراهم انشقاق القمر
ب
- ١٢ - ٤٣- انما بعثتك لا بتليك وابتلى بك
ب
- ٢٠٥ - ٤٤- فقال : الله اعلم بما كانوا عاملين
ب
- ١٣٧ - ٤٥- قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها واكلوا ثمنها
ب

<u>الصفحة</u>	<u>مطلع الحديث</u>
٢٢١	٤٦- قال : الانبياء ثم الامثل فالامثل
٢٢٢	٤٧- قال : انا كذلك يضعفنا البلاء ويضعف لنا الاجر
٢٦٣	٤٨- قال لسليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة
٢٤٢	٤٩- قوله : الكريمين الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب
١٤٧	٥٠- قول عمر اللهم انا لانستطيع ان نفرح بما زينته لنا
٣٦٣	٥١- قيل لبنى اسرائيل ادخلوا الباب سجدا قولوا حطة
١٤٥	٥٢- كاد الفقر ان يكون كفرة
٢٣٧	٥٣- كان اخر قول ابراهيم حين القى فى النار حسبى الله ونعم الوكيل
٣٦٩	٥٤- كان الذى جاء به عيسى الين الذى جاء به موسى
١٧٢	٥٥- كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته
٣٩٤	٥٦- كنتفيم يغشاء النعاس يوم احد حتى سقط سيفي من يدي مرارا
٢٤	٥٧- لا بالى احد بعدك أبدا
٣٠	٥٨- لا يقل احدكم لمملوكه عبدى وامتى وليقل فتاى وفتاتى
١٧٣	٥٩- لا يموت لاحد من المسلمين ثلاثة من الولد
١٩٢	٦٠- لا يزيد فى العمر الا الجر
١٩٣	٦١- لا يصيب عبدا نكبه فما فوقها
٤١١	٦٢- لا يصلين احدكم العصر الا فى بنى قريضة
٢٥٥	٦٣- لقد اوتى ابو موسى من مزامير آل داود
٣٧٧	٦٤- لقد كان من قبلكم يمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه
٣٩٣	٦٥- لقينا المشركين يومئذ واجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشا من الرماة
٣٨٤	٦٦- لما كان يوم بدر سار ابليس برايته وجنوده مع المشركين
٤٠٠	٦٧- لما اصاب من اهل بدر ما اصاب ورجع الى المدينة